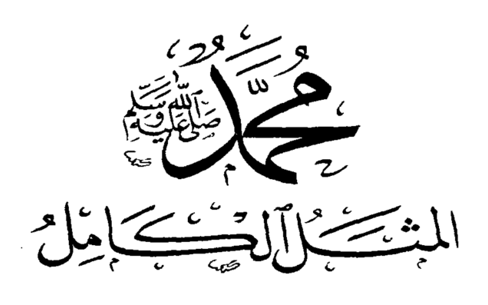


تأليف



يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد على بمصر
لصاحبها : مصطفى محمد

[الطبعة الأولى]
مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة
١٣٤٩ هـ - ١٩٣١ م

محتويات الكتاب

صفحة

*

فهرس

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

إســــــتدراك

جاء فى صفحة ١٦٥ : المقصد الثانى ، والصواب : المقصد الثالث .

---

*

المراجـــع

١ — القرآن الكريم .

٢ — كتب الأحاديث الصحيحة .

٣ — نهج البلاغة .

٤ — خلاصة السيرة المحمدية لحضرة العالم الجليل السيد محمد رشيد رضا .

٥ — السيرة الحلبية .

٦ — مركز المرأة فى الإسلام للمغفور له السيد الأمير على الهندى .

٧ — المعاهدات والمحالفات للأستاذ حسن خطاب الوكيل .

٨ — الرق فى الإسلام تأليف أحمد باشا شفيق وتعريب العلامة أحمد زكى باشا .

٩ — رسائل السلام للفيلسوف الكبير الشيخ يوسف الدجوى .

١٠ — موجز فى تاريخ الشرق للأستاذ نولديك المدرس بجامعة إستراسبورج بألمانيا .

١١ — سيرة محمد صلى الله عليه وسلم لمولانا محمد على بالهند

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى له المثل الأعلى ، والصلاة والسلام على محمد عبده المصطفى ، ورسوله المجتبى ، وصفيه المرتضى ، المؤيد بالمعجزات الباقية ، والآيات الباهرة التى وصلت إلينا بالأسانيد الصحيحة ، والأخبار المتواترة ، وعلى آله مصابيح الدجى ، وصحبه نجوم الهدى .

(وبعد) فإنى طالعت ما أدى إليه البحث من المُثُل الكاملة التى صورتها العقول البشرية جيلا بعد جيل ، فألفيتها مظهرا لبيئة الحكماء الذين تمثلوها وأمزجتهم وعقائدهم وطرق تفكيرهم ، وأنها على الدوام فى تدرج وتحول وفقا لمقتضيات الزمان والمكان وتحقيقا للأمانى التى تجول فى صدور بنى الإنسان ، وأن أحدا منها لذلك لا يصلح أن يكون هداية عامة لبنى الإنسان جميعهم على اختلاف زمانهم ومكانهم .

ولما كانت سيرة محمد صلى الله عليه وسلم من مولده إلى مماته ثابتة ثبوتا لا مرية فيه : بجميع أعماله مدونة وأحاديثه مسطورة شاملة لما يحتاج إليه بنو البشر فى معاشهم ومعادهم ، وكانت حياته ملأى بالمثل الصالحة الكفيلة بإنهاض بنى الإنسان وتثقيف عقولهم وتقويم أخلاقهم وإصلاح شئونهم ، كان هو المثل الكامل .

ولا غرو : فهو خير البرية طفلا ، وأنجبها كهلا ، أطهر المطهرين شيمة ، وأمطر لمُسْتَمْطَرِين ديمة ، وهو خير أسوة : للفرد فى قبيلته ، والزوج مع زوجه ، والأب مع

ولده ، والمربى مع تلميـــذه ، والواعظ مع مستمعيه ، والجنـــدى فى حومة الوغى ، والقائد فى تدبيره ، والمتشرع فى أحكام شريعتـــه ، والقاضى فى قضائه ، والسياسى فى حكومته ، والملك فى رعيتـــه ، والمسالم لأوليـــائه ، والمحارب لأعدائه ، والعابد فى محرابه ، والزاهد فى قناعته . كل أولئك يجدون من حياته العملية مثلا يحتذونها ، وروحا يقوون بهـــا على مزاولة أعمالهم ، وإماما يسيرون عليـــه فى تحقيق مآربهم ، ومردا يرجعون إليه عند حيرتهم وإن آختلفت مشاربهم وتباينت ألوانهم .

والله أسأل أن يهدى النـــاس إلى اتباع سنته السنية ، وآقتفاء سيرته الزكية ، والاقتداء به فى أخلاقه وأفعاله ، والتأسى به فى حربه وسلمه والأخذ بقوله ، والرضا بحكمه ، والعمل بدينه : فهو عز لا تهزم أنصاره ، وحق لا تُخذل أعوانه ، وسِلْم لمن دخله ، وهـــدى لمن آئتم به ، وبرهان لمن تكلم به ، وشاهد لمن خاصم به ، وآية لمن توسم ، وجُنّة لمن استلأم ، وعلم لمن وعى ، وحديث لمن روى ، وحَكَمٌ لمن قضى .

وقد جعلت الكلام فيـــه على عشرة أبواب : ليكون أنظم فى البحث وأقرب للوعى . والله المستعان ، وبه التوفيق . سبحانه . نعم المولى ، ونعم النصير .

---

*


محمد
صلى الله عليه وسلم
المثل الكامل

الباب الأول

إلى محمد صلى الله عليه وسلم ترد الفضائل جميعها

(١) إجمال

اختص الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بالمحامد الكثيرة ، والمآثر الأثيرة ، وأظهر على يديه الآيات ، وأقام له الألوية والرايات ، وفضله على خاصته وأحبابه ، وأثنى عليه فى غير موضع من كتابه ، ونصره بالرعب مسيرة شهر ، وأبقى معجزته ما بقى الدهر ، وكلأه بعنايته ورعايته ، وأيده بالبراعة واللسن ، وركب فيه كل خلق حسن ، وآتاه جوامع الكلم ، وحض على الاقتداء بهديه ، وأمر بامتثال أمره ونهيه ، وأجرى جوارى الخير على يديه ، وأوحى إليه وناجاه ، وأراه من آياته الكبرى ، وكرمه فى الدنيا والأخرى ، وأسبغ عليه من القبول أحسن المطارف ، وأولاه كثيرا من الخصائص ، وسواه فعدل تركيبه ، وأدبه فأحسن تأديبه ، وعلمه ما لم يكن يعلم ، وأرشده إلى حل كل مشكل ومبهم ، وجبله على الصيانة والعفاف ، وعدل به ميزان العدل والإنصاف ، وأفرده بإيداع سره المصون ، وعضده بكتاب كريم فى كتاب مكنون ، ومنح جانبه العزيز لينا ، وذاته الكريمة لطفا ، وفتح به أعينا عميا ، وآذانا صما ، وقلوبا غلفا ، ولم يبعث نبيا إلا ذكر له نعته ومسلكه ، وأخذ عليه الميثاق بالإيمان به ونصره إن هو أدركه ، ولم يعط أحدا من الأنبياء فضيلة إلا أعطاه مثلها وزيادة : نزه لسانه عن النطق بهواه ، وفؤاده عن الكذب فيما رآه ، وجنبه الزيغ وزكاه ، وعصمه من الأغراض ، وأناله من نيل الكرامة غاية السُّول ، وقرن طاعته بطاعته فى قوله تعالى : ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ وسماه فى كتابه نورا بقوله تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾ وشرح له بالرسالة صدرا ، ورفع له بذكره معه فى الشهادتين ذكرا ، وأيده بأظهر البراهين ،

وأبهر المعجزات ، ودرأ العذاب عن أهل مكة لكونه بواديهم فقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ وطهره من الأقذار والأدناس ، ودل على عصمته فى قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ وأحسن مخاطبته فى سورة ن ، ووعده فيها بأجر غير ممنون ، وأثنى عليه الثناء المستطاب العظيم بقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ .

(٢) تفصيل

إذا تصفحنا سيرة العظماء الذين شاد بذكرهم التاريخ وجدنا أن محمدا عليه الصلاة والسلام أرفعهم ذكرا ، وأبقاهم أثرا ، فما عهد التاريخ رجلا من عظمائه قد أهاب بأمة كالعرب ذات بأس وصراحة وحمية وإباء ، وذات خيال وتصور ، يدعوها أن تخلع نفسها مما هى فيه ، وأن تضع أعناقها للحق الذى لم تألفه حقا ، وأن تعطيه مع ذلك محض ضمائرها وهم لا يرون من أمره ذلك إلا قلة ودوانا واستخفافا وإن كانوا يعرفونه من قبل بحسن الخلق ، وصفاء الذمة ، وطهارة الضمير . ويعرفون أنه لا يريد ملكا ، ولا يبغى شيئا من عرض الدنيا ، بل قالوا : ﴿ قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِى آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ ثم مع هذا كله لا يداخلهم بالنفاق ، ولا يتألفهم على باطلهم ، ولا ينزل فى العقيدة على حكمهم دهاء ومخاتلة : كما يصنع دهاة السياسة وقادة الأمم ، وكما صنع نابليون فى مصر : إذ تظاهر بحب الإسلام ، وكما قال : "لو كنت أحكم شعبا يهوديا لأعدت هيكل سليمان (عليه السلام)" .

أما صاحب الشريعة الإسلامية صلى الله عليه وسلم فلم يفعل شيئا من ذلك : قد عُرِض عليه الانتصار بالمشركين على المشركين وهو فى قلة وحاجة إلى إنسان واحد يزيد فى عدد من معه فأبى وقال : لا أنتصر بمشرك . ومع هذا قد اجتمع له ما أراد ، وأعطته الأمة العربية عن يد وهى صاغرة للحق ، وبذلت له نصرها بعد التخذيل عنه ، وتعطفت عليه بقلوبها الجامحة ، وهو الراغب عن سنتهم ، والمسفه لأحلامهم ، والطاعن على شرائعهم .

إن نظرة بإمعان فى التاريخ تدلنا على أن العظماء يظهرون بين أقوامهم مماشاة لتدرجهم ورقيهم : فإن كان رقيهم فى باب الحقائق الفكرية ظهر من بينهم حكيم يضىء لهم السبيل بثاقب فكره وسديد رأيه ، وإن كان رقيهم فى باب الفتح وبسط الملك ظهر من بينهم فاتح عظيم يقودهم إلى الأقطار المتاخمة والنائية .

وكذلك القول فى المجدّدين والشعراء والخطباء وغيرهم من عظماء الرجال الذين يترجمون عن وجهة أقوامهم : فكل عظيم من هؤلاء هو روح عصره ، وظهوره جار على سنة النشوء والارتقاء — بيد أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يكن جاريا على هذه السنة ، بل جاء والعرب قد نزلوا إلى هاوية الانحلال الاجتماعى بما لم يعهد له مثيل فى تاريخ الأمم : فكانوا فى جهل مطبق بأحكام الدين الصحيح ، ومبادئ السياسة ، والحياة الاجتماعية ، ولم يكن لهم فن يذكر ، أو صناعة تنشر ، ولم يكونوا يعرفون شيئا من العلاقات الدولية ، وكانت كل قبيلة أمة قائمة بنفسها ، تحفز لشن الغارة على جارتها ، فلم يكن من المألوف أو المعقول أن بيئة كهذه البيئة تتمخض عن هذا العظيم الذى اجتمع له ما لم يجتمع لمصلح من قبله : لأنه كون أمة ، وأسس دولة ، وأقام دينا . أمور ثلاثة لم تجتمع لأحد من قبله ولا من بعده . ولا يعد ظهور بعض الأفراد النابهين أمثال أكثم بن صيفى دليلا على صلاحية البيئة العربية لإخراج أكبر المصلحين . الحق أن العناية الإلهية القادرة التى تخلق الجرائيم فى ظلمات البحار هى التى أبرزت هذا الإنسان العظيم ، وأمدته بعنايتها ، وجعلته نورا ينسخ الظلمات جميعها فيضىء أطراف الأرضين .

العظمة ليست وقفا على ما يتم على يد صاحبها من المعجزات أو العجائب ، وليست وقفا على ما هو عليه من الفصاحة والقدرة على استنباط النظريات ، فكل هذه مظاهر لا تلبث أن تزول : إنما العظمة الحقيقية هى الشخصية القوية الثابتة ، وهى التى تأتى بالعجائب ، وتأخذ بألباب المحتفين بصاحبها ، وتملك مشاعر الذين يجيئون من بعده ، وينظرون فى سيرته .

الشخصية الكاملة هي التي تلقي في قلوب أهل جيلها احتراما وهيبة لصاحبها ورغبة فيه، وتحملهم على محاكاته، وتحبب إليهم طاعته، ثم تصبغهم بصبغته، وتخلق في نفوسهم أساسا جديدا لتقبل عقيدته وآرائه، ويتصل تأثيرها هذا بقلوب الأجيال القادمة، فتظل عظمته خالدة .

كان محمد صلى الله عليه وسلم هو صاحب هذه الشخصية الكاملة، فلم يجئ قبله ولا بعده من يدانيه فيها : فقد بهر معاصريه وأقروا له بالرفعة والتفوق، وكان كثير منهم من أصحاب البيوت الرفيعة، والأحلام الراجحة، والأموال الوافرة، وكان كثير منهم من ذوي قرباه الذين يعلمون حق العلم حياتيه العامة والخاصة . ولو علموا عيبا لأذاعوه، أو وقفوا على نقص لأشاعوه .

احتمل أصحابه في مدى الاثنتي عشرة سنة من بدء البعثة كثيرا من الشدائد، وضروب الأذى، والاضطهاد : فكانت كل قبيلة تعذب من دان منها له أنواعا من التعذيب يفزع قلب الحليم من ذكرها، وهم يحملونها بصبر عجيب مما جعل المصطفى صلى الله عليه وسلم ينصح لبعضهم بالهجرة إلى الحبشة كما سيأتي . ومع هذا كله كان عدد أتباعه آخذا في النماء .

فما سبب تهافتهم عليه، واحتمال كل أذى في سبيله ؟ إن هي إلا شخصيته الجذابة التي ملكت عليهم قلوبهم ومشاعرهم حتى استطاع أن ينشئ منهم جيلا لم يستطع الفلاسفة على اختلاف عصورهم أن ينشئوا جيلا كالذي أخرجه محمد صلى الله عليه وسلم أو يدانيه : فكانوا نسلا حسنا في علو النفس، وصفاء الطبع، ورقة الجانب، ورجاحة اليقين، وطهارة الخلق، وعظم الأمانة، وإقامة العدل، والخضوع للحق، إلى غير ذلك من أمهات الفضائل .

من أجل ذلك وجب تفصيل طرف مما آتاه الله من الفضائل في نسبه ونشأته وأعماله : ليتبين للعالم أجمع أن محمدا صلى الله عليه وسلم هو الأسوة الحسنة الصالحة لتأديب الأفراد وسياسة الأمم، وأن جميع الخلال الحميدة المثمرة مقتبسة من حاله مأخوذة عنه .

(أ) فضائله الذاتية

(١) مولده وشرف نسبه وكريم نشأته

ولد صلى الله عليه وسلم فى صباح اليوم الثانى من شهر ربيع الأول عام الفيل على المشهور، أو صباح اليوم التاسع من هذا الشهر سنة ٥٧١ للميلاد على ما حققه المرحوم العالم الجليل محمود باشا الفلكى ، وكان مولده بمكة أشرف البلاد وأكرمها على الله سبحانه وتعالى : فهى بلد بركاتها نامية ، وموارد فضائلها طامية ، وأركان بيتها بالأمن مأهولة ، وأدعية الطائف بكعبتها مقبولة ، بلد كان من أهم أسباب نموها حاجة الحجيج : إذ كانوا يطلبون المأوى فلا يجدون سواها . وأماكن الحج ما زالت من قديم الزمان محط رحال التجار : لأن الناس إذا اجتمعوا فى جهة لغرض من الأغراض ألفوا أنفسهم مدفوعين إلى قضاء منافع لهم ، ولهذا صارت مكة سوق بلاد العرب جميعها ، ومحط التجارة بين الهند والشام ومصر وغيرها ، وقد بلغ سكانها فى وقت من الأوقات مائة ألف نسمة من بائع ومشتر . وكانت حكومتها ضربا من جمهورية الأشراف (الأرستقراطية) عليه صبغة دينية : ذلك بأنهم كانوا ينتخبون لها بطريقة عرفية عشرين رجلا من أعظم القبائل ليكونوا حكام مكة ، وحراس الكعبة . وكانوا فى عهد محمد صلى الله عليه وسلم من قريش . أما سائر الأمة العربية فكانوا متفرقين قبائل فى أنحاء الصحراء يفصل بعضها عن بعض البيد والقفار ، وعلى كل قبيلة أمير أو أمراء ، وقل أن تخمد جذوة الحرب بين هذه القبائل ، ولم يكن يؤلف بينهم حلف على سوى رابطة القومية واللغة وتلاقيهم عند الكعبة حيث كانت تجمعهم على اختلاف وثنيتهم . ظل العرب على هذه الحالة دهورا طوالا فى قتال دائم ، ونزال مستحكم ، وسلب ونهب ، وتحاسد وتباغض ، وتقاتل وتناحر : حروبهم لا تخبو نارها ، ولا يهدأ سعيرها ، تأكل الرجال ، وترمل النساء ، وتيتم الأطفال ، وخطباؤهم وشعراؤهم يستحثون العزائم ، ويستفزون العواطف ، ويشجعون الجبان ، ويحضون على الطعن والنزال . وحرب البسوس وداحس والغبراء من شواهد ذلك .

من بين هؤلاء العرب نشأ محمد صلى الله عليه وسلم وهو دعوة أبيه إبراهيم، وبشارة عيسى عليهما الصلاة والتسليم، وصفوة سلالة قريش وصميمها، ونخبة بنى هاشم راحلها ومقيمها، وأشرف العرب بدوا وحضرا، وأفضلهم بيتا، وأعزهم نفرا .

لم يزل صلى الله عليه وسلم ينتقل من خير الآباء إلى خير الأبناء حتى انتهى الى كبير مكة وقريش فى الجاهلية عبد المطلب بن هاشم، ثم إلى أبيه عبد الله والد المصطفى أشرف الناس نسبا عجما وعربا، فهو ذو نسب زكى: إبراهيم خليل الله دعامه، و إسماعيل سنامه ، وكنانة زمامه، وقريش نظامه ، وهاشم تمامه . اختاره الله من أرفع البيوت والمنازل: لأنه اصطفى من ولد إبراهيم الخليل رافع قواعد البيت إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة ، ومن بنى كنانة قريشا المعروف بالشرف والمكانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم، ومن بنى هاشم سر السراة أبا القاسم . و إلى ذلك يشير قوله صلى الله عليه وسلم : (إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشا ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم، فأنا خيار من خيار من خيار) وقول عمه أبى طالب :

إذا اجتمعت يوما قريش لمعشر * فعبد مناف سرها وصميمها
و إن حُصلت أنساب عبد منافها * ففى هاشم أشرافها وقديمها
و إن فخرت يوما فإن محمدا * هو المصطفى من سرها وكريمها

ولا غرو : فلم يكن فى آبائه مسترذل ولا مستبذل، بل كلهم سادة قادة .

نشأته : شب رسول الله صلى الله عليه وسلم والله يحرسه و يرعاه، ويحفظه من أدناس الجاهلية لما يريد من كرامته و رسالته : فجعله أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقا، وأكرمهم حسبا، وأعطفهم جوارا ، وأرجحهم حلما ، وأصدقهم قولا ، وأعظمهم أمانة ، وأبعدهم من الفحش حتى عرف بين أهل مكة وهو فى ريعان شبابه بالأمين : لأنه استوفى من مكارم الأخلاق كل مكرمة لم ينلها إنسان قبله ولا بعده، ولأنهم لم يشاهدوا نشأة كعجيب نشأته، فقد ملك عليهم مشاعرهم

بصبره وحلمه ، ووفائه وزهده ، وجوده ونجدته ، وصدق لهجته وكرم عشرته ، وتواضعه وعلمه، وعفوه وثباته .

عاش بين قومه وهم فقراء . وكان حاله كحال أحد بنى عمه وصبية قومه، ويزيد عليهم اليتم بفقد الأبوين ، ولم يكن له مؤدب ظاهر يعتنى بتثقيفه ، أو مرب معروف يتولى تهذيبه إلا طهارة العقيدة، والاعتصام بالفضيلة ، وكل عشرائه أهل وثنية وحراسها ، وجميع خلطائه أولياء أصنام وخدامها ، ولا عجب : فقد حدّث عن نفسه : « أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي » .

لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم فى نشأته جاريا على المألوف فى الصبيان من تأثر عقولهم ونفوسهم بما يرون ويسمعون ويحسون فى بيئتهم ، ولو جرى الأمر على ذلك لشارك (حاشاه) قومه فى تعظيم الأصنام وعبادتها، ولا نغمس (عصمه الله) فى ضلالات الوثنية وأوهامها، ولكن عناية الله قد تكفلت بتربيته فنشأ على أكمل ما تحلى به النفوس من جميل الصفات وحميد الخصال : لم يسجد لصنم ، ولم يشارك قومه فى عيد من أعيادها ، ولم يذق لحوم قرابينها .

ظل المصطفى صلى الله عليه وسلم يأكل من ثمرة عمله وكسب يده حتى استفاض بين الناس ما هو عليه من كريم الأخلاق، وعظيم الأمانة ، وصدق الحديث ، فعرضت عليه خديجة بنت خويلد أن يخرج فى مالها للشام ومعه ميسرة غلامها ، فشاهد من أمانته ، وطهارته ، وبركته، وسهولة معاملته ، ما جعله يترنم بمديحه، والثناء عليه عند سيدته التى لم تتردد فى أن تخطب المصطفى لنفسها وكانت سنها إذ ذاك أربعين سنة ، وسنه خمسا وعشرين سنة ، فرضى المصطفى صلى الله عليه وسلم زواجها ، ثم عاش معها على أتم وفاق وألفة ، وصفاء وغبطة ، يخلص لها الحب وحدها قانعا بالعيش الهادئ ، يثنى عليه الجيران ويحبه الإخوان ، ولم يفكر فى الزواج بغيرها حتى وافتها منيتها : لأنها هى التى آزرته فى أول أمره بمالها وعقلها . ولذلك قال فى شأنها : آمنت بى حين كفر بى الناس ، وصدقتنى حين كذبنى الناس ، وأعطتنى مالها حين حرمنى الناس .

غير أن المصطفى صلى الله عليه وسلم كان كلما تقدّمت سنه قوى فيه حب الانفراد والانقطاع إلى مراقبة الله تعالى والتعبد بمناجاته، فأخذ يخلو بغار حراء متعبدا فيه الليالى ذوات العدد : ليتوجه روحه الشريف إلى عالم المعانى، ويستعدّ لتلق الوحى الإلهى . وبدهى أنه لم يتلق درسا على أستاذ قط ، ولم يمارس القراءة ولا الكتابة، ولم يعرف من العالم وعلومه إلا ما تيسر له أن يبضره بنفسه فى ظلمات صحراء العرب، أو يصل إلى سمعه من حجاب جهالتها . وليس مطعننا فيه أنه لم يتعلم علوم العالم قديمها وحديثها،وأنه لم يغترف من مناهل غيره : لأن الله أغناه عن ذلك، وكفاك بالعلم فى الأمى معجزة .

(٢) حسن صورته وكمال خلقته

إذا كان فن التصوير لم يشرف بصورة محمد صلى الله عليه وسلم فقد نال القلم هذا الشرف الرفيع : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

وحسبك ما جاء عن الحسن بن على رضى الله عنهما أنه قال : سألت هند بن أبى هالة عن حلية رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان وصافا، وأنا أرجو أن يصف لى منها شيئا أتعلق به فقال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فخما مفخما : يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر، أطول من المربوع (١)، وأقصر من المشذّب (٢)، عظيم الهامة، رجل الشعر (٣)، إن انفرقت عقيقته (٤) فرق ، وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وفره، أزهر اللون، واسع الجبين، أزج (٥) الحواجب ، سوابغ من غير قرن (٦)، بينهما عرق يدرّه الغضب، أقنى (٧) العرنين، له نور يعلوه ، ويحسبه من لم يتأمله أشم ، كثّ اللحية ، أدعج (٨)، سهل الخدين، ضليع الفم، أشنب (٩)، مفلج (١٠) الأسنان، دقيق المسربة (١١)،

---

(١) بين الطول والقصر . (٢) البائن الطول فى نحافة . (٣) ليس بسبط ولا جعد . (٤) شعر الرأس . (٥) الحاجب الأزج : المقوس الطويل الوافر الشعر . (٦) القرن : اتصال شعر الحاجبين . (٧) القنا : احديداب فى الأنف . (٨) شديد سواد الحدقة . (٩) الشنب : رونق الأسنان وحسنها . (١٠) الفلج : فرق بين الثنايا . (١١) خيط الشعر الذى بين الصدر والسرة .

كأن عنقه جيد دمية فى صفاء الفضة، معتدل الخلق، بادنا[١]، متماسكا[٢]، سواء البطن والصدر، بعيد ما بين المنكبين، ضخم الكراديس[٣]، أنور المتجرد، موصول ما بين اللبة والسرة بشعر يجرى كالخط، عارى الثديين، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالى الصدر، طويل الزندين، رحب الراحة، شثن[٤] الكفين والقدمين، سائل[٥] الأطراف، عبل[٦] الذراعين، خمصان[٧] الأخمصين، مسيح القدمين، ينبو عنهما الماء.

إذا زال زال تقلعا[٨]، ويخطو تكفؤا[٩]، ويمشى هونا[١٠]، ذريع[١١] المشية، إذا مشى كأنما يحط من صبب[١٢] ارتقاه، وإذا التفت التفت جميعا، خافض الطرف، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، جل نظره الملاحظة، يسوق أصحابه، ويبدأ من لقيه بالسلام.

(٣) كمال منطقه صلى الله عليه وسلم

كان صلى الله عليه وسلم يعرف ألسنة العرب، ويعلم لغة من بعد منهم واقترب، ويخاطب كل طائفة بلسانها، ويجرى مع كل قبيلة فى ميدان بيانها، ففصاحته إليها المنتهى، وبلاغته أذهلت أرباب النهى، وجوامع كلمه مأثورة، وبدائع حكمه مشهورة، وطلاوة قوله تجل عن الصفة، وحلاوة منطقه لا يذوقها إلا أهل المعرفة.

أنزل القرآن الكريم بلسانه تعظيما لأمره ورفعة لشأنه. نشأ فى بنى سعد ورتبته فى قريش عاليـة، فجمع من الكلام رونق الحضارة، وجزالة البادية، وأيد ببراعة خصه بها من حكم بتوفير قسمه: لأن مدده الوحى الذى لا يدركه البشر، ولا يحيطون بشىء من علمه. كان صلى الله عليه وسلم حلو المنطق، فى كلامه ترتيل، كلامه فصل

(١) البادن: ذو اللحم. (٢) المتماسك: الذى يمسك بعضه بعضا. (٣) الكراديس: رءوس العظام. (٤) شثن الكفين والقدمين: غليظهما. (٥) طويل الأصابع. (٦) عبل الذراعين: غليظهما. (٧) متجافى أخمص القدم. (٨) التقلع: رفع الرجل بقوة. (٩) التكفؤ: الميل إلى سنن المشى وقصده. (١٠) الهون: الوقار. (١١) الذريع: الواسع الخطو

لا نزر ولا هذر، بيّن، يحفظه من جاس، ويفهمه كل من سمعه، كأنما هو درر نظمت، لا فضول فيه ولا تقصير، لو عدّه العاد لأحصاه .

نزه الله منطقه عن التكلف وتعقيد الصوت والتمتمة (١) والفأفأة (٢) والرُّتّة (٣) والتنطع (٤) والتمطق (٥) والتفيهق (٦)، وجعل منطقه مساوقا لطبيعة اللغة، فتم له إحكام الضبط وإتقان الأداء : فجاء لفظه مشبعا، ولسانه بليلا (٧)، وتجويده فخما، ومنطقه عذبا، ومصداق ذلك قول عائشة رضى الله عنها :

ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسرد كسردكم هذا، ولكن كان يتكلم بكلام بيّن فصْل، يحفظه من جلس إليه، وفى رواية أخرى : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث حديثا لو عدّه العاد لأحصاه .

انفرد محمد صلى الله عليه وسلم بأنه أوتى من الفصاحة وحسن البيان ما استطاع به أن يخاطب — كما تُقدّم — جميع القبائل العربية : كل واحدة بلحنها وعلى مذهبها، وكان فى خطابه إياهم بلحونهم أحسنهم بيانا، وأقومهم منطقا . ولم يعرف فى التاريخ أن إنسانا لم يمارس القراءة ولا الكتابة، ولم يرحل فى طلب تعرف لغات القبائل يفوق أهلها فى وضوح الحجة وظهور البرهان .

ولا غرو : فقد منحه الله سلامة الفطرة، وصفاء الحس، ونفاذ البصيرة، ومكنه من الإحاطة بلغات القبائل كلها على الوجه الأكمل، فكان فى تبليغها قوى العارضة : لا تغيب عنه لغة، ولا تضطرب له عبارة، ولا ينقطع له نظم، ولا يشوبه تكلف .

أوتى الحكمة البالغة وهو أمى من أمة أمية : لم يقرأ كتابا، ولا درس علما، ولا صحب عالما ولا معلما ما، بهر العقول، وأذهل الفطن من إتقان ما أبان،

---

(١) التمتمة : رد الكلام إلى التاء والميم . (٢) الفأفأة : ترديد الفاء فى الكلام .
(٣) الرتة : العجمة . (٤) التنطع : التعمق فى إخراج الحروف . (٥) التمطق : ضم الشفتين ورفع اللسان إلى الفك الأعلى . (٦) التفيهق : الثرثرة : ملء الفم بالألفاظ .
(٧) فصيحا .

وإحكام ما أظهر، فلم يعثر فيه بزلل، ولم يعرض له ما يعرض للخطباء من التخاذل وتراجع الطبع .

فمن الخطباء والفصحاء من إذا أطال استوعبت الإطالة جهده، فيبدو عليه الضعف، ومنهم من يواتيه الكلام فى مقام دون مقام آخر .

أما محمد صلى الله عليه وسلم فكان كلامه سردا مفصلا مرتلا واضحا، عليه مخايل النبوة . وكل ما كان فيه من روعة الفصاحة وعذوبة المنطق وسلامة النظم إنما هو منحة إلهية لم يتكلف لها عملا، ولا ارتاض من أجلها رياضة .

ولهذا أعجب أصحابه من لسانه وبيانه : فقد قال له أبو بكر رضى الله عنه : لقد طفت فى العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك فمن أدبك ؟ قال : «أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي» وجلى أن أبا بكر قد بلغ فى علم العرب وأنسابها وأخبارها شأوا بعيدا حتى قيل: «أنسب من أبى بكر» وخليق بنا أن نورد هنا كلام هند بن أبى هالة، وكلام الجاحظ فى وصف منطق المصطفى صلى الله عليه وسلم .

قال ابن أبى هالة : «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، ولا يتكلم فى غير حاجة، طويل السكوت (كان سكوته صلى الله عليه وسلم على أربع : على الحلم والحذر والتقدير والتفكر) يفتح الكلام ويختمه بأشداقه، ويتكلم بجوامع الكلم فصلا لا فضول فيه ولا تقصير، دمثا ليس بالجافى ولا المهين، يعظم النعمة وإن دقت، لا يذم شيئا، فلم يكن يذم ذَوَاقا[1] ولا يمدحه، ولا يُقام لغضبه إذا تُعُرِّض للحق بشىء حتى ينتصر له، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها، إذا أشار أشار بكفه كلها، وإذا تعجب قلبها، وإذا تحدث اتصل بها فضرب بإبهامه اليمنى راحته اليسرى، وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غض طرفه، جل ضحكه التبسم، ويفتر عن مثل حب الغمام» اهـ .

---

(١) ما يتذوق من الطعام .

وقال الجاحظ : هو الكلام الذى قل عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، وجل على عن الصفة، ونزه عن التكلف لم ينطق إلا عن ميزان حكمة، ولم يتكلم إلا بالكلام قد حف بالعصمة، وشدّ بالتأييد، ويسر بالتوفيق .

ألقى الله على كلامه المحبة ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وهو مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته، لم تسقط له كلمة، ولا زلت له قدم ، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يبذ الخطب الطوال بالكلام القصير، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق . لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ، ولا أصدق لفظا، ولا أعدل وزنا ، ولا أجمل مذهبا ، ولا أكرم مطلبا، ولا أحسن موقعا، ولا أسهل مخرجا، ولا أفصح عن معناه ، ولا أبين عن فحواه ، من كلامه صلى الله عليه وسلم اه بتصرف .

بلّغ ما جاء به بأقوم دليل ،وبيّنه بأوضح تعليل ،فلم يخرج منه ما يوجبه معقول، ولا دخل فيه ما تدفعه العقول، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ وَاخْتُصِرَتْ لِيَ الْحِكْمَةُ اخْتِصَارًا » .

كان صلى الله عليه وسلم يقتصر فى كلامه على قدر الكفاية : فلا يسترسل فيه هذرا، ولا يحجم عنه حصرا، وهو فيما عدا حالى الحاجة والكفاية أجمل الناس صمتا وأحسنهم سمتا . حلا كلامه فاستعذبته الأفواه حتى بقى محفوظا فى القلوب ، مدوّنا فى الكتب، سالما من الزلل ، لا تظهر فيه هجنة التكلف، ولا تخلله فيهقة التعسف . كان إذا سئل وضح جوابه، وإذا جودل ظهر حجاجه . لا يحصره عىّ، ولا يقطعه عجز،ولا يعارضه خصم فى جدال إلا كان جوابه أوضح،وحجاجه أرجح . حفظ لسانه من تحريف فى قول واسترسال فى خبر يكون إلى الكذب منسوبا ، وللصدق مجانبا ، فلم تحفظ عليه كذبة فى صغره . ومن لزم الصدق فى صغره كان له فى الكبر ألزم،ومن عصم به فى حق نفسه كان فى حقوق الله تعالى أعصم،وحسبك بهذا دفعا لجاحد وردا لمعا .

فمن كلامه الذى لا يجارى فى إعجازه قوله صلى الله عليه وسلم : «النَّاسُ بِزَمَانِهِمْ أَشْبَهُ . الْعَقْلُ أَلُوفٌ مَأْلُوفٌ ، الْعِدَةُ عَطِيَّةٌ . الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ السُّفْلَى . الْخَيْرُ كَثِيرٌ وَقَلِيلٌ فَاعِلُهُ . إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا جَعَلَ لَهُ وَاعِظًا مِنْ نَفْسِهِ» .

ومن قوله الذى لا يدانى فى الفصاحة :

«لَا تَزَالُ أُمَّتِي بِخَيْرٍ مَا لَمْ تَرَ الْأَمَانَةَ مَغْنَمًا وَالصَّدَقَةَ مَغْرَمًا . ثَلَاثٌ مُنْجِيَاتٌ وَثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ : فَأَمَّا الْمُنْجِيَاتُ فَخَشْيَةُ اللهِ تَعَالَى فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ ، وَالِاقْتِصَادُ فِي الْغِنَى وَالْفَقْرِ ، وَالْحُكْمُ بِالْعَدْلِ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ .

وَأَمَّا الْمُهْلِكَاتُ فَشُحٌّ مُطَاعٌ ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ»

(٤) كمال عقله

وكان صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم كما أحسنت خَلْقى فحسن خلقى . ولما اجتمع فيه صلى الله عليه وسلم من خصال الكمال ما لا يحيط به حدّ ولا يحصره عدّ أثنى الله سبحانه وتعالى عليه فى كتابه الكريم فقال : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ .

وجلى أن حسن الخلق ملكة نفسية يسهل على المتصف بها الإتيان بالأفعال الجميلة . وإنما كان خلقه صلى الله عليه وسلم عظيما لاجتماع مكارم الأخلاق فيه : فقد جاء فى الموطأ فى رواية مالك : «بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ» وقالت عائشة رضى الله عنها :

«كان خلقه صلى الله عليه وسلم القرآن» . وكما أن معانى القرآن لا تتناهى كذلك أوصافه الجميلة الدالة على خلقه العظيم لا تتناهى : إذ فى كل حالة من أحواله صلى الله عليه وسلم يتجدد له من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم وما يفيضه الله تعالى عليه من معارفه وعلومه ما لا يعلمه إلا الله تعالى ، فالتعرض لحصر جزئيات أخلاقه الجميلة تعرّض لما ليس من مقدور الإنسان . وقد كان صلى الله عليه وسلم مجبولا على الأخلاق الكريمة فى أصل خلقته الزكية النقية ، لم يحصل له ذلك برياضة نفس بل بجود إلهى ، ولهذا لم تزل تشرق أنوار المعارف فى قلبه حتى وصل إلى الغاية العليا

والمقام الأسنى، وأصل هذه الخصال الحميدة كمال العقل : لأن به تقتبس الفضائل وتجتنب الرذائل ، وهو أمر روحانى به تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية . وقد كان صلى الله عليه وسلم من كمال العقل والعلم فى الغاية القصوى التى لم يبلغها بشر سواه .

ومن تأمل حسن تدبيره للعرب الذين هم كالوحوش الشاردة مع الطبع المتنافر المتباعد وكيف ساسهم واحتمل جفاهم وصبر على أذاهم إلى أن انقادوا إليه فالتفوا حوله وقاتلوا دونه أهليهم وآباءهم وأبناءهم واختاروه على أنفسهم وهجروا فى رضاه أوطانهم وأحباءهم من غير ممارسة سبقت له ولا مطالعة كتب تعلم منها أخبار الماضين، تحقق أنه أعقل العالمين صلى الله عليه وسلم .

ومن عقله العظيم ثقوب رأيه ، وجودة فطانته وإصابته ، وصدق ظنه ، وحسن نظره فى العواقب والمصالح، وكمال التدبير، واقتناء الفضائل .

وحسبك جوامع كلمه ، وحكم حديثه ، وعلمه بما فى الكتب المنزلة وحكم الحكماء وسير الأمم الخالية وضرب الأمثال وسياسة الأمم .

هذا إلى فنون العلوم التى اتخذ أهلها كلامه فيها قدوة، وإشارته حجة : كالطب والسنن الكونية .

جمع الله لمحمد صلى الله عليه وسلم ما لا يحد من المعارف الوافرة، والعلوم التى لم تزل عن وجوه الهداية سافرة، وخصه بالاطلاع على جميع مصالح الدنيا والدين، وبتعرف قوانين شريعته، وحفظ أسرار وديعته، وسياسة عباده، ونبأه بسير الأنبياء والرسل والجبابرة، وما كانت عليه الأمم قبل بعثته الزاهرة، وأحاديث القرون الماضية، ومقدار مددهم وأعمارهم وحكم حكمائهم وأخبار أحبارهم، ولقنه الحجة على الكفرة، ومعارضة أهل الكتاب بما فى كتبهم المسطرة : فأعلمهم بمخبآتها وأسرارها والمكتوم والمغير والمبدل من أسفارها، ومنحه إحاطة عظيمة بلغة العرب وغريب ألفاظها وضروب فصاحة خطبائها وبلاغة وعاظها، وآتاه جوامع كلمها، وعرفه أيامها وأمثالها

وحكمها ومعانى أشعارها، وجعل هذه اللغة لسان قواعد الشرع المطهر المشتمل على محاسن الأخلاق ومحامد الآداب وطرائف طرائق الصواب وتحليل الطيبات وتحريم الخبائث وصون الأعراض والأموال بالحدود ، هـذا إلى ما حواه من سائر الفنون كالفرائض والحساب والتعبير والأنساب إلى غير ذلك مما اتخذه أهل هذه الفنون لهم قدوة ، وجعلوه أصلا ليفرعوا عليه ، ويحذوا حذوه مع أن صاحب هذا الشرع كان أميا لا يقرأ ولا يكتب، ولا عرف بصحبه من يعلم الكتابة أو يحسب، ولا نشأ بين قوم لهم مدارسة، ولا اختلف إلى حبر من الأحبار، ولا اجتمع بكاهن أو صاحب أخبار :

ومعالم العلم الشريف به سمت * وطريقها وضحت بطالع فجره

(٥) نجـــدته وشجاعتـــه

كان صلى الله عليه وسـلم ذا شجاعة ونجدة، وبسالة وشـدّة، وبأس وشهامة، وحماسة وصرامة، وصولة وإقدام، يشتت شمل الكماة، ويبطل حيلة الأبطال .

نفوذ النبال من شـدّة عزماته، ومضاء المرهفات من صـدق رأيه ، أذهب الشك بحق اليقين، وأرهب العدا بسيفه المتين، وسفه أحلامهم، ونكس أعلامهم، وزيف أقوالهم وأفعالهم ، واستباح أرضهم وديارهم وأموالهم ، وأباد أهـل العناد بعضبه البتار، وأظهر دين المسلمين بصحبه الأشـداء على الكفار . حضر الوقائع، وشهد الملاحم، وتولى الكماة عنـه وهو مستقر، وفر المسلمون من حوله يوم حنين وهو ثابت لا يبرح، ومقبل لا يدبر ولا يتزحزح . ما لقى كتيبة إلا كان أول ضارب، ولا توانى القوم لوقوع صوت إلا كان أسرع واثب . لم ير أثبت منه جأشا فى الجهاد، ولا أقرب لجهة المشركين وقت الجلاد .

طالما ثبت فى الشدائد وهو مطلوب، وصبر على البأساء والضراء وهو مكروب، ونفسـه فى اختلاف الأحوال ساكنة : لا يتحير فى شـدّة ، ولا يستكين لعظيمة أو كبيرة، ولقد لقى صلى الله عليه وسـلم بمكة من قريش ما تشيب له النواصى وهو مع الضعف يصابر صبر المستعلى، ويثبت ثبات المستولى .

تصدى لجهاد الأعداء وقد أحاطوا بجهاته ، وأحدقوا بجنباته ، وهو فى قطر مهجور، وعدد محقور، وبذلك جمع بين التصدّى لشرع الدين حتى أظهره، ومكافحة العدو حتى قهره : فلقد صابر العدو وأبلى معه بلاء حسنا، فلم يشهد حربا إلا صابر حتى انجلت عن ظفر أو دفاع وهو فى موقفه لم يزل عنه هربا، ولا حار فيه رعبا.

ما سمعنا بشجاع إلا أحصيت له فرة سوى محمد صلى الله عليه وسلم فقد ثبت فى جميع المواقف الصعبة . ولذلك قال على رضى الله عنه : (كنا إذا حمى البأس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم، فما يكون أحد أقرب منه إلى العدو، ولم يكن مثله مثل قوّاد هذا الزمان : يكونون أبعد ما يكون عن مرمى القنابل والمهلكات).

(٦) رغبته عن الدنيا وخشيته من ربه

كان صلى الله عليه وسلم زاهدا فى الدنيا ، متقللا منها، معرضا عن زهرتها، غير ناظر إلى نضرتها؛ متحليا بالطاعة، شعاره العفاف والكفاف، مقتصرا من نفقته وملبسه على ما تدعو إليه الضرورة، يلبس البُرَد الغليظة، ويقسم حلل الديباج على أصحابه . عيشه ظليف، ومأكله طفيف، وفراشه من أدم حشوه ليف، يبيت جائعا طاويا، ويصبح صائما خاويا، ما أكل قط على خوان، ولا شبع من خبز شعير يومين متواليين، ما خلف دينارا ولا درهما ، ولم يترك إلا سلاحه وبغلته وأرضا جعلها صدقة، على أنه قد جاءته هدايا أهل التيجان، وحملت إليه الجزى والصدقات، وانهالت عليه الأموال ، وسيقت إليه الدنيا بحذافيرها ، فما استأثر منها بدرهم ولا دينار، بل أنفق كل ما وصل إليه فى الخير، وأغنى به فاقة الغير، وفرقه فى مصالح المسلمين، وكف به أكف المشركين .

ومن أظلم ممن يفترى على محمد صلى الله عليه وسلم أنه كان رجل شهوات ولذات؟ : فلقد كان متقشفا فى مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه وسائر أموره وأحواله ، وكان طعامه فى مجرى العادة الخبز والماء ، وكان يرقع ثوبه ، ويحلب شاته ، يقوم الليل فى عبادة ربه، ويقضى النهار فى نشر دين الله غير طامح إلى ما تطمح إليه صغار النفوس من رتبة أو دولة أو سلطان، غير راغب فى ذكر أو شهرة، ومن أجل ذلك

لقى من هؤلاء العرب توقيرا واحتراما وإكبارا على ما كانوا عليه من الجفاء والغلظة والرياء وصعوبة الشكيمة، وما كان يستطيع أن يقودهم ويعاشرهم ويقاتل بهم ثلاثا وعشرين سنة لولا ما أبصروا فيه من آيات النبل والفضل . ولو جاءهم بدل محمد صلى الله عليه وسلم قيصر من القياصرة بتاجه وصولجانه ما أصاب من طاعتهم مقدار ما ناله محمد صلى الله عليه وسلم فى ثوبه المرقع بيده . وكذلك تكون العظمة .

وكان صلى الله عليه وسلم شديد الخوف والعبادة وافر الطاعة والمحبة والإفادة ، طاعته نظير حبه، وخوفه على قدر علمه بربه، يصلى طويلا، ويقوم الليل إلا قليلا، قام حتى تورمت قدماه . اليقين قوته، والرضا مطيته، والمعرفة رأس ماله، والطاعة منتهى آماله ، والشوق مركبه، والفكر أنيسه، والثقة كنزه، والحزن جليسه ، والتقى نخره، والعقل مصباحه ، والجهاد خلته، والعلم سلاحه، وقرة عينه فى الصلاة ، وثمرة فؤاده فى ذكر من لا إله سواه .

(٧) احترامه نفسه

كان محمد صلى الله عليه وسلم بريئا من الرياء والتصنع، مستقل الرأى، لا يدعى ما ليس فيه، ولم يكن متكبرا، ولم يكن ذليلا ضرعا، بل كان فى ثوبه المرقع يخاطب بقوله الحق المبين قياصرة الروم وأكاسرة العجم ، يرشدهم إلى ما يجب أن يكونوا عليه فى هذه الحياة ، وما يجب أن يعدوه للآخرة .

كان يعرف لنفسه قدرها ماضى العزم لا يؤخر عمل اليوم إلى غد ، ما عبث قط، ولا ظهر شىء من اللهو واللعب فى قوله وفعله ، بل كان الأمر عنده أمر فناء أو بقاء، ولم يكن من شأنه التلاعب بالأقوال والقضايا المنطقية والعبث بالحقائق ، بل كان يكره أن يحوط نفسه بمظاهر كاذبة .

ولم يكن (حاشاه) ممن عاشوا وأقوالهم وأعمالهم أكاذيب ، بل كانوا أنفسهم أكذوبة ، ضعف فيهم الشرف والصدق ، وكل ما فيهم أن كلامهم مصقول معسول، وحواشى كلامهم مهذبة ، فكان مثلهم كمثل حامض (الكربون) تراه على لطفه سما ناقعا وموتا ذريعا .

(ب) فضائله الاجتماعية

(١) جوده وسخاؤه

كان صلى الله عليه وسلم يعجل بالإحسان والصدقة والمعروف ، ولذلك كان أشرح الخلق صدرا وأطيبهم نفسا ، فإن للصدقة والبذل تأثيرا عجيبا فى شرح الصدر . وكان عالى الهمم ، وافر الفضل والكرم ، كريم الشمائل ، جميل العواطف ، جليل العوارف ، مطبوعا على السخاء ، سهل الإنفاق ، جزل الإرفاق ، مهتما بوصل الأرزاق ، يحقق الوسائل ، ولا يخيب أمل الآمل ، يبذل الرغائب ، ويعين على النوائب ، يحمل الكَل ، ويكسب المعدم ، يعطى عطاء من لا يخشى الفاقة ، لا يدخر شيئا من يومه لغده ، أسخى من الغمائم المثقلة ، وأجرى بالخير من الريح المرسلة ، ما سئل عن شىء فقال : لا ، ولا أعرض عن طالب . وحسبك شاهدا أنه رد سبايا هوازن وكانوا ستة آلاف ، وكان يجود بكل موجود ، ولذلك لما توفى كانت درعه مرهونة عند يهودى على مقدار من شعير لطعام أهله مع أنه قد ملك جزيرة العرب ، وكان فيها كثير من الملوك والأقيال لهم خزائن وأموال يقتنونها ويتباهون بها ، وقد حاز ملك جميعهم فما اقتنى دينارا ولا درهما . وكان لا يأكل إلا الطعام الغليظ ، ولا يلبس إلا الخشن ، ومع ذلك يعطى الجزل الخطير ، ويتجرع مرارة الإقلال والصبر على الجوع والسغب .

وكان إذا سئل وهو معدم وعد ولم يرد ، وانتظر ما يفتح الله به . وكان علىّ رضى الله عنه إذا وصف النبى صلى الله عليه وسلم قال : كان أجود الناس كفا ، وأوسع الناس صدرا ، وأصدق الناس لهجة ، وأوفاهم ذمة ، وأليَنهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه .

حُمِل إليه تسعون ألف درهم ، فوضعها على حصير ، ثم قام إليها فقسمها ، فما رد سائلا حتى فرغ منها . وجاء رجل فسأله فقال ما عندى شىء ولكن ابتع علىّ

فإذا جاءنا شيء قضيناه، فقال عمر : يارسول الله: ما كلفك الله مالا تقدر عليه، فكره النبي صلى الله عليه وسلم ذلك، فقال رجل : أنفق ولا تخش من ذى العرش إقلالا، فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم وظهر السرور فى وجهه . ولما قفل من حنين جاءت الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى شجرة فخطفت رداءه، فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : أعطونى ردائى . لو كان لى عدد هذه العضاة نعما لقسمتها بينكم، ثم لا تجدونى بخيلا ولا كذابا ولا جبانا .

قال صفوان بن أمية : « لقد أعطانى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أعطانى وإنه لمن أبغض الناس إلىّ، فما برح يعطينى حتى إنه لأحب الناس إلىّ. إنى أشهد ما طابت بهذا إلا نفس نبى» وإنما أعطاه صلى الله عليه وسلم العطاء الكثير : لأنه علم أن داءه لا يزول إلا بهذا الدواء فعالجه به حتى برئ من داء الكفر وأسلم . وجاء فى البخارى أنه صلى الله عليه وسلم أُتِى بمال من البحرين فقال : انثروه — وكان أكثر مال أُتِى به — فخرج صلى الله عليه وسلم إلى المسجد ولم يلتفت إليه، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه ، فما كان يرى أحدا إلا أعطاه ، وما قام عليه الصلاة والسلام وثَمَّ منها درهم . وأتته امرأة ببردة فقالت : يا رسول الله : أكسوك هذه، فأخذها صلى الله عليه وسلم محتاجا إليها ، فلبسها فرآها عليه رجل من الصحابة فقال : يا رسول الله : ما أحسن هذه فاكسنيها، فقال : نعم، فلما قام عليه الصلاة والسلام لام الصحابة هذا السائل قائلين له : إنك تعرف أن النبي محتاج إليها، وأنه لا يُسْأَل عن شيء فيمنعَه . وقد شكت إليه ابنته فاطمة ما تلق من خدمة البيت ، وطلبت منه خادما يكفيها مئونة بيتها ، فأمرها أن تستعين بالتسبيح والتكبير والتحميد وقال : لا أعطيك وأدَعُ أهل الصُّفَّة تُطوَى بطُونُهم من الجوع .

وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله فقال : اجلس سيرزقك الله، ثم جاء آخر ثم آخر فقال لهم : اجلسوا . فجاء رجل بأربع أواق فأعطاها إياه وقال: يا رسول الله : إن هذه صدقة ، فدعا الأول فأعطاه أوقية ، ثم دعا الثانى فأعطاه أوقية، ثم دعا الثالث فأعطاه أوقية، وبقيت معه صلى الله عليه وسلم أوقية واحدة،

فعرض بها للقوم، فما قام أحد، فلما كان الليل وضعها تحت رأسه — وفراشُه عباءة — فجعل لا يأخذه النوم، فيرجع فيصلى، فقالت له عائشة رضوان الله عليها: يا رسول الله: هل بك شيء؟ قال: لا. قالت: فجاءك أمر من الله. قال: لا. قالت: إنك صنعت منذ الليلة شيئا لم تكن تفعله، فأخرجها وقال: هذه التى فعلت بى ما ترين. إنى خشيت أن يحدث أمر من أمر الله ولم أُمْضِها.

وكان جوده صلى الله عليه وسلم كله لله وفى ابتغاء مرضاته تعالى: فإنه كان يبذل المال تارة لفقير أو محتاج، وتارة ينفقه فى سبيل الله تعالى، وتارة يتألف به على الإسلام من يقوى الإسلام بإسلامه. وكان يؤثر على نفسه وأولاده: فيعطى عطاء يعجز عنه الملوك مثل كسرى وقيصر، ويعيش فى نفسه عيش الفقراء: فيأتى عليه الشهر والشهران لا يوقد فى بيته نار، وربما ربط الحجر على بطنه الشريف من الجوع.

ولقد روى أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم: فمن ترك دَيْنا فعلىّ، ومن ترك مالا فلورثته.

تلك بعض شذرات من فضائله ومحاسنه التى لا يحصى لها عدد، ولا يدرك لها أمد.

ولقد جَهَد كل منافس ومعاند، وكل زنديق وملحد أن يزرى به صلى الله عليه وسلم فى قول أو فعل، أو يظفر بهفوة فى جد أو هزل، فلم يجد إليها سبيلا وقد جهد جهده وجمع كثيره. فأى فضل أعظم من فضل تشاهده الحسدة والأعداء، فلم يجدوا فيه مغمزا لثالب أو قادح، ولا مطعنا لجارح أو فاضح؟:

شهد الأنام بفضله حتى العدا * والفضل ما شهدت به الأعداء

وحقيق بمن بلغ من الفضائل غايتها، واستكمل لغايات الأمور أداتَها أن يكون لزعامة العالم مؤهَّلا، وللقيام بمصالح الخلق مؤملا — ولا غاية لبشر بعد النبوة أن يعم به صلاح أو ينحسم به فساد — فاقتضى أن يكون صلى الله عليه وسلم لها أهلا، وللقيام بها مؤهلا، ولذلك استقرت به حين بعث رسولا، ونهض بحقوقها حين قام بها كفيلا، فناسبها وناسبته، والتناسب وفاق، وهو أصل كل انتظام وقاعدة كل التئام.

(٢) حسن معاشرته

ما نهر خادما، وما ضرب بيده شيئا قط إلا أن يجاهد فى سبيل الله : قال أنس رضى الله عنه : خدمت النبي صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لى : أفٍّ قط، ولا قال لشيء صنعته : لم صنعته؟ ولا لشيء تركته : لم تركته؟ وكذلك كان صلى الله عليه وسلم مع عبيده وإمائه : ما ضرب منهم أحدا قط، وهذا أمر لا تتسع له الطباع البشرية لولا التأييدات الربانية . وقالت عائشة رضى الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خلا فى بيته ألين الناس بساما ضحاكا .

وكان يركب الحمار، ويردف خلفه : فقد أردف بعض نسائه، وأردف معاذ ابن جبل، وأردف أسامة بن زيد .

وقد روى أنه عليه الصلاة والسلام كان فى سفر وأمر أصحابه بإصلاح شاة، فقال رجل : يا رسول الله : علىَّ ذبحها، وقال آخر : على سلخها، وقال آخر : على طبخها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وعلى جمع الحطب، فقالوا : يا رسول الله : نكفيك العمل، فقال : علمت أنكم تكفونى، ولكن أكره أن أتميز عليكم، وإن الله سبحانه وتعالى يكره من عبده أن يراه متميزا بين أصحابه . وقد جاء وفد النجاشى فقام صلى الله عليه وسلم يخدمهم، فقال له أصحابه : نكفيك، قال : إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين وأنا أحب أن أكافئهم .

وجاءته صلى الله عليه وسلم امرأة كان فى عقلها شيء فقالت : إن لى إليك حاجة، فقال : اجلسى فى أى سكك المدينة شئت أجلس إليك حتى أقضى حاجتك، فخلا معها فى بعض الطريق حتى فرغت من حاجتها .

وجاء فى البخارى : كانت الأَمَة تأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنطلق به حيث شاءت .

ودخل الحسن — والنبى صلى الله عليه وسلم يصلى — فركب الحسن ظهره وهو ساجد، فأبطأ فى سجوده حتى نزل الحسن، فلما فرغ قال له بعض أصحابه : لقد أطلت سجودك قال : إن ابنى ارتحلنى فكرهت أن أُعْجِلَهُ .

وكان صلى الله عليه وسلم يباسط أصحابه ، وكان رجل يسمى زهيرا يهادى النبي صلى الله عليه وسلم بموجود البادية بما يستطرف منها، وكان صلى الله عليه وسلم يهاديه ويكافئه بموجود الحاضرة و بما يستطرف منها،وكان المصطفى يقول: «زهير باديتنا ونحن حاضرته» ، ولقد جاء إلى السوق يوما فوجد زهيرا قائما،بفاءه من قِبَلِ ظهره، وضمه بيده إلى صدره، فأحس زهير أنه الرسول، بفعل يمسح ظهره فى صدره رجاء بركته،بفعل الرسول يقول : من يشترى العبد؟ قال زهير : إذاً تجدنى كاسدا، فقال المصطفى : أنت عند الله غال .

وكان عليه الصلاة والسلام يمزح ولا يقول إلا حقا : فمن ذلك أن جاء له رجل فيه بله فقال : يا رسول الله : احملنى، فقال : أحملك على ابن الناقة ، فقال : ما عسى يغنى عنى ابن الناقة؟ فقال الرسول : ويحك وهل يلد الجملَ إلا الناقة ؟ .

وجاءت عجوز إلى المصطفى فقالت : يا رسول الله : ادع الله لى أن يدخلنى الجنة،فقال : يا أم فلان : إن الجنة لا يدخلها عجوز، فولت تبكى، فقال : أخبروها أنها لا تدخلها وهى عجوز . إن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ .

ومن ذلك أن آنسا كان له أخ يقال له أبو عمير، وكان له نَغَرٌ (طائر صغير كالعصفور) يلعب به، فمات، فدخل على النبيّ صلى الله عليه وسلم ذات يوم وهو حزين فقال : ما شأنه؟ قيل له : مات نغره، فقال : يا أبا عمير : ما فعل النُّغَير ؟

وصفوة القول أنه كان صلى الله عليه وسلم أجمل الناس ودا ، وأحسنهم وفاء وعهدا، وأوفرهم للحقوق ذكرا، وأكثرهم تواضعا، وأجزلهم عفة وصيانة، وأنضرهم بهجة، وأصدقهم لهجة، وأجملهم سرا و إعلانا، وأغزرهم فضلا و إحسانا، صادقا فى الكلام ، ذا مروءة وافرة ، يرعى حق الصحبة القديمة ، ويتعطف على ذوى رحمه بِصِلاته ، ويتلطف بالصغار من أولاده حتى فى صَلاته ، ويعرض عمن تكلم بغير جميل،مجلسه مجلس هدى وعلم،ومحل خير وحياء وحلم، لا تذكر فيه العيوب، ولا تخفر فيه الذمم، إن تكلم أطرق جلساؤه، و إن صمت زاد وقاره وبهاؤه .

لم يكن بالجافى ولا المهين . وسع النـاس بسطه وخلقه ، فصار لهم أبا وصاروا عنده فى الحق سواء . يعطى كل جلسائه نصيبه، ولا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه . يصبر للغريب على الجفوة فى منطقه ومسألته . من جالسه أو فاوضه فى حاجة صابره حتى يكون المُنْصَرِفُ منه . يؤثر أهل الفضل على قدر فضلهم فى الدين والخلق . يحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوى عن أحد منهم بِشْرَهُ . يتغافل عما لا يشتهى، ولا يكاد يواجه أحدا بما يكره . أفضل الناس عنده أعمهم نصيحة، وأعظمهم عنده أحسنهم مواساة ومؤازرة . كان إذا رآه الناس لا يقومون له لما يعلمون من كراهيته لذلك، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس . كان إذا جلس مع الناس : إن تكلموا فى معنى الآخرة أخذ معهم، وإن تحدّثوا فى طعام أو شراب تحدّث معهم، وإن تكلموا فى الدنيا تحدّث معهم رفقا بهم وتأليفا لهم .

يجيب دعوة المسكين والمسكينة، ويعود المرضى فى أقصى المدينة . يقابل عذر المعتذر بالقبول ، ويأمر بالحسنة ويدنى أهلها ، ولا يجزى بالسيئة مثلها ، ولكن يعفو ويصفح، ويتجاوز عن المسىء ويسمح، ويدفع بالتى هى أحسن، ويأتى من المعروف بما أمكن . يصل الرحم ويقرى الضيف، ويقطع أسباب الحتف والحيف . وعده مقرون بالإنجاز، ولفظه يشتمل على الإيجاز . يدعو أصحابه بكناهم وأَحَبِّ أسمائهم ، ويميل إلى محادثتهم ومداعبة أبنائهم ، ولا يجيب أحدا منهم إلا بالتلبية، ويعم جميع جلسائه من مودته بالتسوية . توافرت عنده الأموال فما استأثر منها بدرهم ولا دينار ، بل أنفقها فى الخير، وأغنى بها فاقة الخلق، وفرقها فى مصالح المسلمين، وكف بها أكف المشركين .

(٣) إغضاؤه عما لا يحبه وعفوه مع المقدرة

كان صلى الله عليه وسلم وافر الحلم والاحتمال، كثير الفضل والإفضال : يصل من قطعه ، ويعطى من منعه، ويبذل لمن حرمه ، ويعفو عمن ظلمه ، ويغضى طَرْفَهُ على القذى، ويحبس نفسه عن الأذى، ويصبر على ما يشق ويكره، ولا يزيد

مع أذى الجاهل إلا صبرا وحلما ، وما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما ، ولم يؤاخذ الذين كسروا رَباعِيَتَه ، بل دعا لهم ، وعفا عنهم ، وكم عفا عن مثلهم ، وتجاوز عما بدا من المنافقين فى حقه قولا وفعلا ، ولم يقابل من شتمه ، ولا من أراده بسوء طَوْلًا وفضلا .

جاءه أعرابى يوما يطلب منه شيئا فأعطاه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال له : أحسنت إليك ؟ قال الأعرابى : لا ، ولا أجملت ، فغضب المسلمون ، وقاموا إليه ، فأشار إليهم أن كفوا ، ثم دخل منزله ، وأرسل إلى الأعرابى ، وزاده شيئا ، ثم قال : أحسنت إليك؟ قال : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : إنك قلت ما قلت وفى نفس أصحابى شىء من ذلك ، فإذا أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدىّ حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك . قال : نعم ، فلما كان الغداة أو العشى جاء ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إن هذا الأعرابى قال ما قال فزدناه ، فزعم أنه رضى . أكذلك ؟ فقال الأعرابى : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا . فقال صلى الله عليه وسلم : إن مثلى ومثل هذا الأعرابى كمثل رجل كانت له ناقة شردت عليه ، فتبعها الناس ، فلم يزيدوها إلا نفورا ، فناداهم صاحب الناقة : خلوا بينى وبين ناقتى : فإنى أرفق بها ، وأعلم ، فتوجه لها صاحب الناقة بين يديها ، فأخذ لها من قُمَامِ الأرض فردّها هونا هونا حتى جاءت واستناخت ، وشدّ عليها رحلها واستوى عليها ، وإنى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار .

وكان صلى الله عليه وسلم أحلم الناس وأرغبهم فى العفو مع القدرة : فمن ذلك أن رجلا من أهل البادية وقف — والمصطفى يقسم قلائد من ذهب وفضة بين أصحابه — وقال : يا محمد : والله لئن أمرك الله أن تعدل فما أراك تعدل ، فقال المصطفى : ويحك فمن يعدل عليك بعدى ؟ فلما ولى الأعرابى قال : ردّوه علىّ رويدا .

وحدث أنه لما كان المصطفى يقسم بعض الغنائم يوم خيبر قال له رجل : يا رسول الله : اعدل ، فقال له المصطفى : ويحك فمن يعدل إذا لم أعدل؟ فقد خِبْتُ

إذن وخسرت إن كنت لا أعدل ، فقام عمر فقال : ألا أضرب عنقه فإنه منافق؟ فقال : معاذ الله أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابى .

(وكان صلى الله عليه وسلم فى حرب فرأى العدوُّ من المسلمين غِرَّةً ، فجاء رجل حتى قام على رأس رسـول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف فقال : من يمنعك منى؟ فقال : الله، فسقط السيف من يده، فأخذه المصطفى وقال له : من يمنعك منى؟ فقـال الرجل : كن خير آخذ . قال المصطفى : قل أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسـول الله ، فقال : لا ، غير أنى لا أقاتلك، ولا أكون معك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك، فخلى سبيله ، فجاء الرجل أصحابه فقال : جئتكم من عند خير النـاس

وقال على رضى الله عنـه : بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسـلم أنا والزبير والمقداد فقال : انطلقوا حتى تأتوا رَوْضَةَ خَاخٍ(١) فإن بهـا ظعينة معها كتاب فخذوه منها، فانطلقنا حتى أتينا روضة خاخ فقلنا: أخرجى الكتاب، فقالت: ما معى كتاب، فقلنا : لتخرجنّ الكتاب أو لننزعن الثياب ، فأخرجته من عقاصها ، فأتينا به النبى صلى الله عليه وسلم فإذا فيه : من حاطب بن أبى بَلْتَعَةَ إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم أمرا من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم،فقال: يا حاطب: ما هذا؟ قال: يا رسول الله : لا تعجل علىّ،إنى كنت امرأ مُلْصَقًا فى قومى وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون أهلهم ، فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب منهم أن أتخذ فيهـم يدا يحمون بهـا قرابتى ، ولم أفعل ذلك كفرا ولا رضا بالكفر بعـد الإسلام ولا ارتدادا عن دينى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه صدقكم ، فقال عمر رضى الله عنه: دعنى أضرب عنق هذا المنافق، فقال صلى الله عليه وسلم: إنه شهد بدرا ، وما يدريك لعل الله عز وجل قد اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم : فقد غفرت لكم ؟ .

---

(١) روضه خاخ : بين مكة والمدينة .

وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قِسْمة ، فقال رجل : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ، فَذُكِرَ ذلك للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، فاحمر وجهه ، وقال : رحم الله أخى موسى : قد أوذى بأكثر من هذا فصبر .

وكان صلى الله عليه وسلم يقول : لا يبلغنى أحد منكم عن أحد من أصحابى شيئا : فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر .

(٤) حسن سياسته

من تأمل حسن تدبيره صلى الله عليه وسلم للعرب الذين كانوا كالوحش الشارد مع الطبع المتنافر المتباعد ، وكيف ساسهم ، واحتمل جفاهم ، وصبر على أذاهم إلى أن انقادوا إليه ، واجتمعوا عليه ، وقاتلوا دونه أهليهم وآباءهم وأبناءهم ، واختاروه على أنفسهم وهجروا فى رضاه أوطانهم ، وأحباءهم من غير ممارسة سبقت له ، ولا مطالعة كتب يتعلم منها سير الماضين ، تحقق أنه أعقل العالمين . ولما كان عقله أوسع العقول اتسعت أخلاق نفسه الكريمة اتساعا لا يضيق عن شىء : قد اتسع خلقه للمنافقين الذين كانوا يؤذونه إذا غاب ، ويتملقونه إذا حضر ، وعفا عن المقاتلين الذين كسروا رباعيته . وشجوا وجهه يوم أحد حتى صار الدم يسيل على وجهه الشريف ، ولما شق ذلك على أصحابه شديدا قالوا له : لو دعوت عليهم ، فقال : إنى لم أبعث لعانا ، ولكن بعثت داعيا ورحمة . اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون .

وكان كاملا فى قوة عقله وإدراكه وصحة قياسه الفكرى وصدق ظنونه وصحة فهمه وقوة حواسه ، مفطورا على العلم والحلم والصبر والسكون والحياء والمروءة والمودة والرحمة والهداية للخلق وحب الخير لكل أحد وإعطاء الحكمة حقها فى سائر أموره كلها .

وكان أصبر الناس على مايكون من قبيح أفعال الناس وسيئ قولهم : لأنه صلى الله عليه وسلم لانشراح صدره يتسع لما تضيق عنه صدور العامة ، فكانت مساوى

أخلاقهم وأفعالهم وسوء سيرتهم وقبيح سريرتهم فى جنب سعة صدره الشريف معدومة الأثر .

نشأ عن حسن سياسته واستقامة سيرته أنه نقل أمته عن مألوفها ، وصرفها عما كانت تعرفه إلى غير ما تعرفه ، فأذعن له الكثير طوعا ، وانقاد له القليل خوفا وطمعا ، وليس من السهل انتزاع عادات متأصلة إلا لمن كان مؤيدا بالتأييد الإلهى ، معانا بحزم صائب ، وعزم ثاقب .

جمع بين رغبة من استمال ، ورهبة من استطال ، حتى اجتمع الفريقان على نصرته وقاموا بحقوق دعوته : رغبا فى عاجل وآجل ، ودفعا لأمر نازل ، وبذلك صار الدين بهما مستقرا ، والصلاح بهما مستمرا .

وقف موقف العدل فى أحكامه : فلم يَغْلُ كما فعل النصارى ، ولم يقصر كما فعل اليهود ، ولم يمل بأصحابه إلى الدنيا كما رغبت اليهود ، ولا إلى رفضها كما ترهبنت النصارى ، بل أمرهم بالاعتدال فيها ، وقال لهم : خيركم من لم يترك دنياه لآخرته ، ولا آخرته لدنياه ، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه . وتلك هى عين الحكمة : لأن الانقطاع إلى إحداهما اختلال والجمع بينهما اعتدال .

تمالأ عليه الْعِلْيَة والدون من قومه ، فكانوا كلما كانوا عليه ألأم وألح كان عليهم أعرض وأصفح . قد قهر فعفا ، وقدر فغفر .

قد رجح عقله ، وصحت همته ، وصدقت فراسته ، فما اسْتُغْفِل أبدا فى مكيدة ، ولا اسْتُعْجِز فى شديدة ، بل كان يلحظ عواقب الأمور فى أولها ، فيكشف عيوبها ، ويحل خطوبها .

لم يهزه طيش ، ولم يستفزه خُرق ، بل كان أحكم فى النفار من كل حكيم ، وأسلم فى الخصام من كل سليم ، وقد منى بجفوة الأعراب ، فلم تقع منه نادرة ، ولم تحفظ عليه بادرة ، وما روى التاريخ زعيما غيره إلا له عثرة أو هفوة .

كان يرى الغدر من كبائر الذنوب ، والإخلاف من مساوى الشيم ، فيلتزم فيهما الصعب حفظا لعهده ، ووفاء بوعده ، حتى يبدأ معاهدوه بنقضه ، فيجعل الله تعالى له مخرجا . وحسبك شاهدا صلح الحديبية .

اتصف بالسكينة : فمن رآه بديهة هابه ، ومن خالطه أحبه ، ولقد ارتاعت رسل كسرى من هيبته حين أتوه مع ارتياضهم بصولة الأكاسرة ومكاثرة الملوك الجبابرة ، فكان فى نفوسهم أهيب ، وفى أعينهم أعظم ، وإن لم يتعاظم بأهبة ، ولم يتطاول بسطوة ، بل كان بالتواضع موصوفا ، وبالوداعة موسوما ، فاستحكمت محبته فى النفوس حتى لم يَقْلُهُ مصاحب ، ولم ينفر منه معاند ، ولم يستوحش منه مباعد — إلا من ساقه الحسد إلى شقوته — وأصبح أحب إلى أصحابه من آبائهم وأبنائهم .

ولا عجب : فقد كان يتواضع لهم وهم أتباع ، ويخفض جناحه لهم وهو مطاع ، يمشى فى الأسواق ، ويمتزج بأصحابه وجلسائه ، وهو بتواضعه متميز ، ويخفض جناحه متعزز .

ولقد دخل عليه أعرابى فارتاع من هيبته ، فقال له صلى الله عليه وسلم : خفض عليك : فإنما أنا بن امرأة تأكل القديد بمكة .

كان أشد الناس إكراما لأصحابه : إذا قال أنصتوا لقوله ، وإن أمر تبادروا لأمره . يكرم كريم كل قوم ويوليه أمرهم ، ويقبل معذرة المعتذر إليه .

وإليك قصة كعب بن زهير :

غضب كعب على بجير أخيه حين أسلم وآمن بالمصطفى صلى الله عليه وسلم وكتب إليه يلومه ، فأعلم بجير المصطفى ، فقال عليه الصلاة والسلام : من لقى منكم كعب بن زهير فليقتله ، فكتب بجير إليه يخبره أن المصطفى أهدر دمه ، فإن كان لك فى نفسك حاجة فصر إليه : فإنه يقبل من جاءه تائبا ، ولا يطالبه بما عمله قبل الإسلام . فلما بلغ الكتاب كعبا فر إلى قبيلته لتجيره ، فأبت عليه ذلك ، فأشفق على نفسه ، وأرجف به أعداؤه ، فقدم المدينة ونزل على سيدنا ومولانا على كرم الله

وجهه ، فأتى به إلى المسجد وقال : هـذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقم إليه ، واستأمنه، فسمع كلامه وقام إليـه حتى جلس بين يديه، فوضع يده فى يده قائلا : يا رسول الله : إن كعب بن زهير قد جاء يستأمنك تائبا مسلما . فهل أنت قابل منه ذلك إن أنا جئتك به؟ قال : نعم . قال : أنا يارسول الله كعب بن زهير، فقال عليه السلام : آلذى يقول ما يقول؟ ووثب إليه رجل من الأنصار، فقال: يا رسول الله: دعنى وعدو الله أضرب عنقه ، فقال له الرسـول : دعه عنك : فإنه قد جاءنا تائبا نازعا . ثم أخذ فى إنشاد قصيدة بانت سعاد المشهورة يمدح فيها المصطفى صلى الله عليه وسلم، ويذكر خوفه وإرجاف الوشاة به إلى أن وصل :

إن الرسـول لنور يستضاء به * وصارم من سيوف الله مسلول

فرمى رسول الله صلى الله عليه وسلم بردته الشريفة إليه، وعفا عنه .

كان القوى والضعيف عنده فى الحق سواء .

أمر بالرفق وحث عليـه ، ونهى عن العنف وبغضه ، ولم يكن فاحشا ولا متفحشا، ولا يجزى بالسيئة السيئة بل يعفو ويصفح .

وكان صلى الله عليه وسلم لا يواجه أحدا فى وجهه بشىء يكرهه لسعة صـدره وغزارة حيائه .

وكان يزور ضعفاء المسلمين تلطفا وإيناسا لهم ، ويعود مرضاهم، ويشهد جنائزهم لشريف كانت أو لوضيع ، وبذلك كان خير أسوة .

وكان يردف العاجز وأمثاله على ظهر الدابة ، ويحث على معونتهم والرفق بهم . وفى هذا أدب لأمير الجيش بأن يرفق فى السير بحيث يقدر عليه أضعفهم، ويحفظ قواه أقواهم، وأن يحمل ضعيفهم ومنقطعهم، ويسعفهم بماله وحاله وقاله .

حقا كان ذا سياسة شريفة ، ومعارف منيفة، ونظر ثاقب، ورأى صائب، وظنّ صادق، وحدس موافق ، وفضائل مقصودة، وأخلاق محمودة، دينه الإيمان، وخلقه القرآن، يسخط لسخطه، ويرضى لرضاه، بعث ليتمم مكارم الأخلاق، محررا

للشرائع، حافظا للودائع، مجتهدا فى المصالح، رائضا للجوامح، ناظرا فى المهمات، رافعا أثقال الملمات .

وكان كثير الإفضال : يصل من قطعه، و يعطى من منعه، و يبذل لمن حرمه، و يعفو عمن ظلمه، و يغضى طرفه على القذى، و يحبس نفسه عن الأذى، لا ينتقم مع القدرة، و يصبر على ما يشق و يكره، ولا يزيد مع أذى الجاهل و إسرافه إلا صبرا وحلما ، وما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما ، وكم أعرض عن جاهل ومعاند، وما ضرب بيده شيئا قط إلا أن يجاهد ، وصبر على مقاساة الجاهلية وما لقى منهم من الشدة والبلية إلى أن سلطه الله عليهم ، وحكمه فيهم ، وأظفره بما لديهم .

كان أكثر الناس حياء، وأوفرهم عن العورات إغضاء، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب ولا فحاش، ولا مداح ولا عياب .

كان يثابر على المعونة، و يسارع إليها، و يؤثر من دخل عليه بوسادته، ولا يرد ذا الحاجة إلا بها أو بميسور القول .

وكان صلى الله عليه وسلم يأكل مع الخادم ، و يبادر إلى خدمة القادم ، و يرقع ثوبه، و يخصف نعله ، و يقم بيته، و يخدم أهله بحمل بضاعته من السوق، و يقوم بما يتعين عليه من الحقوق . اختار أن يكون نبيا عبدا ، لا نبيا ملكا، مع أنه سيد البشر بلا ريب، وأكرم الخلق عند عالم الشهادة والغيب .

وكان أكثر الناس أمانة، وأجزلهم عفة وصيانة، وأنضرهم بهجة ، وأصدقهم لهجة، وأجملهم سرا و إعلانا، وأغزرهم عدلا و إحسانا، صادقا فى الكلام، وصادعا بالحق فى الأحكام، وعده مقرون بالإنجاز، لا يأخذ أحدا بقرف أحد، يحكم عدلا، وينطق فصلا .

عرفت الجاهلية فضله قبل الإسلام ، فتحاكموا إليه فى خصوماتهم، وشهد وليه وعدوه بعلمه وعدله . والفضل ما شهدت به الأعداء لأهله . كان يرعى حق[1]

(١) ذكراه السيدة خديجة والتصدق عليها بعد وفاتها .

الصحبة القديمة ، ويتعطف على ذوى رحمه بصلاته ، ويغدق عليهم بجميل مآثره ، ويملك قلوبهم بإيثاره ،وكان صلى الله عليه وسلم إذا فقد الرجل من إخوانه ثلاثة أيام سأل عنه : فإن كان غائبا دعا له ، وإن كان شاهدا زاره ، وإن كان مريضا عاده : لأن الإمام عليه النظر فى حال رعيته ، وإصلاح شأنهم ، وتدبير أمرهم .

وكان إذا قدم عليه الوفد لبس أحسن ثيابه ، وأمر عِلْيَـةَ أصحابه بذلك : لأن ذلك يرجحه فى عين العدو ، ويكبته ، ويعلى كلمة الله ، ويرفع دينه .

وكان صلى الله عليه وسلم رحيما حتى بأعدائه : ألم تر أنه لما دخل يوم الفتح مكة على قريش وقد جلسوا بالمسجد الحرام — وصحبه ينتظرون أمره فيهم من قتل أو غيره — قال لقريش : ما تظنون أنى فاعل بكم؟ قالوا : خيرا : أخ كريم وابن أخ كريم ، فقال صلى الله عليه وسلم : أقول كما قال أخى يوسف : لا تثريب عليكم اليوم . اذهبوا فأنتم الطلقاء . ولا بدع : فقد انفرد بالإحاطة بالمحاسن والمعارف ، والتودد والرفق ، وكان بالمؤمنين رحيما ، وما أظهر فى وقت ما غلظة على أحد إلا عن أمر إلهى حين قيل له : ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ .

قد عرف كما تقدم بالأمانة قبل نبوته ، ولذلك كانوا فى الجاهلية يتحاكمون إليه ، ويفصل فى خصوماتهم ، فيرضون بحكمه وعدله ، وقد روى أن أبا جهل قال له : إنا لا نكذبك ، ولكن نكذب بما جئت به ، ولذلك جاء فى القرآن الكريم : ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ .

[وسأل هرقل أبا سفيان فقال : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل نبوته؟ قال : لا . قال هرقل : ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله]

وقال النضر بن الحارث لقريش محتجا عليهم ومبينا خطأهم : قد كان محمد فيكم غلاما حدثا ، أرضاكم فعلا ، وأصدقكم حديثا ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به قلتم : ساحر . والله ما هو بساحر .

وليس بعجيب أن أعداءه صلى الله عليه وسلم يجدون من ماضيه وحاضره وطباعه وخصاله ما ينفى طعنهم ، ويرد كيدهم فى نحرهم ، ولا ريب فى أن العرب

لوحفظوا عليه كذبة نادرة فى غير الرسالة لجعلوها دليلا على تكذيبه فيها ، ومن لزم الصدق فى صغره كان له فى الكبر ألزم ، ومن عصم منه فى حق نفسه كان له فى حق الله تعالى أعصم ، وكان صلى الله عليه وسلم لم يزل مشهورا بالصدق فى خبره ناشئا وكبيرا حتى صار بالصدق مرقوما ، وبالأمانة موسوما .

(٥) طريقته المثلى فى الهداية

لقد جاهد صلى الله عليه وسلم حتى زلزل العقائد الفاسدة ، وقضى على العادات المرذولة ، وما غرس فى قومه أو القبائل الأخرى وعدا كاذبا ، أو ادعى الألوهية ، أو أحاط نفسه بمظاهر الأبهة من الحرس والحشم للتهويل فى نفوس الناس وإرهابهم ، وإنما كان يصارح قومه بأنه رسول رب العالمين : جاء لهم مبشرا ونذيرا .

جاء بالمعجزات الكثيرة ، ولكنه ما ادعى أنه قادر على الإتيان بها ، بل كان يقول بلسان القرآن : ﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ، وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾ .

جرد نفسه من كل ما من شأنه أن تستمال به الناس : فلم يتخذ رسائل الإغراء ، ولم يجعل همه كسب صداقة زيد أو عمرو ، بل قصد أن يبلغ ما أرسل إليه من عند الله : رحمة بالإنسانية ، وإقامة لملك الله فى أرضه ، وقصدا لتوحيد بنى الإنسان وجعلهم أمة واحدة مرتبطين برابطة الإخاء .

قد تم له النجاح ، ولم يكن سبيله الفذ فيه الالتجاء إلى ما هو فوق مقدور الإنسان كما فعل من قبله من الأنبياء : إذا أعوزتهم الحيل جاءتهم المعجزات لإنقاذهم وإتمام مقاصدهم . ولو أنه التجأ إلى المعجزات فى كل أمر حزبه أو كربه لتعذر على من بعده أن يتخذه مثلا يحتذى لانقطاع صلتهم بالمعجزات ، ولكنه قد اتخذ من الوسائل أنبلها ، ومن الذرائع أشرفها وأوضحها ، وبذلك كانت حياته الشريفة درسا بينا ، وعظة بالغة لمن يجيئون بعده ممن يحب أن يدركوا مقاصدهم وغاياتهم بالكفاح .

كلنا نعلم أن قوم موسى عليه السلام قد نجوا بمعجزة،ولذلك لم يتيحوا له فرصة لغرس روح الرجولة والمروءة فيهم . أما محمد عليه السلام فقد جاهد بالطرق الحربية والسياسية التي يفخر بها القواد الحربيون والسياسيون، ولذلك ربى جيلا من الصحابة كانوا أولى عقيدة نادرة وحب خالص له ، وكانوا ممتازين برجاحة الفكر ومتانة الخلق، ولهذا لم يفزعوا لتقلبات الدهر وتصاريف الحياة .

حقا أن كل خلة من الخلال الإنسانية تظهر فى وقتها الملائم : فكما أن الشدائد تسبك الإنسان، وتكون أخلاقه، كذلك النجاح يظهر ما فيه من نبل وهمة إن كان فيه شيء من ذلك .

ومن المصلحين من كان طريق وصوله إلى الكمال الفقر والشدائد، ومنهم من كان طريق وصوله الغنى والرخاء، وقليل منهم من خبر الحالين،غير أن محمدا صلى الله عليه وسلم — وقد أراد الله به أن يكون مثلا كاملا للإنسانية — قد خبر الحالين، فما زاده الرخاء وهناءة البال إلا كرما وصفحا، وما زادته الشدة إلا صبرا وجلدا ويقينا .

انفرد محمد صلى الله عليه وسلم بخلة واحدة جعلته فى أسمى درجات الكمال : تلك هى الثبات، وتلك صفة امتازت بها الآيات الربانية، والشئون الإلهية . وقد تجلى هذا الخلق فى أحوال كثيرة ، فما غيره نجاح أو هزيمة ، ولا إقبال ولا إدبار ، ولا فقر ولا غنى .

انتصر فى الوقائع الحربية فما داخله العجب ولا الزهو ، وملك أطراف بلاد العرب وخزائنها، فما زاد فى طعامه ولباسه شيئا .

وبذلك تمت له السيادة العامة : الدينية والدنيوية .

كان عليه الصلاة والسلام إذا سئل عن معجزة قال لسائليه : حسبكم الكون معجزة : انظروا إلى الأرض فهى من عجائب صنع الله، وآية على وجوده وعظمته، خلقها لكم ، وسلك لكم فيها سبلا ، تمشون فى مناكبها ، وتأكلون من رزقه ، ثم انظروا إلى السحاب المسير فى الآفاق : يسح بمائه فيحيي أرضا مواتا، ويخرج منها زرعا ونخيلا وأعنابا ، ثم انظروا إلى الأنعام خلقها لكم تجعل المرعى لبنا سائغا

للشاربين، ثم انظروا فى أنفسكم فإنكم معجزة : لقد كنتم صغارا، ومن قبل لم تكونوا شيئا مذكورا ، ثم وهب لكم الله العقل والقوة والجمال والرحمة أشرف الصفات . وما تدرى كيف يكون حال العالم لو لم يخلق الله الرحمة؟ .

كان عليه الصلاة والسلام يوجه نظر معانديه إلى الكون وما فيه مما يدل على أن لله سلطانا على كل شىء، وأن كل مكان لا يخلو من آية من آياته التى يسميها علماء العصر الحاضر بالقوة والمادة ، ولا يرون فيها شيئا مقدسا، بل الكائنات عندهم تباع وتشترى ، وتستخدم فى تسيير السفن البخارية والمراكب الهوائية ، وغفلوا باشتغالهم بالكيمياء والحساب عما هو كامن فى الكائنات من سر الله .

ومن العجب أنهم يغفلون عن ذلك ولولاه ما كانت العلوم بأسرها . وفى الحق أن الإنسان لا يجد السبيل إلى العلم حتى يجده أوّلا فى معرفة الخالق الحكيم : فلا علم إلا لمن عرف الله، ووقرت فى نفسه قوته الباهرة . أما العلم وحده فشقشقة كاذبة، أو كما يقول بعض العارفين من أهل الغرب : قطعة من الخشب بالية، أو بقلة ذابلة .

(٦) ثباته صلى الله عليه وسلم على مبدئه

إن الأخلاق إذا تعاورتها الشدائد والأهوال سبكتها، وأخرجت منها خلقا قويما ثابتا ، وكان مثلها مثل الذهب المصفى ، فالشدائد تظهر ما هو كامن فى الإنسان : فإما أن تجعل منه خلقا عظيما يظل مدى الدهر والأحقاب نبراسا يستضاء به ، وإما أن تقضى عليه فتجعله أثرا بعد عين، ومن أجل ذلك وجب على من يطمحون إلى الظفر وبلوغ المقاصد العظيمة أن يعدوا أنفسهم لركوب متن الأهوال واحتمال الشدائد، ويتخذوا من هذا النبي الكريم أسوة فى ثباته وسائر أخلاقه .

لبث المصطفى صلى الله عليه وسلم ثلاث سنين يعرض دعوته على أقوام جفاة لا دين لهم إلا أن يسجدوا لأصنام لا تنفع ولا تضر، ولا حجة لهم إلا أنهم متبعون لما كان يعبد آباؤهم ، وليس عندهم من مكارم الأخلاق إلا ما كان مرتبطا بالعزة مما كان سببا فى الغارات والحروب وإهراق الدماء، فلم يصادف خلال هذه

السنين الثلاث إلا جمودا وسخرية، ولم يؤمن به أكثر من ثلاثة عشر رجلا، ومثل هـذا نجاح بطىء لا يشجع فى ذاته ، بيد أن المصطفى ظل ثابتـا فى دعوته، قويا فى عزمه و إرادته .

ولمـا أمره الله بالجهر بالدعوة فى قوله تعالى — : ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ — أعلن لقريش الدعوة إلى توحيد الله تعالى والإخلاص له وترك تعظيم الأصـنام وعبادتها ، فكان صلى الله عليه وسـلم يطوف على الناس فى منازلهم يقول : يأيها الناس : إن الله يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأبو لهب وراءه يقول : يأيهـا الناس : إن هذا يأمركم أن تتركوا دين آبائكم . ووطئ عقبة ابن أبى معيط عنقه الشريف وهو ساجد عنـد الكعبة حتى كادت عيناه تبرزان ، وخنقوه خنقا شديدا ، فقام أبو بكر دونه ، فجذبوا رأسـه ولحيته حتى سقط أكثر شعره ، فقال أبو بكر : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ؟ .

ولقد حدث أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلى عند الكعبة — وجمعٌ من قريش فى مجالسهم — إذ قال قائل منهم : ألا تنظرون إلى هذا المرائى أيكم يقوم إلى جزور آل فلان فيعمد إلى فرثها ودمها وسـلاها فيجىء به ثم يمهله حتى إذا سجد وضـعه بين كتفيه ؟ فانبعث أشقاهم ، فلما سجد عليه الصلاة والسـلام وضعه بين كتفيه ، وثبت النبى صلى الله عليه وسـلم ساجدا ، فضحكوا حتى مال بعضهم على بعض من الضحك ، ثم جاءت فاطمة وهى جويرية فألقته عنه وهو ساجد .

أعلن رسـول الله صلى الله عليه وسـلم الدعوة ممتثلا أمر ربه ، واثقا بوعده ونصره ، فصعد على الصفا ثم جعل ينادى : يا بنى فهر ، يا بنى عدى لبطون قريش ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر الخبر ، فقال لهم عليه السلام وهم مجتمعون : «أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى؟» قالوا : نعم . ما جربنا عليك كذبا . قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد . فقال أبو لهب : تبا لك ، ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله فى شأنه : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ .

مَا أَغْنَى عَنْـهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ، سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ، وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ، فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ ﴾ .

والمراد من حمل الحطب المشى بالنميمة : لأنها كانت تقول على رسول الله صلى الله عليه وسلم الأكاذيب فى أندية النساء . ثم نزل عليه قوله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ وهم بنو هاشم ، وبنو المطلب ، وبنو نوفل ، وبنو عبـد شمس ، أولاد عبد مناف ، بجمعهم عليه السلام وقال لهم : « إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت النـاس جميعا ما كذبتكم ، ولو غررت النـاس جميعا ما غررتكم ، والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسـول الله إليكم خاصـة و إلى الناس كافة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بمـا تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا ، وبالسوء سوءا ، وإنها لجنة أبدا أو لنار أبدا » .

من أجل ذلك استاء قريش حراس الكعبة وخدام الأصنام ، وجعلوا يقولون : من هـذا الذى يزعم أنه أعقل منا جميعا ثم يعنفنا و يرمينا بالجهـل والحمق وعبادة الخشب ؟ فأجمعوا على عداوته ، وقام عمـه أبو طالب دونه محاميا عنـه : يحدب عليه ، و يمنع الأذى عنه ، وهو ماض على أمر الله ، لا يردّه عنه شىء ، فتزايد الأمر وأضمرت قريش الحقـد والعداوة لرسول الله صلى الله عليه وسـلم ، وحث بعضهم بعضا على ذلك ، ثم مشى رجال من أشرافها إلى أبى طالب يقولون له : إن ابن أخيك سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، فإما أن تكفه عنا ، و إما أن تخلى بيننا و بينه : فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه ، فردّهم أبو طالب ردّا جميلا ، فانصرفوا ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم على ما هو عليه : مظهر لدين الله داع إليه . فهالهم الأمر حتى تباعد الرجال وتباغضوا ، ومشوا إلى أبى طالب مرّة أخرى يقولون : إنهـم لا يصبرون على ابن أخيه ، فأصبح أبو طالب فى حيرة بين مفارقة قومه وعداوتهم ، وخذلان ابن أخيه ، فتلطف معه ليستبقيه عليه وعلى نفسه ، ولا يحمـله من الأمر ما لا يطيق ، ولكن القوة الإلهية أيدته فأيئسهم من نفسـه ، وقال لأبى طالب : يا عماه : لا أترك هـذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ،

فقال له عمه : قل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبدا ، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يضربونهم ويفتنونهم فى دينهم ، وافترق أمر قريش ، فتعاهد بنو هاشم وبنو عبد المطلب مع أبى طالب على القيام دون النبى صلى الله عليه وسلم ، واشتدّ العذاب على المسلمين : فمن ذلك أن أبا جهل مرّ بِسُمَيَّة أم عمار ابن ياسر وهى تعذَّب فى سبيل دينها ، فطعنها بحربة فقتلها . ومما فيه العظة والعبرة للمسلمين ما رواه أبو ذرّ رضى الله عنه من أن أوّل من أظهر الإسلام سبعة : رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر ، وعمار ، وأمه سُمية ، وصهيب ، و بلال ، والمقداد ، . فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنعه الله بعمه أبى طالب ، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه ، وأما سائرهم فأخذهم المشركون يعذبونهم : فألبسوهم أدرع الحديد ، وصهروهم فى الشمس . و إن بلالا هانت عليه نفسه فى الله عز وجل وهان على قومه فأسلموه إلى الوِلدان ، فجعلوا يطوفون به فى شعاب مكة وهو يقول : « أَحد أَحد » عند ذلك أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه فى الهجرة إلى الحبشة فى رجب سنة خمس من النبوة ، فهاجر إليها أحد عشر رجلا وأربع نسوة ، وكان أوّل من خرج عثمان بن عفان رضى الله عنه مع امرأته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولما رأت قريش استقرارهم فى الحبشة وأمنهم أرسلوا عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة بهدايا وتحف من بلادهم إلى النجاشى ليرد المهاجرين إلى قومهم ، فأبى ذلك ، وردهما خائبين بهديتهما . كل هذا والمصطفى صلى الله عليه وسلم مثابر على نشر دعوته ، يعرضها على من يلتقى به بين الحجيج مدّة إقامتهم بمكة — والكفار جادون فى منابذته ومناوأته ومناصبته العداوة . وقد جعل الله تعالى من عمه أبى طالب حاميا يذود عنه ، ويقوم دونه فى بعض ما يراد به من كيد وشر ، ومن زوجته السيدة العاقلة الفاضلة خديجة (رضى الله عنها) مواسيا يعطف عليه ، ويثبته ، ويخفف عنه وقع ما يلاقى .

وقد أصاب أصحابه الذين آمنوا به كثير من أذى الأعداء واضطهادهم، فاحتملوا وصبروا على ما أوذوا ابتغاء رضوان الله ومحبة فى رسوله صلى الله عليه وسلم حتى كانت السنة العاشرة من رسالته صلى الله عليه وسلم فأصيب بمصاب عظيم: هو موت عمه أبى طالب وزوجه السيدة خديجة رضى الله عنها، فحزن بذلك حزنا شديدا حتى سمى عام وفاتهما عام الحزن. وقد اشتد أذى الكفار من قريش بعد ذلك عليه وعلى أصحابه، ونالوا منهم ما لم ينالوا فى حياة عمه.

أصبح المصطفى صلى الله عليه وسلم وقتئذ فى مقام ضنك: تتهدده الحتوف، وتتوعده الهلكات، وتفغر له أفواهها المنايا، وكان يخيل لغير أهل اليقين أن أمر محمد صار إلى الإخفاق، ولكن هذا الأمر العظيم المؤيد من الإله القدير الحكيم ما كان لينتهى بالإخفاق.

ولما كانت السنة الثالثة عشرة من البعثة قدم إلى مكة من أهل المدينة عدد كثير يقصدون الحج، فاجتمعوا بالرسول صلى الله عليه وسلم وعاهدوه إن هو هاجر إليهم على أن يدافعوا عنه وينصروه على أعدائه. ولما سمع المشركون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حالف قوما عليهم ازداد أذاهم عليه وعلى أصحابه، فأمر عليه الصلاة والسلام المسلمين بالهجرة إلى المدينة، فصاروا يتسللون فرارا بدينهم ليتمكنوا من عبادة الله الذى امتزج حبه بلحمهم ودمهم حتى صاروا لا يجدون غضاضة فى مفارقة أوطانهم والابتعاد عن آبائهم وأبنائهم. ولما طرق مسامع قريش تتابع المهاجرين اجتمع رؤساؤهم وقادتهم فى دار الندوة للتشاور فيما يصنعون فى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتباعه، فقال قائل منهم: نخرجه من أرضنا لنستريح منه، فرفض الباقون هذا الرأى لأنهم قالوا: إذا خرج اجتمعت حوله الجموع لما يرونه من حلاوة منطقه وعذوبة لفظه.

وقال آخر: نوثقه ونحبسه، فرفض هذا الرأى كسابقه مخافة أن الخبر يبلغ أنصاره فيعلنون حربا على مشركى مكة، وقال لهم طاغيتهم: بل نقتله، ولمنع بنى أبيه من الأخذ بثأره تقدم كل قبيلة شابا جلدا ويجتمع الكل أمام داره، فإذا خرج ضربوه ضربة

رجل واحد فيتفرق دمه فى القبائل ، فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قريش بل يرضون بالدية ،فارتضوا هذا الرأى . ولما كان الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه حتى ينام ، فأمر صلى الله عليه وسلم عليا أن ينام مكانه حتى لا يحصل الشك فى وجوده فى الليل :. فإنهم كانوا يرددون النظر من شقوق الباب ليعلموا وجوده ، ثم سجى عليا ببردته . فكان على كرم الله وجهه أول من شرى نفســه فى الله ، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أخذالله على أبصارهم فلم يره أحد منهم ،ثم تقابل مع الصِّدِّيق حيث تواعدا ، ثم سارا حتى بلغا غار ثور فاختفيا فيه ، ونظر صلى الله عليه وسلم حين خروجه إلى البيت فقال : والله إنك لأحب أرض الله إلىّ ، و إنك لأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت . ولما لم تجد قريش رســول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر طلبوهما بمكة أعلاها وأسفلها ، وبعثوا القافة إثرهما فى كل وجهة ، وجعلوا جائزة كبيرة لمن يأتى بهما ، بجدّوا فى طلبهما حتى وصلوا إلى باب الغار ، فعميت أبصارهم عن دخوله ، وجعلوا يضربون حوله يمينا وشمالا . وعند ذلك اشتدّ حزن أبى بكر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : إن قتلتُ فإنما رجل واحد ، و إن قتلتَ أنت هلكت الأمة ، فما لبث أن أجابه المصطفى صلى الله عليه وسلم بذهن حاضر وقلب مفعم ثقــة ويقينا : « لا تحزن إن الله معنا » وهذا ضرب من الثبات لم يروه التاريخ فى أحقابه ودهوره . ومكث صلى الله عليه وسلم هو وأبو بكر رضى الله فى الغار ثلاث ليال ، ثم غادراه إلى المدينــة فى طريق غير مألوف . وقد صادفهما فى الطريق أعرابى ، فسأل أبا بكر عمن معه فقال : هاد يهدينا الطريق : أراد أبو بكر طريق الخير ، وفهم الأعرابى طريق السير .

وبذلك تمت هجرته صلى الله عليه وســلم إلى دار ينشر فيها الإسلام ، ويكون فيها للرسول العزة والمنعة . وهذا من الحكمة بمكان عظيم : فإنه لو انتشر الإسلام بمكة لقال المبغضون : إن قريشا أرادوا ملك العرب فعمدوا إلى شخص منهم ، وأوعزوا إليه أن يدعى هذه الدعوى حتى تكون وسيلة لنيل مآربهم . ولكنهم قد صاروا له أعداء ألداء آذوه شديد الأذى حتى اختار الله له مفارقة بلادهم والبعد عنهم .

كانت دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هذا الوقت سلمية : أساسها البرهان والإقناع والموعظة الحسنة ، فأسلم كثير ممن اقتنعوا بصدق الداعى وصحة دعواه : (أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) بيد أن أعداءه من كفار قريش سكان مكة واليهود الذين كانوا ساكنين بالقرب من المدينة وغيرهم من قبائل العرب لم يقفوا عند إنكار رسالته ودعوته الإلهية ، بل أرادوا أن يسكتوا الداعى ، وبدءوا يضاعفون اعتداءهم عليه وعلى أصحابه ، فأذن الله الحكيم للمسلمين فى القتال دفاعا عن أنفسهم ووقاية للدعوة ممن يصد الناس عن الدخول فى دين الله أو يفتنهم أو يعذبهم إذا دخلوا فيه . وفى ذلك يقول الله تعالى : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ وقوله تعالى : ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾ وقوله تعالى : ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلهِ﴾ . فدافع النبىّ وصحبه دفاع قوم يقول لسان حالهم : أما وقد أبت قريش وغيرها إلا الحرب فليحتملوا عواقبها بعد أن صموا آذانهم عن كلمة الحق وشريعة الصدق . وقد جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم من طريق الرفق والأناة ، فازدادوا عتوا وطغيانا ، وأبوا إلا تماديا فى ضلالهم : يسلبون وينهبون ويقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق . وليكن القول الفصل للحسام المهند ، ولكل مسرودة حصداء وسابحة جرداء .

ليس معنى هذا أن دين الإسلام ما كان لينتشر لولا السيف . كلا : فقد جاء — كما تقدّم — بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولما لم يقدّروها حق قدرها وتتابع منهم العدوان لجأ إلى السيف دفاعا عن دعوته وحماية له ولأتباعه . والحق لا بدّ من نشر سلطانه وحفظ كيانه إما باللسان وإما بالسيف وإما بالقلم . ولقد جرت سنة الله فى خلقه أن الحرب بين الحق والباطل تتمخض دائما عن بقاء الحق ناميا زاكيا : فمثله كمثل حبوب القمح إذا دفنت فى الأرض مخلوطة بقشر وقمامة وكانت الأرض خصبة قوية أخرجت قمحا خالصا ، أما القمامة فإنها تهضمها فى سكون ، ثم تحيلها عناصر نافعة . تلك سنة الله فى كونه : وهى سنة حق لا باطل ، وسنة عدل ورحمة وحنان ، تتكفل بحراسة كل أمر أسس على الأخلاق ، واغتذى بروح الحق . والدين الذى

جاء به محمد صلى الله عليه وسلم إنما هو الحقيقة الكبرى لبثت تنتقل من عصر إلى آخر دهورا وأحقابا لم يتبدل جوهرها : (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَامُ) والإسلام جوهر حق وروح صدق . وكل ما نسبه المفترون أو الجاهلون إليه من البهتان والخزعبلات فليس منه، ولا يضيره، ولا يحجب نوره، ولذلك لا عجب من سرعة اتصاله بالقلوب وشدّة امتزاجه بالنفوس واختلاطه بالدماء فى العروق وقضائه على الملل الكاذبة والنحل الباطلة : فقد كانت حطبا هشيما أكلته نار الإسلام ، فاستحال الحطب رمادا، والنار لا تزال باقية مشتعلة .

لا يزال القرآن الكريم قاعدة التشريع والعمل والقانون المتبع فى شئون الحياة ومسائلها ، هدى للناس وسراجا منيرا يضىء للعالم سبيل الحياة ويهديهم صراطا مستقيما ، وقد اقتضت حكمة الله أن يجعله قواعد كلية يستنبط منها ما يصلح لكل زمان ومكان .

فما برح هذا الكتاب الكريم يتردّد صوته فى آذان الألوف من خلق الله ويصل إلى قلوبهم أكثر من ثلاثة عشر قرنا . فهو صوت الحق . إذا تلى نفذ إلى الأفئدة . يجرى الإخلاص فيه من أوله إلى آخره . وهذا هو الذى جعل العرب المعاندين يخضعون لبلاغته، ويقرون بعجزهم عن محاكاته .

تأمل قصة عتبة بن ربيعة العبشمى من بنى عبد شمس بن عبد مناف وكان سيدا مطاعا فى قومه إذ قال: يا معشر قريش: ألا أقوم لمحمد فأكلمه، وأعرض عليه أمورا عله يقبل بعضها فنعطيه إياها ويكف عنا ؟ فقالوا : لك ذلك . فذهب إلى رسول الله وهو يصلى فى المسجد وقال : يابن أخى : إنك منا حيث قد علمت من خيارنا حسبا ونسبا ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفهت أحلامهم، وعبت آلهتهم ودينهم ، وكفرت من مضى من آبائهم . فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها . فقال عليه الصلاة والسلام : قل يا أبا الوليد . فقال : يابن أخى : إن كنت تريد بما جئت به من

هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد شرفا سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك ، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا ، وإن كان الذى يأتيك رئيا من الجن لا تستطيع ردّه عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فقال المصطفى صلى الله عليه وسلم : لقد فرغت يا أبا الوليد . قال : نعم . قال : فاسمع منى : فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أول سورة فصلت : ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حم تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ، بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ . وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِى آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ . قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ . الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ . قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ . ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِى كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ . إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ قَالُوا : لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ عند ذلك أمسك عتبة بفيه ، وناشده الرحم أن يكف عن ذلك ، فلما رجع عتبة سألوه فقال : والله لقد سمعت قولا ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة ولا بالسحر . يا معشر قريش : أطيعونى فاجعلوها لى : خلوا بين الرجل وما هو فيه : فاعتزلوه . فوالله ليكونن لكلامه الذى سمعت نبأ : فإن تصبه العرب فقد كفيتموه

بغيركم ، وإن يظهر على العرب فعزه عزكم، فقالوا : لقد سحرك محمد، فقال : هذا رأيي . ثم عرضوا على المصطفى صلى الله عليه وسلم أن يشاركهم فى عبادتهم ويشاركوه فى عبادته، فأنزل الله فى ذلك سورة : ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ولما أيسوا منه طلبوا إليه أن ينزع من القرآن ما يغيظهم من ذم الأوثان والوعيد الشديد، فأنزل الله تعالى لهم جوابا : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ .

ولما رفض ذلك قصدوا إلى تعجيزه بطلب المعجزات، وطلبوا منه انشقاق القمر، فآتاه الله هذه المعجزة الباهرة : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ ولما تمت هذه المعجزة أرادوا الاستمرار فى تعنتهم وعنادهم فقالوا :﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴾ فلم يجبهم إلا بقوله :﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ : لأن الله علم ما تكنه جوانحهم من التعصب والعناد فلا يؤمنون مهما جاءهم من البينات : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وكيف يرجى الخير ممن قالوا : ﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ولم يقولوا : فاهدنا إليه .

ولما رأى المشركون ضعفهم عن مقاومة الإسلام بالبرهان اختاروا سياسة القوة كما فعل قوم إبراهيم عند ما عجزوا إذ (قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ) .

كل هذا قد لاقاه محمد صلى الله عليه وسلم وهو مستمر على دعوته يدعوهم ليلا ونهارا سرا وإعلانا، منفذا لأمر الله لا يخشى فيه لومة لائم حتى دخل الناس فى دين الله أفواجا ، وخضعت له الجزيرة العربية ، وانقادت لدينه، . ثم اختار من أصحابه أولى الحزم واليقين والبيان رسلا أرسلهم إلى الملوك خارج الجزيرة . ولم تؤثر عنه زلة أو هفوة : فقد رزق الحلم والاحتمال والعفو عند المقدرة والصبر على المكاره ، وما كان يزيده الأذى إلا صبرا، وإسراف الجاهل إلا حلما : قالت عائشة رضى الله

عنها : ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمرين قط إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما ، فإن كان إثما كان أبعد الناس عنه ، وما انتقم لنفسه إلا ان تنتهك حرمة الله فينتقم لله لها . ألم تر أنه لما أصابه ما أصابه فى وقعة أحد قيل له : لو دعوت عليهم؟ فقال : إنى لم أبعث لعانا ولكنى بعثت داعيا و رحمة . اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون . فلم يقتصر على السكوت عنهم حتى عفا عنهم ، ثم أشفق عليهم ، و رحمهم ودعا وشفع لهم ، وقد تقدّمت الإشارة إلى ذلك .

ولما أشير عليه بقتل بعض المنافقين قال : لا : لئلا يتحدّث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ، ولا غرو : فإخلاص محمد عليه الصلاة والسلام لا يدانيه إخلاص ، وليس كإخلاص العظماء الذين لا يبرحون يباهون الناس بإخلاصهم : لأن هذا الضرب من الإخلاص حقير دال على الفتنة والغرور ، أما إخلاص محمد عليه الصلاة والسلام فغير مرتبط بإرادته : فهو مخلص بفطرته الطاهرة النقية لأن الله فطره على ذلك .

مما تقدّم يتبين أنه صلى الله عليه وسلم احتمل ما لم يحتمله نبيّ قبله ، فتاوَنت عليه الأحوال من سلم وخوف ، وغنى وفقر ، وأمن و إقامة فى وطنه وظعن عنه ، وقتل أحبابه وأوليائه بين يديه وأذى الكفار له بجميع أنواع الأذى : من الكذب والافتراء عليه والبهتان و إيذائه فى جسمه . وهو مع ذلك صابر على أمر الله يدعو إلى الله ، فلم يؤذ نبي ما أوذى ، ولم يحتمل فى الله ما احتمله ، ولم يعط نبيّ ما أعطيه ، فرفع الله له ذكره ، وقرن اسمه باسمه ، وجعله سيد الناس كلهم ، وأقرب الأنبياء إليه وسيلة وأعظمهم عنده جاها ، وأسمعهم عنده شفاعة . وكانت تلك المحن تجلى عن كرامته . وهى مما زاده الله بها شرفا وفضلا ، وساقه بها إلى أعلى المقامات . وهذه حال و رثته من بعده الأمثل فالأمثل : كل له نصيب من المحنة يسوقه الله بها إلى كماله بحسب متابعته ، ومن لا نصيب له من ذلك فحظه من الدنيا حظ من خلق لها وخلقت له . خلاقه ونصيبه فيها : فهو يأكل منها رغدا ، ويتمتع فيها حتى يناله نصيبه من الكتاب .

يمتحن الله أولياءه وهو فى دعة وخفض عيش ، ويخافون وهو آمن ، ويحزنون وهو فى أهله مسرور،له شأن ولهم شأن، وهو فى واد وهم فى واد . همه ما يقيم به جاهه، ويسلم به ماله، وتسمع به كلمته .

أما هم أصحاب الإرادة القوية والعزيمة الثابتة فإقامة دين الله ، وإعلاء كلمته، وإعزاز أوليائه ، وأن تكون الدعوة له وحده ، فيكون هو وحده المعبود لا غير، ورسوله المطاع لا سواه . فلله سبحانه من الحِكَم فى ابتلاء أنبيائه ورسله وعباده المؤمنين ما تتقاصر عقول العالمين عن معرفته . وهل وصل من وصل إلى المقامات المحمودة والغايات الفاضلة إلا على جسر المحنة والابتلاء؟ :

كذا المعالى إذا مارمت تدركها * فاعبر إليها على جسر من التعب

من أجل ذلك كان محمد صلى الله عليه وسلم خيرْ أسوة للمربين والمرشدين والقواد والقضاة والحكام والأئمة والناشئة والمعاهدين والمحاربين والعابدين والزاهدين : فهو مثل أعلى : للفرد فى قبيلته، والزوج مع زوجته، والأب مع ابنه،والتاجر فى تجارته، والمربى مع تلميذه ، والواعظ مع مستمعيه ، والجندى فى حومة الوغى ، والقائد فى تدبيره، والمشترع فى أحكام شريعته، والقاضى فى ولايته، والسياسى فى حكومته، والملك فى رعيته ، والمسالم لأوليائه ، والمحارب لأعدائه ، والعابد فى محرابه، والزاهد فى قناعته .

كل هؤلاء يجدون من صفاته صلى الله عليه وسلم مثلا يحتذونها ،وروحا يقوون بها على مزاولة أعمالهم،وإماما يسيرون عليه فى تحقيق مآربهم، ومردا يرجعون إليه عند حيرتهم .

من أجل ذلك وجب اتباعه وامتثال سنته السنية، واقتفاء طريقة هديه وسيرته الزكية ، والاقتداء به فى الأخلاق والأفعال ، والانقياد لأوامره فى جميع الأعمال ، والتأسى به فى حربه وسلمه ، والأخذ بقوله، والرضا بحكمه : فخير الهدى هداه ، ومن اتبعه أحبه الله .

ومن أجل ذلك سعدت أمة امتثلت أوامره ، واجتنبت نواهيه ، و بذلت الجهد فى مناصرة دينه ومؤازرته ، وتأدبت بآدابه فى عسرها و يسرها ، وآثرت ما شرعه على هواها ،وثابرت على العمل بسنته،وتفقهت فى دينه وشريعته، وتخلقت بخلقه، وتطبعت بطبعه، وأحبت من أحبه، وعظمت آل بيته وصحبه، وخالفت كل أمر يخالف شرعه،وأعرضت عمن حاول إدخال محدثة فيه أو بدعة، ونهضت للوقوف عند حدوده ، و رفضت أقوال شانئه وحسوده ، و بذلت النفس والمال دونه : فليس هناك كرم أجزل من كرمه، ولا نعم أكمل من نعمه، ولا نوال أتم من نواله .

ولا عجب : فقد جاء بالرأفة والرحمة،وعلم الكتاب والحكمة،وأنذر و بشر، ونهى عن التعسير و يسر، و بالغ فى النصيحة ، وأتى بالحجة الصحيحة ، وجاء بالهداية ، وأنقذ من العماية، ودعا إلى الفلاح، و بين سبيل النجاح .

قال تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ، الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ . فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

*

*

الباب الثاني

محمد صلى الله عليه وسلم بين الرسل

انفرد محمد عليه الصلاة والسلام من بين الأنبياء والرسل بأن معاصريه قد وقفوا على جميع خلاله وأخلاقه الخاصة والعامة، ثم تناقلها النـاس جيلا بعد جيل واضحة لا خفاء فيهـا ولا لبس، وأودعوها بطون الكتب . فهو الرسـول التاريخى بالمعنى الصحيح : لأن سـيرته من مولده إلى مماته ثابتة ثبوتا لا مرية فيه : فجميع أعماله مدونة، وأحاديثه مسطورة شاملة لمـا يحتاج إليـه بنو البشر فى معاشهم ومعادهم، وأعماله مصدّقة لأقواله، لا تناقض فيها ولا تضارب، وهى فوق ذلك نبراس لبنى الإنسان يستضيئون به على ممر الدهور والأحقاب .

وهذا هو سرّ أن محمدا أفضَلُ المرسلين، وأرفعهم شأنا، وأعلاهم قدرا . ولولا ما جاء به من الشمائل والأعمال ما فهم العالم قدر النبوّة والأنبياء .

لو كانت رسالة الأنبياء مقصـورة على إلقاء المواعظ والنصائح دون أن يكافحوا فى سبيل إنهاض بنى الإنسان وتثقيف عقولهم وتقويم أخلاقهم وإصـلاح شئونهم ما اسـتطاع أحد أن يفهم وجه الحاجة إلى الرسالة والرسل : لأن المواعظ والحكم والأمثال قد جاءت فى الأحقاب الخالية على لسان من لم يدّعوا الرسالة : ففى كتاب كليلة ودمنة — وهو ممـا وضعته علماء الهند — كثير من الأمثال والأحاديث التى ألهموا أن يدخلوا فيها أبلغ ما وجدوا من القول فى النحو الذى أرادوا . وقد ضمنوه كثيرا من البحوث الخلقية والسياسية والاجتماعية والحربية على لسان البهائم والطير، وقد قصدوا به أن يكون إرشادا وهداية لتربيـة الأمراء وأبناء الحكام فى الشرق، وهو بلا ريب كتاب حكمة وأدب — غير أن العقل — وقد بلغ من الرقى شأوا بعيدا —

قد بان له أن تحقيق كثير مما اشتمل عليه عَسِيرٌ : لأنه إلى الأمور النظرية أقرب منه إلى العملية، وأن الانتفاع بطائفة من المواعظ والنصائح لم يخرجها قائلها إلى حيز العمل — قليل .

وإن أمثل قاعدة يُسْتَرْشَد بها فى اصطفاء من يتخذه الناس زعيما وقدوة هى أعماله : فهى التى تجعله أهلا لأن يسلم إليه الناس قيادهم، ويأتمنوه على عقولهم يثقفها ويغذيها، وعلى أخلاقهم يقومها ويزكيها . وإن أثر الحكمة الخلقية تسمع من أفواه الوعاظ ليس بأكثر منها وهى مكتوبة على الجدران .

مما تقدّم يتبين أن القاعدة فى اختيار الهداة هى أعمالهم لا أقوالهم . وأعظم هؤلاء الهداة هم الذين أرسلهم الله بنوره وهدايته . وما جاء على لسانهم من الأقوال الحكيمة والمواعظ الخلقية الاجتماعية لا يتحقق أثره إلا إذا كانت أعمالهم مظاهر لها . ومن أراد العمل بها دون أن يتواتر إليه كيف عملوا بها فقد يقع فى الخطأ، ويضل سواء السبيل . أضف إلى ذلك أن الفضائل السلبية والفضائل القولية ليس لها وزن فى باب الأخلاق والفائدة : فقد نقرأ لكثير من الناس كلاما حسنا فى العفو والحلم وكظم الغيظ ولكنا لا نستطيع الجزم بأن هذه الخلال شعارهم .

وليس هناك من دليل مقنع على أن الإنسان يَسْتَشْعِر الفضائل من أن يكون قوله مقرونا بعمله . فأَخلِقْ بمن ينصح للناس الصبر ومحامده واحتمال الأذى ومحاسنه أن يكون قد ركب متن الأهوال، ولاقى الشدائد، وأوذى فى سبيل رأيه وعقيدته، كما فعل محمد صلى الله عليه وسلم .

إن طائفة من المواعظ والمعجزات ليست كل ما يأتى به الرسول من الآيات والبراهين ، بل آيته أن يحيى بنى الإنسان بعد أن ذاقوا الموت العقلى والخلقى والروحى، وآيته أن يبعث فيهم بأقواله وأفعاله الهمة والمروءة والنجدة وما إليها من الخلال السامية : آيته أن يبعث الإنسانية من رمسها فتخرجَ وقد سرت فيها الحياة الصحيحة : فاستيقظ شعورها، وتحركت عاطفتها، وانتبه عقلها، وبرزت أخلاقها،

وانتعشت روحها : لأن هذه الصفات هى ملاك أمرها، لا تعيش ولا تنمو إلا بها، وهى متساندة لا تستقيم واحدة منها بغير انضمامها إلى أخواتها ، ولذلك كان من الخطل تقوية بعضها و إغفال سائرها .

انفرد محمد صلى الله عليه وسلم بأن استثمر هذه الصفات، و وجهها إلى جعل بنى الإنسان أو فى عقل راجح، وشعور حى، وعاطفة نبيلة، وخلق رفيع، و روح عالية . قد توالت الدهور والأحقاب والأمم منفصلة بعضها عن بعض زاعمة كل واحدة أن العالم كله فيها ، وأنها أفضل من سواها : لأن الله خصها بالرسالة والهداية، فنجم عن ذلك القول بأن الله — تعالى عما يقولون علوا كبيرا — حابى بعض الأمم، وخصها بمزايا لم يمنحها غيرها .

من أجل ذلك أرادت الحكمة الإلهية أن تقضى على ما خالج نفوس بعض الأمم من أنها أفضل من غيرها جنسا وخلالا ودينا ، وأن تجعل من الإنسان جسما واحدا، فمنّ الله على الخلق جميعهم برسول عام، معه رسالة عامة، لا يخصصها زمان ولا مكان : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ .

كان مثل من سبقه من النبيين صلوات الله عليهم وسلامه مثل المصابيح، كل منها وضع فى حجرة لا يضىء سواها، فلما ظهرت شمس الرحمة من البلاد العربية لم يبق هناك من حاجة إلى هذه المصابيح المحدودة المدى، وليس فى مقدور أى نور آخر أن يخلق هذه الشمس .

بعث كل رسول ممن تقدموا المصطفى صلى الله عليه وسلم لتهذيب أفراد أمته وجعلهم صالحين لتكوين أمة متجانسة، ولعمرى هذا عمل جليل — غير أن محمدا صلى الله عليه وسلم وهو خير المرسلين أرسل ليجمع هذه الأمم ، و يجعلها أمة واحدة متكافئة مرتبطة برابطة الإخاء .

جاء كل رسول وأهم مقاصده تقويم خلق معين، فكانت حياته أسوة لما أراد تقويمه . أما محمد صلى الله عليه وسلم فقد جاء لتنمية الفطرة الإنسانية جميعها واستخدام ملكاتها وتقويم غرائزها . وكانت حياته العملية صلى الله عليه وسلم ملأى بالمثل الصالحة الكفيلة بتقويم أخلاق بنى الإنسان جميعها، ولذلك كان مثلا كاملا للإنسان اجتمعت فيه الفضائل التى كانت فى أنبياء بنى إسراءيل وغيرهم : تجمت فيه شجاعة موسى، وشفقة هرون، وصبر أيوب، وإقدام داود، وعظمة سليمان، و بساطة يحيى، ورحمة عيسى، عليهم جميعا الصلاة والسلام .

كانت له شخصية قوية ، أثرت فيمن حوله أثرا بليغا ، فأقر له بالفضل العدو والصديق . أظهر من الثبات والمثابرة وحضور البديهة والسكينة فى أوقات المحن والشدائد ما لم يعهد فى إنسان قبله أو بعده . أوتى من البيان ووضوح الحجة ما جعل الناس قاطبة يفهمون قوله .

عمل بما قال ، فكان أكمل مثال يحتذى به، وحدّثت أعماله عن نفسها .

قضى حياته كلها ولم يبد منه ميل إلى المجد والتعظيم ، وأذّن فى الناس بأنه بشر لا إله ،وأنه إنما جاء برسالة لهداية العالمين : تنزل عليه الأحكام والآداب فيبلغها، ثم يترجم عنها بعمله .

و إذ بلّغ ما أوحى به إليه و بينه بعمله وجعله من خلقه سهل على الناس أن يتبعوا شريعته، وينسجوا على منواله، وظل الكتاب الكريم سليما من النقص والزيادة ، مصونا من التبديل والتحريف، يتناوله الخلف عن السلف كما أنزل وكما بينه الرسول بعمله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ .

أما وقد بان أن القرآن الكريم هو مظهر الإرادة الصمدانية العالية ، وأنه باق كما أنزل،وأنه محتو على ما يحتاج إليه الإنسان فى معاشه ومعاده، وأن النبى صلى الله عليه وسلم بينه كما أراد ربه، وأن بيانه وصل إلى المسلمين فى العصور المتتالية كاملا

مصونا فلا حاجة إلى تنزيل جديد : لأن كلمة الله لم تبدّل ، وإرسالها مرة أخرى محض تكرار وإعادة — والله منزه عن ذلك — ولا حاجة إلى رسول آخر : لأن محمدا صلى الله عليه وسلم جاء بآخر هداية للناس ، فهو لذلك خاتم الرسل . أضف إلى ذلك أن المفكرين أجمعوا على أن أسمى أغراض الدين هو نقل الإنسان من حظيرة الحيوانية إلى حظيرة التفكير وإعداده لأن يحيا حياة الفضيلة والاستقامة والتقوى ، ولا يتأتى هـذا إلا إذا كان الدين الذى يعمل به أقرب الأديان منالا قيما لا عوج فيه ، صالحا لكل زمان ومكان وإن لم يفطن لذلك بعض أهله . والقرآن هو ضالة بنى البشر فهو : ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ فيه آيات بينات ، ودلائل واضحات ، وأخبار صادقة ، ومواعظ رائقة ، وشرائع راقية ، وآداب عالية ، ببيان ساطع ، وبرهان قاطع . مفتاح للمنافع الدينيــة والدنيوية ، مصــدق لمــا بين يديه من الكتب السماوية . آية الله الدائمة ، وحجته الخالدة . باق على وجه كل زمان ومكان . دائر من بين سائر الكتب على كل لسان فى كل مكان .

*

الباب الثالث

الأسباب الاجتماعية والاقتصادية التى اقتضت بعثة محمد صلى الله عليه وسلم

جدير بنا أن نوجز القول فى حال العالم قبل البعثة المحمدية وحال البلاد العربية وبخاصة مكة لنبين الأسباب التى دعت إليها :

(١) حال الفرس

أنبأنا التاريخ أنه فى سنة ٦١٠ ميلادية اشتعلت الحرب بين الرومان والفرس : لأن العداوة بينهما قديمة ترجع إلى ما قبل القرن الخامس قبل الإسلام . وأهم أسبابها تنازعهما سيادة العالم : لأنهما كانتا فى تلك العصور أعظم دول الأرض، فأرادت كل منهما الاستئثار بالسلطان دون الأخرى . وكان من عواقب حرب سنة ٦١٠ م أن جنود الفرس عاثت فى الأقطار الرومانية ، والإمبراطور هرقل معتزل فى قصره، منغمس فى اللهو واللعب — غير أنه لما شاهد الخطر هب للدفاع عن كيان دولته . ولما لم يكن عنده مال كاف للحرب اقترض أموال الكنائس على أن يردها وربحها بعد أن تضع الحرب أوزارها . وما زالت الحرب قائمة حتى دارت الدائرة على الفرس، وتم النصر للرومان فى سنة ٦٢٢ م .

وفى سنة ٦٢٧ ميلادية تجددت الحرب بين الدولتين ، فانهزم الفرس مرة أخرى، وبلغت جنود الرومان نينوى عاصمة الآشوريين قديما، ثم ظهرت مخايل الانحلال السياسى على دولة الفرس : فأصبحت حكومتهم فوضى حتى ادعى ملكها فى خلال أربع سنين تسعة من ملوكهم .

دع عنك أن الحال الاجتماعية أخذت تضعف أيضا : فقد انشقت عصا الأمة بما فشا فيها من تشعب المذاهب عن مانِى وَمَزْدَك الذى ادعى أن الله بعثه ليأمر بإباحة النساء والأموال بين الناس : لأنهم إخوة أولاد أب واحد . فنشأ عن ذلك كثير من فساد الأخلاق، وانتابهم تدهور عام .

(ب) الرومان

أما الرومان فقد ضاع نفوذهم فى الأمم التى قهروها، وقبض المتبربرون على كثير من المناصب الإدارية والجندية ، وصارت الثغور مهددة بالغارات عليها من كل جهة ، وأمعنت الحكومات المتعاقبة فى زيادة الضرائب سدّا لحاجات الطبقات العالية ونفقات الحكام التى لا عهد لهم بها من قبل : فكان من ذلك أن الأقطار التى لهم السلطان عليها أخذت تشق عصا الطاعة :لأنها لم تستطع احتمال مظالم الحكام وإرضاء جشعهم وشهواتهم .

حقا إن ملوكها من عهد دقلديانوس فكروا فى أن يدفعوا أسباب الانحلال بإنقاذ العالم الرومانى : فبدأ دقلديانوس بإلغاء نفوذ البطارقة ، واستبدل به نظاما آخر شبيها به، فلم يفلح . حتى جاء قسطنطين : فسعى فى كسر شوكة طبقة الأشراف من الجنود، واستعاض عن وظائفهم بوظائف مدنية، فنجح إلى درجة محدودة . ولما بان له أن الإقامة فى رومة ليست بعد ممكنة للملوك نقل مقر الدولة إلى القسطنطينية ليقطع كل صلة بينه وبين العادات القديمة ، ويترك الرومانيين ومعبوداتهم الكاذبة — بيد أنه أخفق فى سعيه : لأنه حسب أن يتخذ النصرانية أقوى سبب لنجاحه ،فبان له غير ذلك : إذ تشعبت الاختلافات الدينية إلى شعاب لا عداد لها . وكل شعبة أخذت تدافع عن معتقداتها دفاع المستميت حتى عمت الفوضى الأمور الدينية ، كما استولت على المناصب الحكومية . أضف إلى ذلك أن الأشراف والبطارقة وجماعات المصارعين وغيرهم من أولى اللهو واللعب الذين اعتادوا سخاء الملوك وتبذيرهم فى رومة رحلوا إلى القسطنطينية ليستمتعوا بما اعتادوه

من قبل . وما لبثت هذه الطبقات أن انحطت درجاتها عما كانت عليه فى الغرب ، وبقدر انحطاط درجاتهم الخلقية ازدادت قوتهم ووقاحتهم حتى أن السوقة استطاعوا إعطاء الملك لمن يزيد لهم فى العطاء .

ثم تلا ذلك النزاعُ بين الباباوات وبطارقة القسطنطينية الذين كانوا يحرم بعضهم بعضا ، فتضاعفت بذلك أسباب الانحلال فى هذه الأمة المتداعية ، وانصرفوا عن مدافعة الأمم المتبربرة التى كانت تنقص الدولة من أطرافها : فمن ذلك أن الحكام كانوا يهتمون بتقريب أتباع رؤساء الكنائس أكثر من اهتمامهم بمنازلة الفرس والبلغار فى ميدان القتال .

ويضاف إلى ما تقدم ما كان بين الرومان واليهود من التباغض : فقد بلغ غاية عظيمة فى أيام هرقل : إذ ثار اليهود فى أنطاكية فقتلوا بطريركها ، ومثلوا به شر تمثيل ، وتآمر يهود صور ويهود فينيقية وفلسطين على أن يدخلوا مدينة صور ليلا ويقتلوا النصارى . ومما فعله اليهود من الفظائع نكاية فى الروم أنهم اشتروا من الفرس ثمانين ألفا من أسرى النصارى ، ثم ذبحوهم . وكانت حكومة النصارى إذا سنت قانونا خصصت بعض أحكامه باليهود لمعاملتهم بالاحتقار . وقررت المجالس الملية إلغاء الديانة اليهودية . وأمرت الحكومة بمنع اليهود من الاحتفال بأعيادهم ، وأجبرتهم على النصرانية ، وضيقت عليهم شديدا حتى اضطروا إلى التظاهر بالنصرانية .

أعرض الناس عن الفضائل الاجتماعية والخلقية ، وارتفع شأن الذين يعملون السيئات : فتبوءوا عرش القياصرة ، وساهموا البراطرة نخار الملك والحكم : وكان من ذلك أن ثيودورة التى أصبح اسمها مضغة فى الأفواه صارت ملكة يركع لها القضاة والكهنة والقواد مع ما أتته من الأعمال المنافية للدين والأخلاق . وكان من ذلك أن ساد القلق ، وانتشرت الفوضى ، وديست القوانين السماوية والوضعية ، وانتهكت حرمات الأماكن المقدسة .

(ج) الهنــــد

وأما فى الهند فقد انتشر مذهب إباحة النساء بوساطة دعاة أقوياء . وقد بلغ من الفحش أن الكاهن الهندى كان يختص بالعروس فى أيامها الأولى : لينشر عليها وعلى زوجهـا البركة والنعمة ، وكانت الأناشـيد التى تنوه بالمنكرات والقبائح تلقى فى الاحتفالات العامة .

(د) حال البــلاد العربيــة

كان العرب قبــل البعثة المحمدية قد وقعت بينهـم الفرقة، وتشتت الألفة ، واختلفت كلمتهم، واضطربت أحوالهم : فكانوا إخوان دبَرٍ ووبر، أذل الأمم دارا، وأجدبهم قرارا ، لا يأوون إلى جناح دعوة يعتصمون بهـا ، ولا إلى ظل ألفـة يعتمدون على عزها، فأحوالهم مضطربة، وأيديهم مختلفة . وكانوا فى بلاء عظيم : من جهل مطبق، وبنات موءودة ، وأصنام معبودة ، وأرحام مقطوعة، وغاراتٍ مشنونةٍ .

قد وصلوا قبــل البعثة المحمدية إلى هاوية الانحلال الاجتماعى بمـا لم يعهد له مثيل فى تاريخ الأمم : فكانوا فى جهــل بأحكام الدين الصحيح ومبـادئ السياسة والحيـاة الاجتماعية ، ولم يكن لهم فن يذكر ، أو صناعة تنشر، ولم يكونوا يعرفون شيئا من العلاقات الدولية ، وكانت كل قبيــلة أمة قائمة بنفسها تحفز لشن الغـارة على جارتها .

فشا فى العرب كثير من العادات المنكرة : كشرب الخمر والميسر ووأدِ البنات والسلب والنهب ، وكثيرا ما كانت الكلمة الواحدة تفضى إلى القتل ، و بلغت روح الانتقام درجة مروعة حتى أن النساء لم يرضِهن سوى صبغ ملابسهن بدم القتيل وأكل قلبه وكبده . .

هذا إلى أن منهم من تأول الإله ببعض الحيوان لكثرة نفعه أو شـدة ضره ، ومنهم من تمثله فى الكواكب لظهور أثرها، ومنهـم من حسبه فى الأشجار والأحجار لاعتبارات لهم فيها .

وجملة القول أنهم وصلوا إلى حال لا يستحقون فيها اسم الجماعة : فقد أمعنوا فى القسوة والمنكرات، ولم يتذرعوا بعلم ، أو يعتصموا بقانون ، وانحط الضمير الإنسانى فيهم إلى أسفل درجاته حتى بدلوا بالفضيلة الرذيلة ونوهوا بأصحابها .

(هـ) حال مكة قبل البعثة المحمدية

كانت مكة قبل القرن الخامس للميلاد محطا صغيرا تمر به القوافل فى طريقها من جنوب الجزيرة : تحمل بضائع الهند إلى سورية وفلسطين ومصر، ثم أصبحت فى أواخر القرن السادس مدينة كثيرة التجارة بفضل الأسواق التى أقيمت فيها . وكان العرب يقصدونها من أطراف الجزيرة وسورية والعراق وغيرها للتجارة ولزيارة الكعبة وإقامة شعائر الحج . وكان فى مكة فئة منها سدنة الكعبة وأهل الندوة يستفيدون مالا من ورود الحجاج وإقامة الأسواق ، ويستمدون نفوذا فى نفوس العرب وقوة فى سيادتهم المعنوية .

ضرِى أهل مكة بجمع المال واستثماره بضروب الوسائل المشروعة وغير المشروعة، وظل فيهم حب جمع المال متزايدا حتى بعد الإسلام : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾ .

ولا عجب أن أولع أهل مكة بالتجارة واستثمار أموالهم بشتى الطرق : لأنها كانت — كما وصفها القرآن الكريم : ﴿ رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ — غير صالحة للزراعة والصناعة ، فأكب أهلها على كسب عيشهم من المضاربة بالأموال .

وقد بلغ من حرصهم على راحة الحجاج ورواد الأسواق أنهم كانوا يحتاطون لأمرهم : فيعدون بضائعهم قبل قدوم أشهر الحج وافتتاح سوق عكاظ، ويقومون برحلتين : رحلة الصيف ورحلة الشتاء إلى سورية وفلسطين وجنوبى بلاد العرب : ليبتاعوا من هذه البلاد ما تدعو إليه الحاجة من البضائع ، وليبيعوا منتجات بلادهم .

كانت رءوس أموالهم مجموعة من أكثر سكان مكة والطائف على شروط معينة تكفل الربح لأصحابها ولأصحاب القوافل ، ولذلك كانوا جميعا يهتمون بالقوافل السنوية ، ويسألون عنها الرائح والغادى : لأنهم كانوا يخشون سطو شذاذ الطرق وقطاعها الذين ظلوا أزمانا يعيثون فى الصحراء فسادا ، ويعيشون من السلب والنهب . فما كل قافلة كانت تبلغ قصدها ، ولا كل مكى كان يقدم على جمعها وقيادتها ، بل كانت القيادة محصورة فى أناس عرفوا بثبات الجأش ومضاء العزيمة وحسن السياسة والتوفيق بين مصالح أغنياء مكة وجشع رؤساء القبائل الذين كانت تجتاز القوافل أرضهم : فكانوا يستميلونهم طورا بالمال ، وطورا بالمصاهرة ، وطورا بالإرهاب .

ومن أجل ذلك ظل أصحاب القوافل وأغنياء مكة يزيدون حراسها سنة فسنة حتى ألفوا منهم جيشا منظما يقوم بنفقاته تجار مكة من ربحهم الوفير .

مما تقدم يستفاد أن المال كان موفورا فى مكة والطائف ، وكان أصحابه كثيرين ، فصحب ذلك وجود فئة المرابين الذين انصرفوا إلى الربا حتى أصبح مصدرا ثانيا لثروتهم وإعلاء كلمتهم فى البلاد وأحد أسباب سخط الناس عليهم : فقد بلغ فى مكة درجة من أربعين فى المائة إلى مائة فى المائة .

بلغ عدد المرابين حدا عظيما ، واستفحل ضررهم على المجتمع ، والويل لمن سقط فى شباكهم ، واضطرته الظروف إلى الالتجاء إليهم : لأنهم على كثرتهم لم يكونوا يفقهون للرحمة معنى ، ولا يرون فرقا بين التجارة والربا ، بل : ﴿ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ﴾ بلغ من نهمهم وتهافتهم على جمع المال بأى وسيلة أنهم كانوا كما وصفهم القرآن : ﴿ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ .

كانوا يضاربون بالدراهم والدنانير : فتارة يزيدون فى وزنها أو قيمتها ، وطورا ينقصون : تبعا لمصالحهم الشخصية ، وجريا وراء جشعهم المعهود . كانوا يتلاعبون بالديون : بأن يؤخروا آجالها ، أو يقدموها ، أو يضيفوا إليها إلى غير ذلك من الأعمال التى كانت تفضى إلى خراب المدين واستعباده ، ولذلك قال لهم القرآن الكريم :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

بلغ من قسوة هذه الطائفة الطاغية أنهم حملوا المدينين على إكراه بناتهم ونسائهم على البغاء : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ : لإيفاء ما على أبيها أو بعلها من الدين الذى كان يتعذر إيفاؤه لزيادته يوما فيوما بما يضاف إليه من الربا الفاحش مما دعا كثيرا من المدينين للفرار إلى الصحراء واللحاق بطبقة المتشردين وقطاع الطريق أو الدخول فى طبقة الأرقاء .

أصبح المرابون لا هم لهم إلا تكثير أموالهم : فنمت فى قلوبهم الأثرة والاختصاص بما فى يد المعوزين، وحبب إليهم أن يجوع الناس ليشبعوا ، وأن يشقى غيرهم ليسعدوا، ويتعب ليرتاحوا .

اعتمد هؤلاء القساة على الربا فاقتنصوا به أموال الفقراء الذين يسعون ويكدون وهم قاعدون : فضعفت فيهم ملكة النشاط وحب العمل ، وأصبحوا فى جسم المجتمع العربى كالنبات أو الحيوان الطفيلى يتغذى من دم غيره . وبذلك امتلأت صدور الفقراء عليهم حقدا وضغينة : لأنهم أصبحوا فى أيديهم عبيدا أذلاء .

كان من ذلك أن قلت الخيرات، ومنعت الصدقات ، وهضمت حقوق الفقراء، وأكلت أموال الناس بالباطل، وفشا الظلم، واختفت المجاملة ، ونضب معين الشفقة والرحمة، وأغفلت حقوق الجوار، وفصمت رابطة الإخاء الإنسانى.

كان اليهود أيضا — وقد نُهوا عن الربا — لا يألون جهدا فى الكسب بوساطته عامدين إلى ضروب الحيل الشيطانية يعملونها للخروج عن الوقوع فى الظاهر تحت أحكام التوراة : كأن يقولوا : — كما حكى القرآن الكريم — ليس علينا فى الأميين سبيل، وكما قالوا : لا تقرض أخاك بربا ، أما الأجنبي فاقرضه بربا . أكلوا السحت المنهى عنه تحت ستار الحيلة : ﴿ يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

ومن بعد اليهود ظلت النصرانية مقاومة للربا مدّة طويلة بوساطة القسيسين وحفظة الدين يوم كان الربا عندهم يجعل المدين عبدا مملوكا للدائن يستخدمه فى مزرعته، ويستعمله لمنفعته من غير أن يعطيه حقا من الحقوق .

وقصارى القول أن المعاملات فى البلاد العربية وغيرها قد أصبحت قبل البعثة المحمدية مقتلة للفقراء، مولدة للأحقاد، داعية إلى انتشار أنواع الفساد ، مؤدّية إلى حصر الثروة فى طبقة من الناس ترى نفسها القابضة على زمام العالم المحركة لفلكه، وترى لنفسها الرياسة التامة وإن لم يكن لأفرادها حظ من العلم والعمل والحكمة وبعد النظر .

بلى : قد داخلهم الغرور : فتخلوا عن الزراعة والصناعة وأنواع التجارة اتكالا على ربح أموالهم .

استأثروا بالتشريع على حسب هواهم : فما جعلوا للعوزين قانونا يحيهم ، أو شريعة تعطف عليهم ، وتنقذهم من هاوية الموت الاجتماعى والرق الأبدى ، بل ظل هؤلاء الفقراء يعملون ليل نهار مسئولين أمام هؤلاء القساة بما لا طاقة لهم بحمله . وبذلك انحطت نفوسهم، ونزعوا إلى منازع الفوضى وضروب الفساد ، وأحسوا شديد الحاجة إلى من يصلح حالهم المادّية والأدبية، فأخذ شعراؤهم —

وهم لسانهم الناطق — يشيرون إلى ما فيه هذه الفئة من البؤس والشقاء، وينحون باللائمة على أصحاب الثروة، ويدعون إلى الرفق بالمعوزين، ويذكرونهم بواجبهم نحو الأرقاء والمظلومين : قال بشر بن المغيرة يستحث الأغنياء :

وكلهم قد نال شِبْعا لبطنه * وشِبع الفتى لؤم إذا جاع صاحبه

وقال الأعشى :

تبيتون فى المشتى مِلاء بطونكم * وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا

بيد أن هذه الصرخات القليلة كانت ذات أثر ضعيف فى نفوسهم القاسية : لأنها لم تستطع استئصال المرض الذى كان ينخر عظام المجتمع فى مكة والبلاد العربية وغيرها .

من أجل ذلك أصبح محتوما مقاومة هذه الأمراض العامة بدواء أنجع ووسائل أقوى على يد من هو أشد ثباتا وأمضى عزيمة من شعراء البادية .

فإن كان هناك زمن يستدعى بعث رسول فقد كان ذلك الوقت . ولا غرابة : فقد جرت سنة الله فى الكائنات أن يأتى بالنور بعد الظلمة وبالمطر بعد المحل، وجرت سنة الله أيضا أن يبعث رسولا متى وصل الانحطاط البشرى إلى غايته رحمة بعباده ورأفة بخلقه .

وقد امتازت الفترة السابقة لظهور محمد صلى الله عليه وسلم بأن العالم جميعه قد غشيته سحابة كثيفة من الشرك والجهل والرذيلة والظلم، وحل المنكر محل المعروف، وقبض أهل الرذيلة على ناصية الأمم . وبهذا تجلت الضرورة القاهرة إلى ظهور محمد صلى الله عليه وسلم الذى قام بأعظم إصلاح للمجتمع اضطلع به إنسان قبله أو بعده : مما دل على أنه أوتى من بعد النظر وسلامة القلب وحسن السياسة والعلم بطبائع الخلق ما لم يؤته مصلح آخر . هذا إلى استعداده لبذل مصالحه الشخصية ونفسه العزيزة فى سبيل تحقيق الأغراض السامية التى لم يرض التخلى عنها بوعد أو وعيد .

ندبه الله فلبى راضيا مغتبطا عارفا بالبيئة التى ولد وعاش فيها : فقد أنشأه الله يتيما فقيرا يكسب قوته من عمله . وآشتغل بالتجارة، وسافر غير مرة، وخالط الناس ووقف على أعمالهم : يفكر فى أسباب شقاء المعوزين منهم ، والطرق التى تخفف من نكبات الفقر، وأثقال الظلم ، فكانت هذه الأسفار وهذا الاختلاط بالناس والإصغاء إلى أحاديثهم إعدادا لتلقى الأمر الإلهى .

قضى زمنا فى التحنث والتفكير، ثم أطلعه الله على أسرار الحياة : فأدرك معنى الحياة وأسباب السعادة والشقاء ، فما وسعه إلا أن يؤذن فى قومه ، ولا سلاح له إلا الإخلاص فى النية والاعتماد المطلق على الله الذى وجده يتيما فآواه، ووجده ضالا فهداه، ووجده عائلا فأغناه . قد أصبح بجده وأمانته وحسن سيرته محبوبا محترما ملما بمعنى الحياة، مدركا أسباب أمراض المجتمع . رزقه الله الإخلاص الطاهر : فآستمدّ منه قوى متجددة استعان بها على مكافحة خصومه والتغلب على تلك العراقيل التى كانت تعوقه . وقد ضاعف الله منته على عبده بشرح صدره : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ .

لا جرم أنه شاهد بنفسه أيام اشتغاله بالتجارة ما كان يقع أمامه من الكذب والغش فى التجارة والإفلاس الكاذب وأكل أموال الناس والتطفيف فى الكيل والوزن وترف المثرين وسرفهم . وبهذا وأمثاله أعدّه الله لمحاربة أمراض المجتمع واستئصالها . وما رمى إلى أغراض اشتراكية أو شيوعية، بل وقف فى جانب الفقراء والمظلومين وقفة مغامر فى الحياة، ودافع جهارا عن مصالحهم الحيوية غير مبال بعواقب عمله . كان سلاحه صلى الله عليه وسلم كلمة الإخلاص يدعو بها ويحذر، ويستعطف ثم يوعد ويهدد، لا يخاف فى الحق لومة لائم : فهذا عمه أبو لهب الذى برز لمناوأته، وراح يفسد عليه عمله ، ويؤلب الناس عليه، فإنه بلسان القرآن لعنه، ولعن امرأته : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ . مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ . سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ، وَٱمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ ﴾ .

لم يخش سادة مكة وأغنياءها، بل قذفهم فى وجوههم بالجشع والتهافت على حطام الدنيا والتكالب على جمع المال بمختلف الوسائل .

لما شاهد الناس كيف يصول على أغنياء مكة وسراتها، ويحدب على الفقراء، ويقرر لهم حقوقا لا تضير غيرهم، امتلأت القلوب حبا وإخلاصا بهذا النبى الكريم : فأخذوا يدخلون فى دين الله أفواجا .

كان من حكمة الله ورحمته بالعالمين أن حمل على الربا حملة شعواء : فقال فى كتابه الكريم : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا : إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ، وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا، وَيُرْبِى الصَّدَقَاتِ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ، وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ، وَذَرُوا مَا بَقِىَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ . وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

جعل الله سبحانه وتعالى عقوبة الربا فى هذه الآيات خمسا : التخبط والمحق والحرب والكفر والخلود فى النار، وقضى بها على ما جره الربا من التقاطع والتدابر، وأحل محله الزكاة ، وأمر بالصدقة، وأوجب على الأغنياء حقا معلوما فى أموالهم للفقراء، وأمر الدائن بإنظار مدينه المعسر إلى ميسرة، وحثه على التصدق عليه بترك ما تسمح به نفسه من دينه، وكان من حكمة الله أن رغب فى الصدقات والإحسان إلى الفقراء : فأنزل فى ذلك أربع عشرة آية كلها حكمة وهداية وإرشاد : إذ يقول جلت حكمته :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ . وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ

فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم . يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شىء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين . ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير . أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون . يأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غنى حميد . الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم . يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب . وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه وما للظالمين من أنصار . إن تبدوا الصدقات فنعما هى وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير . ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون . للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم . الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

مما تقدم يتبين معنى قوله تعالى : ﴿ ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا ﴾ : فقد عم الفساد فى أقطار الأرض كما أفادنا

التاريخ فيما تقدّم قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم، وسرى الموت بجميع ضروبه من عقلى وخلق وروحى فيها، وأسدلت الظلمات أستارها : فعميت البصائر، وضلت الأعمال . وقد قال الأستاذ مويرفى كتابه « ترجمة محمد » عليه الصلاة والسلام : إن النصرانية فى القرن السابع للميلاد قد أصبحت فاسدة مشوّهة . وقال جيبون : إن النصرانية فى القرن السابع للميلاد قد استحالت وثنية : فقد أصبحت الوجوه تولى شطر الأصنام والأنصاب التى حلت محل الهياكل والمعابد ، وأخذ مكانَ عرش الله وعظمته الشهداء والقدّيسون، ونسب الضالون المضلون صفاتِ الله إلى السيد المسيح عليه السلام وأمّه البتول، وحارت الأفهام فى معنى التثليث والاتحاد والحلول، وعموا عن التوحيد .

اضطربت الأحوال الاجتماعية والخلقية فى العالم اضطرابا لم يعهد له مثيل : إذ أن أهل الأديان لم يقتصروا على مجانبتهم الفضيلة ، بل انقلبت الرذيلة فضيلة أقبل عليها الناس تقرّبا إلى الله — تنزه عما كانوا يفعلون .

انحطت جميع الأمم إلى مهاوى الرذيلة وأتى أهل الأديان فيها من أنواع المنكرات ما يندى له الجبين . حقا إن الله قد أرسل كثيرا من الرسل قبل محمد عليه الصلاة والسلام، وإن ظهورهم كان حاجة ماسة — غير أن العصور التى بعثوا فيها واحدا بعد الآخر لم تبلغ من الظلمة ما بلغه العصر الذى أرسل فيه النبى العربى . وكلهم قد لاقى شدائد وأهوالا — بيد أن محمدا قد لقى من صنوف الإيذاء والشدائد ما لم يلقه أحد من إخوانه ، وآضطلع بأعظم الأعباء، وآحتمل أكبر المسئوليات : ذلك بأن موسى عليه السلام قد أرسل لتحرير بنى إسراءيل . وجلِى أن المصريين فى عهده كانوا أولى ثقافة وحضارة: لهم فى العلوم والفنون قدم راسخة، وفى الأخلاق نصيب كبير، ومنهم طائفة تلمسوا الوقوف على أسرار الكائنات وآشتغلوا بضروب السحر والغيبيات وبرزوا فيها . وكذلك لما ظهر المسيح عليه السلام كانت الحضارة الرومانية بين الأمم كالحضارة الغربية الآن ، وكانوا على جانب عظيم فى صناعة الطب . نعم كان الرومان وثنيين ، وقوم عيسى موحدين فشا فيهم النفاق والانغماس

فى الرذائل ووقفوا عند صور العبادات : فكانت رسالة المسيح عليه السلام لإصلاح ما تأصل فى النفوس من ضروب الرذائل واتباع ما جاء به الرسل من قبله .

فإذا كانت هـذه الأسباب اقتضت ظهور موسى وعيسى عليهما السلام خلال القرن السادس للميلاد كانت توجب ظهور كثير من الأنبياء فى الأقطار المختلفة ، أو ظهور رسول واحد يقيم دين الله فى الأرض ويثبت دعائمه : لأن الشرائع الإلهية فى أطراف الأرض قد أغفلت ، وحدودها قد خولفت ، ووصل المستوى الخلق للعالم فى ذلك العصر إلى حال تنذر بشر مستطير كما ألمعنا إلى ذلك . وكانت الحال الروحية والدينية مخبوءة فى أطمار الظلمات : فقد جاءت النصرانية — كما تقدّم — لهدم الوثنية ومحوها فما لبثت أن ذهبت فريسة لها ، فكثر فى أيامها ألوان من الآراء الفلسفية الفاسدة طمت على الكتب المنزلة فى الشرق ، ونشأ عن ذلك أن الشعوب التى كانت تقطن البقاع الوسطى والشرقية من آسيا والقبائل التى كانت تسكن المكشوف من شمالى أوربة قد تمسكت بأهداب ضروب من الوثنية المرذولة ، وكذلك (كما دل الكشف الجغرافى فيما بعد) البلاد التى لم تكن معروفة وقتئذ . هذا إلى أن كثيرا من القبائل اليهودية لم تنج من عدوى الوثنية .

أما وقد أصاب الكتب السماوية ما أصابها من التحريف والتبديل وحجبت كلمات الله عن العقول البشرية فمن رحمة الله بعباده ألا يدعهم يتخبطون فى ديجور الضلالة ويتيهون فى بيداء الرذيلة ، وأن يجدّد لهم وحيه ويعيد لكلماته صفاءها وجمالها . وإلى ذلك يشير القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾. المنطق السليم ظاهر فى هذه الآية : لأنها تقص علينا أن السنة الإلهية العادلة قضت بأن الله يوالى على خلقه زمنا بعد آخر نوره وهدايته : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ ولذلك أنزل كتبه على أمم مختلفة فاتبعوا الهداية زمنا ، ثم فسقوا عنها ، فدب بينهم دبيب الخلاف فى العقائد والأحكام وصور العبادات . فكان لا بدّ أن يرسل إلى كل أمّة رسولا : ليفصل فيما بينها من الخلاف ، أو يرسل رسولا واحدا لجميع

الأمم يتولى الفصل بينهم : لأنهم ضلوا عن الحق ، وحادوا عن الصراط السوى .
وجاء فى القرآن الكريم أيضا : ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

الآية ناطقة بأمرين : الأول أن الشيطان زين لهم أعمالهم ، والثانى أن ما جاء به الرسل السابقون قد تفرق واختلف إلى حدّ عظيم . ولا أدل على أن الشيطان هو الذى زين لهم أعمالهم مما كان مستفيضا عندهم من قولهم : جدير بنا أن نفعل الشر لنصل إلى الخير .

دل تاريخ الأديان على أن الله بعث فى كل زمن رسولا حتى إذا عبثت يد الإنسان بما جاء به قفى عليه برسول آخر : لأن الدين الذى دخل فيه التحريف بالزيادة أو النقص غير صالح لسدّ حاجات بنى البشر على اختلاف الأزمان ، بل الذى يصلح لهم — وإن توالت الأجيال — هو الدين السماوى المحض : ذلك بأن الدين من صنع الله ، وكل شىء من صنع الله فى هذا الكون — على تقادم عهده — جديد طريف : فهذه البحار ، وهذه الشمس ، وهذا القمر ، وهذه النجوم ، والرياح ، كل أولئك قد تقادم عهدها ولا تزال وافية بحاجات الإنسان والحيوان والنبات . وعلى هذا القياس الدين : فإنه لما كان من عند الله كان شاملا لما يحتاج إليه الخلق على اختلاف الدهور والأحقاب ، ولا يقبل تبديلا ولا تنقيحا ، ولا يستطيع إنسان مهما بلغ من الفكر والعلم أن يعيده سيرته الأولى إن مسه التحريف . وإليك البرهان :

لا يستطيع البناء إنشاء منزل يركن إليه من أنقاض منزل تهدّم . وإن فعل فبناؤه واه لا يلبث أن يتداعى . فإذا تعذر على الإنسان أن يعيد بناء إنسان آخر إلى ما كان عليه من المتانة والجمال فأحر به أن يعجز عن بناء للإله قد تداعى وتهدم .

نرى الفاكهة تنضج ثم تعفن فتتفرّق أجزاؤها ، ثم تعود إلى حالها قبل التكوين ، ثم يحيلها الله مادّة أخرى ، أو يعيدها سيرتها الأولى : ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾

وليس فى مقدور الإنسان أن يعيد ثمرة من ثمار الفاكهة إلى ما كانت عليه قبل تفرّق أجزائها . فإذا كان الإنسان يعجز عن أن يعيد كائنًا بعد تفرّقه وتشتته فهو أعجز عن إعادة وحى الله إلى ما كان عليه إذا طرأ عليه الفساد والتغيير .

أما وقد بان أن الإنسان لا يستطيع أن يعيد بناء منزل تهدم بأنقاضه ، ولا يستطيع أن يعيد ثمرة من الفاكهة بعد تفرّق أجزائها فهو لا يستطيع أن يعيد دينا قد وهت قواعده ، وتمزقت أوصاله ، وتفرّقت كلمة أهله ، وطغى عليهم سيل الوثنية ، وانحطت درجتهم الخلقية والعقلية ، فأقبلوا على عبادة الأحجار والأشجار والرياح والأنهار والسحاب والشمس والقمر : ﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ ولم يقفوا عند ذلك ، بل عبدوا شهواتهم وأهواءهم بأسماء مختلفة ، وارتكبوا فى بيوت العبادة ألوان الفحش والمنكر .

بلغ من الفساد فى القرن السادس للميلاد أن أصبح لرؤساء الدين على الناس سلطان فى عقائدهم وما تكنه ضمائرهم : فلو قال الرئيس الكهنوتى لشخص : إنه ليس بمسيحى : صار كذلك ، ولو قال له : إنه مسيحى : فاز بها . فلم يكن أحد حرا فى معتقده ، يتصرف فى معارفه كما يرشده العقل السليم ، بل عين قلبه مشدودة بشفتى رئيسه .

حببوا إلى الناس التجرد من الدنيا والابتعاد عن كسبها : فقد جاء فى إنجيل متّا : (لا تقدرون أن تخدموا الله والمال : لذلك أقول لكم : لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون و بما تشربون ، ولا لأجسادكم بما تلبسون . الحق أقول لكم : إنه يعسر أن يدخل غنى ملكوت السموات) .

أفهموهم أن من الدين ما يجب الإيمان به ولو ناقض العقل : قال القديس أنسيلم : يجب أن تعتقد أوّلا ما يعرض على قلبك بدون نظر ، ثم اجتهد فى فهم ما اعتقدت .

صرفوا الناس عن الاشتغال بالشئون الكونية : فإذا نزعت العقول إلى علم شىء من العالم حال بينها رؤساء الدين خوفا من الزيغ عن الإيمان السليم فى رأيهم حتى

وقر فى نفوس الناس أن السلامة فى ترك الفكر والأخذ بالتسليم ، وتقررت عندهم قاعدة " إن الجهالة أم التقوى " .

حورب العلم : فأحرقت كتب البطالسة والمصريين بالإسكندرية على عهد جول قيصر ، وآنتحل تيوفيل بطريرك الإسكندرية أوهى الأسباب لإحداث ثورة فى المدينة تذرع بها إلى إتلاف ما بقى فى مكتبة البطالسة : بعضه بالإحراق، وبعضه بالتبديد .

جعل بعض رؤساء الدين فى القرن السادس لأنفسهم سلطانا إلهيا "تيوكراتيت"، وأفهموا العامة أن الواحد منهم يتلقى الشريعة عن الله، وله حق الأثرة بالتشريع، وله فى رقاب الناس حق الطاعة ـ لا بالبينة وما تقتضيه من العدل وحماية البيضة ـ بل بمقتضى الإيمان : فليس للؤمن ما دام مؤمنا أن يخالفه وإن اعتقد أنه عدو لله، وشهدت عيناه من أعماله ما لا ينطبق على ما يعرفه من شرائع : لأن عمل صاحب السلطان الدينى وقوله فى أى مظهر ظهراهما دين وشرع .

مما تقدم يتبين أن حال العالم أجمع كانت تستدعى صيحة لإزعاج الغافلين وتنبيه الرؤساء الظالمين إلى ما هم عليه من العسف والجور : فقد ظهر أن دولة الفرس فى الشرق ودولة الرومان فى الغرب قبيل ظهور الإسلام كانتا فى تنازع وتجالد مستمر : دماء بين العالمين مسفوكة، وقوى منهوكة . وبلغ السلاطين والأمراء والقوّاد ورؤساء الأديان فى الترف والإسراف والإعجاب حدّا لا مزيد عليه فوق ما أثقلوا به ظهور الرعية من الضرائب والإتاوات وغيرها من المطالب المتجدّدة، وسلطوا بذلك الأقوياء على الضعفاء ، فآختطفوا ما فى أيديهم، وبخروهم فى أغراضهم ، فآستولت عليهم ضروب من الفقر والذل والاستكانة والخوف والآضطراب لفقد الأمن على الأرواح والأموال .

من أجل ذلك كان من الرحمة أن بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم ، فأقام التوحيد فى الأرض، وأسسه على أسس متينة : بعثه لإصلاح العقائد التى فسدت، فبين أن المسيح روح الله وكلمته ورسوله إلى بنى إسراءيل : بعث مصدّقا لما بين

يديه من التوراة ، وجاءهم من الدين بما فيه هدى لهم ورشاد فى شئون معاشهم ومعادهم، ولم يطالبهم بتعطيل قوة من قواهم التى منحهم الله تعالى إياها ، بل طالبهم بشكر الله تعالى عليها، ولا يشكر حق الشكر إلا باستعمالها جميعا فيما أعدها الله له ،وأن العقل من أجل القوى، بل هو قوة القوى الإنسانية وعمادها، والكون صحيفته التى ينظر فيها وكتابه الذى يتلوه . وكل ما يقرأ فيه فهو هدايته إلى الله وسبيل الوصول إليه .

جاء محمد عليه الصلاة والسلام ليعلن أن الدين دين الله ، وهو دين واحد فى الأولين والآخرين لا تختلف إلا صوره ومظاهره ، وأما روحه وحقيقته مما طولب به العالمون على ألسن الأنبياء والمرسلين فهو لا يتغير : إيمان بالله وحده ، وإخلاص له فى العبادة ، ومعاونة الناس بعضهم بعضا فى الخير ، وكف أذاهم بعضهم عن بعض ما قدروا .

جاء ليطلق العقل البشرى من أغلاله فيجرى فى سبيله التى سنته له الفطرة بدون تقييد ، فنبهه إلى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، وما كان عليه الأمر فى أول خلق السموات والأرض : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا ، وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ﴾ إلى غير ذلك من الآيات البينات .

جاء محمد صلى الله عليه وسلم بصفة بشرية يطالب الناس بالإيمان بالله وحده غير معتمد على شيء سوى الدليل العقلى والفكر الإنسانى : فلم يدهش قومه بخوارق العادات ، ولا غشى أبصارهم بأطوار غير معتادة ، ولا أخرس ألسنتهم بقارعة سماوية . حقا جاءهم بالقرآن وهو معجزة عظمى تدل على أن موحيه هو الله وحده وليس من اختراع البشر ، وكان الدليل على ذلك أنه جاء على لسان أمى لم يتعلم

الكتابة ، ولم يمارس العلوم، وهو كافل بنظام عام لحياة من يهتدى به من الأمم ، منقذ لها من خسران كانوا فيه ، وهلاك أشرفوا عليه ، دعا الناس إلى النظر فيه بعقولهم، وطالبهم بأن يأتوا فى نظرهم على آخر ما تنتهى إليه قوتهم : فإن وجدوا طريقا لإبطال إعجازه ، أو كونه لا يصلح دليلا على النبوة والرسالة فعليهم الإتيان بمثله : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ﴾ ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ فهو معجزة عرضت على العقل، وأطلقت له حق النظر فى أحنائها ونشر ما انطوى فى أثنائها، وهو معجزة أعجزت كل طوق أن يأتى بمثلها ، ودعت كل قدرة أن تتناول ما تشاء منها .

جاء محمد صلى الله عليه وسلم لتوجيه الأنظار إلى العبرة بسنة الله فيمن مضى ومن حضر من البشر وفى آثار سيرهم فيهم : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ ﴿ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ .

جاء محمد عليه الصلاة والسلام لهدم سلطان الرؤساء الذين خنقوا الحرية والفكر : فلم يدع لأحد بعد الله ورسوله سلطانا على عقيدة أحد ولا سيطرة على إيمانه ، ولم يجعل لأحد من أهل الدين أن يحل ولا أن يربط لا فى الأرض ولا فى السماء، ورفع كل رق إلا العبودية لله وحده ، ولم يجعل لمسلم على آخر مهما انحطت منزلته إلا حق النصيحة والإرشاد : ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وقرر أيضا أن ليس هناك سلطان دينى سوى سلطان الموعظة الحسنة والدعوة إلى الخير والتنفير من الشر ، وهو سلطان خوله الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم، كما خولها أعلاهم يتناول بها أدناهم، وقرر أيضا أن الناس إنما يتفاضلون بصفاء العقل وكثرة الإصابة فى الحكم ، وأن الرئيس مطاع ما دام على المحجة ونهج

الكتاب والسنة ، والمسلمون له بالمرصاد : فإذا انحرف عن النهج أقاموه عليه ، وإذا اعوج قوموه بالنصيحة والإعذار إليه ، وأنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، وأنه متى فارق الكتاب والسنة فى عمله وجب استبدال غيره به ما لم يكن فى استبداله مفسدة تفوق المصلحة فيه .

بين محمد صلى الله عليه وسلم للأمم ما اختلفت عليه عقولهم وشهواتهم، وتنازعت مصالحهم ولذاتهم ، وكشف لهم سر المحبة ، واسترعى نظرهم إلى ما فيها من انتظام شمل الجماعة، وأوضح لهم مزايا أن قويهم يعين ضعيفهم، وغنيهم يمد فقيرهم، وراشدهم يهدى ضالهم، وعالمهم يعلم جاهلهم .

اطمأنت النفوس بما جاء به، وثلجت الصدور، واعتصم المرزوء بالصبر : انتظارا لجزيل الأجر، أو إرضاء لمن بيده الأمر . فحل بهذا أعظم مشكل فى المجتمع الإنسانى لا يزال المفكرون يجهدون أنفسهم فى حله إلى اليوم .

جاء بدين أزال الحواجز التى أقامها رؤساء الأديان السابقون ليحولوا بين الناس وما ميزها الله به من الاستعداد للعلم بحقائق الكائنات الممكنة ، ثم حثها على طلب العرفان ، وطالبها باحترام البرهان ، وفرض عليها أن تضاعف الجهد فى استكناه ما فى العوالم من سنن وأسرار .

لا جرم أن حضارة هذا العصر صائرة إلى ما صارت إليه الحضارات الغابرة ، وحينئذاك يتلمس أهلها نورا يخرجون به من حيرتهم وظلمتهم فلا يجدون سوى دين محمد صلى الله عليه وسلم . ومن أجل ذلك وجب على المسلمين أن يوالوا خدمة هذا الدين : بتجريده مما دخل فيه باسم الدين وهو براء منه ، وبالعكوف على دراسة العلوم الكونية دراسة تعلى دين الإسلام وأهله .

---

*

الباب الرابع

مراحل حصول النبوّة وٱستقرارها

أما مراحل حصولها فهى ما يلى :

(١) قضت سنة الله فى خلقه أن يجعل لكل مقدور من الأمور إذا قرب نذيرا و بشيرا : إيقاظا للعقول ، وٱزدجارا للجهول ، و إعداد النفوس لأمور إن فوجئت بها لم تستطع دفع خطبها ، ولم تقدر على كل صعابها . من أجل ذلك لما دنت بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم انتشر فى الأمم أن الله تعالى سيبعث نبيا فى هذا الزمان ، وأن ظهوره قد قرب وآن . فكانت كل أمة لها كتاب تعرف ذلك من كتابها ، والتى لا كتاب لها ترى من الآيات المنذرة ما تستدل عليه بعقولها وتنتبه إليه بهواجس نظرها .

كل ذلك و رسول الله صلى الله عليه وسلم غير عالم أنه مراد بها حتى نودى ثم نوجى . فكان بهذا أبعد من التهمة ، وأسلم من الظنة ، وكان برهانه أظهر ، وحججه أقهر . وكان صلى الله عليه وسلم — وهذه حاله — متميزا عن قومه وعشرائه : بشرف أخلاقه ، وكرم طباعه ، لم يعبد معهم صنما ، ولا عظم وثنا ، وكان متدينا بفرائض العقول : من توحيد الله وقدمه ، وحدوث العالم وفنائه ، وشكر المنعم ، وتحريم الظلم ، ووجوب الإنصاف ، وأداء الأمانة .

(٢) ولما دنا وقت النبوّة حبب إليه الخلاء ليكون متهيئا لما قدّر له ، ومتأهبا لما أريد له . فكان يتخلى فى غار حراء شهرا فى السنة . وكان يؤتى بطعامه وشرابه فيأكل منه و يطعم المساكين وهو غير شاعر بالنبوّة و إن علمها أهل الكتاب حقا . و بذلك حفظه الله من تصنعها أو اختراعها . ولو تصنع أو اخترع لظهرت

أسبابهما ونمت شواهدهما ، ولم يخف على من عاداه أن يتـداوله ، وعلى من والاه أن يتأوله .

ولم يزل صلى الله عليـه وسلم على خلوته إلى أن أظهـر الله له أمارات نبوّته . فبشره بها بعـد أن تأهب لها، وآستعدّ لتحمل أثقالها والاستقلال بحقوقها : لطفا من الله به، وإنعاما عليه، وداعيا لأمته صلى الله عليه وسلم والانقياد إليه .

(٣) ثم تتابعت الرؤى الصادقة فى منامه صلى الله عليه وسلم بمـا سيئول إليه أمره . حتى إذا حل وقت قيامه بالدعوة قام بها ، وهوَ عليهـا قوى ، وبها ملى : روى الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : أوّل ما آبتدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصادقة : كانت تجىء مثل فلق الصبح حتى فجاه الحق .

(٤) ثم تلا هـذا أنه لبث ثلاث سنين يسمع حس الملك ولا يرى شخصه، ويعلمه الشىء بعد الشىء ولا ينزل عليه بالقرآن ، فكان فى هذه المدّة مبشرا بالنبوة غير مبعوث إلى الأمة . وحكمة ذلك إمداد الرسول بالمعونة الإلهية : ليتحمل الوحى وأعباءه ، فيكون فيما بعد على البلوى أصبر، وللنعمة أشكر .

(٥) ثم نزل عليه جبريل عليه السلام بوحى ربه حتى رأى شخصه ، وسمع مناجاته : فأخبره أنه نبى الله ورسوله . وآقتصر به على الإخبار ولم يأمره بالإنذار: لتكون نفسه بنبوّته أوثق، وعلمه بها أصدق . فلا يعترضه وهم، ولا يخالجه ريب : تأمل ما رواه الزهرى عن عائشـة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم لمـا فجاه الحق أتاه جبريل عليه السـلام فقال : يا محمد : أنت رسـول الله . قال رسول الله صلى‌الله عليه وسلم : فجثوت بركبتى وأنا قائم، ثم رجعت ترجف بوادرى ، ثم دخلت على خديجـة فقلت : زملونى زملونى حتى ذهب عنى الروع ، ثم أتانى فقال : يا محمد : أنا جبريل وأنت رسـول الله ، ثم قال : اقرأ . قلت : ما أقرأ ؟ قال : فأخذنى فغطنى ثلاث مرات حتى بلغ منى الجهـد، وقال : اقرأ بآسم ربك الذى خلق . فأتيت خديجة فقلت لها : لقد أشفقت على نفسى فأخبرتها خبرى .

فقالت : أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا : إنك تصل الرحم، وتصدق الحديث ، وتؤدى الأمانة، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق . ثم انطلقت بى إلى ورقة بن نوفل وكان ابن عمها وقالت : اسمع من ابن أخيك . فسألنى ، فأخبرته خبرى . فقال : هذا الناموس الذى نزل على موسى عليه السلام : يعنى جبريل عليه السلام . ليتنى أكون حيا حين يخرجك قومك . قلت : أو مخرجى هم ؟ قال : نعم . إنه لم يجئ رجل قط بما جئت به إلا عودى ، ولئن يدركنى يومك لأنصرنك نصرا مؤزرا . ثم كان أول ما نزل عليه من القرآن بعد ﴿اقرأ﴾ : ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ . مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ . وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ . وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ ونزل عليه ذلك: ليزداد صلى الله عليه وسلم ثباتا، وبنفسه استبصارا، ولنعمة ربه شكرا، وليعلم أن الله تعالى قد اصطفاه بالنبوة، فينقطع إليه، ويقف نفسه على ما يؤمر به . فيكون لأوامر الله تعالى متبعا، ولما يراد به متوقعا. واقتصر الإذن له على الإخبار، ولم يؤذن له فى الإنذار، وفى ذلك جاء قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ فكان النبى صلى الله عليه وسلم يذكر النبوة مستسرا .

(٦) ثم أمر بعد إذنه بالإخبار بالإنذار ، فصار به رسولا . ونزل عليه القرآن بالأمر والنهى فأصبح بذلك مبعوثا، ولم يؤمر بالجهر وعموم الإنذار: ليختص بمن آمنه، ويتقوى بمن أجابه . وفى ذلك نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ. وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ. وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ. وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ. وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ. وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ وبذلك تمت نبوته بالوحى والإنذار، وإن كان على استسرار . ثم تتابع الناس فى الإسلام ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم على استسراره بالدعاء وإن انتشرت دعوته فى قريش .

(٧) ثم أمر صلى الله عليه وسلم بأن يعم بالإنذار بعد خصوصه ، ويجهر بالدعاء إلى الإسلام بعد استسراره . فأنزل الله تعالى عليه : ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ فجهر بالدعاء وذلك بعد ثلاث سنين من مبعثه . وقد

اقتضت حكمة الله أن يأمره بالبـدء بعشيرته الأقربين ، فقال تعـالى : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ . وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ولذلك لمـا نزلت صعد رسول الله صلى الله عليـه وسلم الصفا فهتف : يا بنى عبـد المطلب ، يا بنى عبد مناف ، حتى ذكر الأقرب فالأقرب من قبائل قريش ، فاجتمعوا إليه وقالوا : مالك؟ قال : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيـلا تخرج من سفح هـذا الجبل أما كنتم تصدّقونى؟ قالوا : بلى: ما جربنا عليك كذبا . قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد . فقال أبو لهب تبا لك . ألهذا جمعتنا ؟ ثم قام فأنزل الله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ إلى آخر السورة .

لم يكن من قريش فى دعائه لهم مباعدة له ، ولكن ردّوا عليـه بعض الردّ حتى ذكر آلهتهم ، وعابها ، وسفه أحلامهم فى عبادتها . فلما فعل ذلك أجمعوا على خلافه ، وتظاهروا بعدوانه إلا من عصمه الله تعالى منهم بالإسلام ، وهم قليل مضطهدون . فصار بعموم الإنذار والجهر بالدعاء إلى التوحيد والإسلام عام النبوة مبعوثا إلى الأمة جميعها . فكمل الله بذلك نبـوّته ، وتمم به رسالته . فصـدع بأمره ، وقام بحقه ، وجاهر بإنذاره ، وعمّ بدعائه ، وجاهد فى الله حق جهاده ، حتى خصم قريشا حين جادلوه ، وصابرهم حين عاندوه — وجمهم غفير ، وجمعهم كثير — إلى أن علت كلمته . وظهرت دعوته ، ولاقى من الشـدائد ما لا يثبت عليها إلا معصوم ، ولا يسلم منها إلا منصور .

كل هذه آيات تنذر بالحق ، وتلائم الصدق : لأن الله لا يهدى كيد الخائنين ، ولا يصلح عمل المفسدين .

(٨) ثم شرع مدّة إقامتـه بمكة الطهارة والصـلاة حين علمه جبريل الوضوء والصلاة ، وكانت فرضا عليه ، وسـنة لأمته ، إلى أن فرضت الصلوات الخمس بعد إسرائه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى . وذلك فى السنة التاسعة من نبوّته . فصارت الصلوات الخمس فرضا عليه وعلى أمته . ولم يفرض ما سواها من العبادات حتى هاجر إلى المدينة ، وصارت له بالإسلام دارا ، وصار أهلها أنصارا . أما فى المدينة

فقد فرض صوم شهر رمضان فى السنة الثانيـة من الهجرة فى شعبان، وفيها حولت القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة، وفرض فيها زكاة الفطر، وشرعت فيها صلاة العيد، ثم فرضت زكاة الأموال بعد ظهور القوة وسد الخلة، ثم الحج والعمرة .

وأما الأحكام فما أوجبته قضايا العقول — من تحريم القتل والزنا — كان مشروعا بمكة قبل ظهور إنذاره ، وما تردّد فى قضايا العقول بين فعله وتركه كف عن الحكم فيه بتحليل أو تحريم أو حظر أو إباحة أو استحباب أو كراهة : فلم يحلل بمكة حلالا ولا حرم بها حراما حتى هاجر منها ، فحلل بعد الهجرة وحرم ، وأباح وحظر : لأنه كان بمكة مغلوبا باستيلاء قريش عليها، وكانت دار شرك لا تنفذ فيها أحكامه، فلم يحلل ولم يحرم حتى صار بالمدينـة فى دار إسلام تنفذ فيها أحكامه . فبين ما حلل وحرم . وبين ما أباح وحظر . ولذلك كان بمكة مسالما ، وبالمدينـة محاربا ، فكانت الحكمة موافقة لأفعاله ، والتوفيق معاضدا لأقواله ، ولا غرابة : فقد قال تعالى : ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ . لكن لحسن قيامه بها وموافقة الصواب فى مواضعها، تظهر آثار حكمته فى صحة حزمه وصدق عزمه صلى الله عليه وسلم .

*

*

الباب الخامس

الأدلة القاطعة على صدق نبوّته صلى الله عليه وسلم

نشأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أوحد الناس عفة، وأشرفهم قصدا، وأحكمهم كلاما، وأصدقهم حديثا، وأسماهم أمانة وسيرة. قد جمع كل خلال الخير: من الحلم والصبر والمروءة والشكر والعدل والنزاهة والتواضع والشجاعة والحياء والجود حتى كان له من كل هذا قوة تخر أمامها شم الرواسي، ونور ساطع سار فى ضوئه الدانى والقاصى، ودليل قاطع على صدق نبوّته، وحجة دامغة على صحة رسالته، وأنه خاتم النبيين، وإمام المؤمنين، أرسله الله للناس جميعا بشيرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا.

وإليك الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة على صدق نبوّته وإثبات رسالته قد استخلصتها من صحيح سيرته صلى الله عليه وسلم. وهى نوعان:

عقلية: يدركها ذوو البصائر، ويقرّها أولو الألباب.

وحسية: أجراها الحكيم العليم على يد مجتباه تحديا لمعارضيه وتأييدا لما جاء به.

(ا) الأدلة العقلية

(١) احتماله صنوف الأذى

من تمثل فى ذهنه ثبات المصطفى صلى الله عليه وسلم واحتماله صنوف الأذى من كفار قريش وغيرهم لا يداخله الريب فى أنه صادق فى أمره، مستيقن من نفسه، مبرأ من سمات المرتابين ومخايل المفترين قبل بعثته.

(٢) اشتهاره بمكارم الأخلاق فى نشأته

عرف صلى الله عليه وسلم بين قومه قبل رسالته بجميع الخصال السنية والصفات الكريمة حتى سمى بالأمين، ولم يجرب عليه قومه كذبة، أو عرفوا عنه زلة أو هفوة. ولو عرفوا شيئا من ذلك ما وسعه أن يسفه أحلامهم، ويسب آلهتهم غير خائف مما يخجله : فإن الكذب يحط من قدر الإنسان فى نفسه وعند غيره. على أن الكذاب لا يمكن أن يكون مصدرا للكمال مرشدا إلى سنى الخصال.

أضف إلى ذلك أنه أنذر بلسان القرآن الكريم الكاذبين بالوعيد الشديد. ولا يقع ذلك إلا من صادق امتلأ قلبه وفاضت نفسه بما يخبر به إلى حد يفوق الوصف، ويخرج عن نطاق البيان.

على أن الذين عاشروه قد شاهدوا فى كلامه وحركاته وأفعاله ما ملأ قلوبهم يقينا بأنه صادق جاء يخبر عن ربه بوحيه : ومن ذلك أن بعض الأعراب أسلم حين رآه، وقال : « والله ما هذا الوجه بوجه كذاب ».

لم يعرف فى السنن الإلهية أن الله يؤيد فى دعوى النبوة كاذبا، أو ينصر مبطلا : ففى ذلك الضرر العظيم. وقد قال المسيح عليه السلام : « سيظهر بعدى أنبياء كذبة » فقيل : ما علامتهم؟ فقال : « علامتهم أن الله لا يؤيدهم ».

وقد شهد الأعداء أن محمدا عليه الصلاة والسلام أوتى من النصر ما لم يؤته أحد من قبله ولا من بعده. فمن ظن أن الله نصره وأيده مع كونه مبطلا فقد جهل ما يليق بصفات الله تعالى وسنته فى خلقه، وأساء الظن بعدالته وحكمته إساءة كبرى. هل يستطيع الكاذب أن يخفى حاله طيلة حياته على الناس عامتهم وخاصتهم ؟ كلا : فإن الرياء طلاء كاذب لا يلبث أن تقضى عليه حوادث الأيام، وبخاصة إذا كان لصاحبه أعداء يحصون هفواته وسقطاته.

لا يستطيع كاذب أن يخاطب اليهود — والتوراةُ بين أيديهم — بقوله على لسان القرآن : ﴿ يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ ثم يوبخهم ويقرعهم بأنه

يجدونه فيها، وأنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم . وليس من المتصوَّر أن يجترئ على ذلك وهو يعلم كذب نفسه . والكاذب ضعيف حتى عند نفسه .

جلى أن الصدق يصاحب الخير والبر، والكذب يساير الفجور والشر . ولهذا لما كانت خديجة رضى الله عنها تعلم من النبي صلى الله عليه وسلم أنه الصادق البار قالت له — حين جاءه الوحى وقال لها : إنى خشيت على نفسى — : والله لا يخزيك الله أبدا : إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَل، وتقرى الضيف، وتكسب المعدم، وتعين على نوائب الحق .

ومعنى هذا أن من تجمعت فيه هذه الخلال المحمودة فالله لا يخزيه أبدا، وهو نبى حقا . ألم تر إلى ما قاله هرقل لأبى سفيان وصحبه وكان كافرا إذ ذاك : هل كنتم تتهمون محمدا بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فقالوا : لا . ما جربنا عليه كذبا . فقال لهم هرقل : إنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يكذب على الله . وغرض هرقل أنه إذا لم يكن من خلقه الكذب، ولم يعرف عنه إلا الصدق، وهو يتورّع أن يكذب على الناس فإن تورّعه عن أن يكذب على الله أولى وأحق .

من تأمل ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وضح له أن مثل هذا لا يصدر إلا من أعلم الناس وأصدقهم وأبرهم، وأنه يستحيل صدوره عن متعمد للكذب مفتر على الله أو خاطئ جاهل يظن أن الله أرسله ولم يرسله : ذلك بأنه جاء بإصلاح وهدى ورحمة و إرشاد للخلق إلى ما ينفعهم ليتبعوه، وما يضرهم ليجتنبوه . فكانت حاله فى بث رسالته ناطقة بأنه راحم بار .

هذا إلى أن ما وصفه بأنه حق أو باطل ومعروف أو منكر مسلم به عند أهل الفطرة السليمة والعقل الصحيح : وقد وضح لمن عاشروه ولمن بلغتهم دعوته أنه أعلم منهم بحقيقة المعروف والمنكر، وأنه أنصح الخلق للخلق، وأبر الناس بالناس، وأصدقهم فيما يقول، وأقومهم فيما يفعل .

(٣) شدّة خوفه من عظمة ربه ونسبته كل شيء إليه

ذلك بأن المصطفى عليه الصلاة والسلام ظل طول حياته يراقب الله، ويخشاه في جميع الأمور : فإذا جاءه أمر يحبه قال : الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وإذا أتاه أمر يكرهه قال : الحمد لله على كل حال، وإن قصد فعل شيء قال : اللهم خِرْ لِي وآختر لِي ، وإن أراد سفرا قال : اللهم بك أصول وبك أجول ، وإن أراد نوما قال : اللهم باسمك وضعت جنبي وباسمك أرفعه ، وإن استيقظ قال : الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور ، وإن لبس ثوبا جديدا قال : الحمد لله الذي رزقني ما أتجمل به في حياتي، وإن أكل قال : الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا من المسلمين، وإن شرب قال : الحمد لله الذي جعل الماء عذبا فراتا برحمته ولم يجعله ملحا أجاجا بذنوبنا ، وإذا أفطر قال : الحمد لله الذي أعانني فصمت ورزقني فأفطرت ، وإذا انقلب من الليل في فراشه قال : لا إله إلا الله الواحد القهار رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار، وإذا هب من نومه ليلا قال: رب آغفر وآرحم وآهد للسبيل الأقوم، وإذا خاف قوما قال : اللهم إنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم ، وإذا رفع بصره إلى السماء قال : يا مصرف القلوب : ثبت قلبي على طاعتك، وإذا حلف قال: والذي نفس محمد بيده ، وإذا أصابه هم قال : حسبي الخالق من المخلوقين ، حسبي الرازق من المرزوقين، حسبي الذي هو حسبي، حسبي الله ونعم الوكيل .

من ذلك يتبين أنه صلى الله عليه وسلم كان في جميع شئونه لا ينظر إلا إلى الله، ولا يستمد المعونة إلا من الله، ولا يرى لنفسه ولا لغيره حولا ولا قوة . ولا غرو: فمحمد صلى الله عليه وسلم خير أسوة .

(٤) انتشار الإسلام بسرعة

انتشار الإسلام بما لم يسبق له مثيل في أقل من قرن آية كبرى على صدق نبوته وصحتها: فقد رحبت به القلوب، وتسابقت إليه النفوس، وعم نوره الأرجاء،

وعقد شعاعه الشمال بالجنوب، والشرق بالغرب. فأصبح لدولة العرب قدم فى الهند، وأخرى فى الأندلس، وانتفع العالم دهورا كثيرة بما فى الإسلام من النبل والبأس والنجدة والحق والهدى والمدنية الصحيحة حتى نعته الغربيون بأنه أستاذ المدنية فى أوربة.

(٥) حرصه على هداية الخلق ومغامرته بنفسه وأهله

حسبك شاهدا على ذلك ما لاقاه من كفار قريش بمكة، وما كان يلاقيه عند عرضه نفسه على القبائل، وما أوذى به حينما ذهب إلى أهل الطائف يدعوهم إلى الله: فقد خضبوا نعليه بالدماء، وأغروا به سفهاءهم. وما زاد على أن قال: اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس إلى أن قال: إن لم تكن غضبان علىّ فلا أبالى.

لا ريب فى أن هذا دليل واضح على أن الدعوة ملكت عليه حواسه وقلبه، فهان معها ما لقيه من التأنيب والتكذيب والإيذاء والإرهاب. ومحال عقلا أن يصبر داع على مثل هذه الأهوال إن كان شاكا فى أمره، أو مرتابا فى صدق دعوته.

(٦) إخباره بالمغيبات

أخبر صلى الله عليه وسلم بالأمور الغيبية على لسان القرآن وهو المعجزة العظمى: فمن ذلك قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾. وقد تحقق هذا الوعد. وقوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ وقوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ وقوله: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾. فكان كل ما أخبر به على أتم وجوهه وأبلغ معانيه.

ومن هذا الباب إخباره عن مكنون الضمائر ومخبوء النفوس بلسان القرآن أيضا مثل قوله: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ وقوله: ﴿إِذْ هَمَّت

طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا ﴾ وقد وضح لمعاشريه أنه كلما زادت أخباره ظهر صدقه، وكلما قويت مباشرته وامتحانه تجلى صدقه .

أضف إلى ذلك أن الأمة التى نشأ بينها كانت وقت بعثته من أبعد الأمم عن توحيد الله سبحانه وتعالى ومن أعظمها إشراكا به ، وأن من تدبر القرآن والتوراة وجدهما متفقين فى المقاصد الكلية : من التوحيد والنبوات وغيرهما مما يؤيد ما قاله النجاشى : « إن هذا والذى جاء به موسى ليخرجان من مشكاة واحدة » وما قاله ورقة بن نوفل : « إن هذا هو الناموس الذى كان ينزل على موسى عليه السلام » . وإلى هذا يشير قوله تعالى : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ .

أليس من البراهين القوية على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أنه كان أميا نشأ بين قوم أميين ، ثم أخبر بمثل ما أخبرت به الأنبياء من الشئون الغيبية دون أن يتعلم من بشر؟ وفى هذا يقول القرآن الكريم : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ .

ومن أجل ذلك أقر له علماء أهل الكتاب بصدق ما جاء به كما قال القرآن الحكيم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴾ .

(٧) اهتمامه بسعادة أمته

اهتم بدعوة الناس إلى ما يسعدهم فى دينهم ودنياهم حتى قال الله تعالى له : ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ ، واشتد حرصه على هدايتهم إلى مكارم الأخلاق وتعليمهم القوانين العادلة والشريعة الفاضلة التى رفعت أهلها إلى أوج

العزة والرفعة أيام كانوا متمسكين بها . ولا يسوغ فى نظر العلم والعقل أن النفس التى تكاد تهلك حرصا على إسعاد غيرها تكون نفسا كاذبة ، بل لا بد أن تكون متعلقة بالملأ الأعلى، راسخة فى صفات الكمال ونعوت الرفعة والجلال .

(٨) تجرد نفسه من الحظوظ البشرية

ألا ترى أنه لما شج وجهه فى يوم أحد وكسرت رباعيته وحل به ما يذهب بلب الحليم ورشد الحكيم لم يزد على أن اعتذر لهم على ما فعلوا : فقال : اللهم آغفر لقومى فإنهم لا يعلمون؟ وبهذا استحق أن يقول الله فى حقه : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ .

(٩) فرط حثه على تطهير النفوس من الأرجاس الطبعية البشرية وأوحال الشهوات البهمية وآتخاذه أنجع الوسائل لتحقيق غرضه

ومثل هذا لا يصدر إلا عن نفس قدسية وروح ملكوتية قد تخلصت من قيود الأهواء، وتحررت من عبودية الشهرة الشخصية، وآستمدت من النور الإلهى والهداية الصمدانية . ولقد اجتمع كل ذلك فى محمد صلى الله عليه وسلم : إذ ظل طول حياته راسخ المبدأ ، صادق العزم ، بعيد الهمة، كريما برا، رءوفا تقيا، فاضلا مخلصا، شديد الجد، سهل الجانب، جم البشر والطلاقة، حميد العشرة حلو الإيناس، وقد يمازح ويداعب ولا يقول إلا حقا، شهم الفؤاد، يفيض النور من جوانبه، ولم تثقفه مدرسة، ولم يهذبه معلم .

(١٠) وصفه أمراض المجتمع ودواءه

أعطى محمد صلى الله عليه وسلم من العلم بأحوال الإنسان وشئونه ما لا يحده الوصف : فرسم لكل طريقا تناسبه ، وعلمه كيف يعامل الله معاملة يرقى بها إحساسه، ويصفو بها قلبه ، وهداه إلى معاملته لأسرته معاملة تستقيم بها حاله

وينعم بها عيشه، ودله على معاملة الناس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ومعتقداتهم معاملة يعيش بها هادئا مطمئنا فيما بينهم .

(١١) عجز العرب عن معارضة القرآن الذى أنزل عليه

كان العرب أمراء الفصاحة والبلاغة ، وما كان أحرصهم على تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم وإخفاء أمره : لأنه سفه أحلامهم، ونكس أصنامهم، وشدد فى توبيخهم وتأنيبهم : إذ قال لهم بلسان القرآن : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ . وإذ قال لليهود : ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ يريد الموت . فلم يستطيعوا أن يتمنوه حتى بألسنتهم مع شدة حرصهم على تكذيبه .

وإذ عجز العرب عن معارضته وقامت عليهم الحجة فهى قائمة على غيرهم : كما قامت حجة عيسى عليه السلام بإبراء الأكمه والأبرص على الأطباء وغيرهم، وكما قامت حجة موسى عليه السلام بقلب العصا حية على السحرة وغيرهم : لأن عجز الجماعات الإنسانية وهم متعاونون أفرادا وجماعات عن معارضة أعمال جاءت على أيدى بشر مثلهم وهم أفراد لا معين لهم دليل على أن ما جاء به هؤلاء الأفراد من عند الله ليس فى طوق البشر الإتيان بمثله . ولا عجب : فقد وجد المنصفون من العرب وغيرهم أن القرآن الكريم صادر من مشكاة سماوية وعين قدسية، وأنه كتاب يدعو لعبادة الله وتقديسه ، وينوه بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم ، ويدل على طرقها، ويرقى الإحساس، ويرفع النفوس ، ويأمرنا ألا نخاف إلا الله . ولا نرجو إلا الرحمن منقذا لنا من رق الشهوات واستعباد الأوهام، وليس أدل على صدق من نزل عليه وعظم يقينه من قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ .

لما سمع العرب القرآن الكريم اختلفوا فى أمره : فمنهم من ظهر له أن هذا القرآن بلغ مرتبة فى الفصاحة والبلاغة لا تدركها القوى البشرية ، وأن فيه خواص

كاملة لا يمكن عند العقل اجتماعها فى مجموع كلام مهما تأنق فيه واضعه، واتسع اطلاعه على الماضى والحاضر والمستقبل وعلى أحوال الأمم فى مختلف شئونها و إن أحاط بجميع الفنون والآداب والحكم والسياسات ، وتحرى فيه عدم التضارب والتناقض . كل ذلك مع الانفراد عن الأساليب المعهودة عند العرب . ولا غرابة : فقد رأوا اتساع مجاله فى كل فن : من أخبار وحكم ، ومواعظ وأمثال، وأخلاق وآداب،وترغيب وترهيب، ومدح الأخيار وذم الفجار، والتحذير من قبائح السجايا ومواقع الدنايا ، وتدبير السياسات ومدافعة الأعداء ، ومجادلة الخصوم و إقامة البراهين على وجود الله تعالى ووحدانيته وعلى الحشر والنشر ووصف عالم السموات وما فيها من الكواكب والأمطار والسحائب ووصف الأرض وجبالها وسهولها و بحارها وينابيعها وأنهارها وما اشتملت عليه من حيوان ونبات ومعادن .

و جملة القول أنهم شاهدوا أن القرآن الكريم لم يدع علما من علوم الأولين والآخرين إلا صرح به ، أو أشار إليه بأساليب متنوعة وطرائق مبتدعة ، لم يقع فيه تناقض ولم يتخلله تضارب مع انفراده بأسلوب ليس له مثال يحتذى ، ولا إمام يقتدى به : فلا هو من ضرب القصائد العربية، ولا من الأراجيز البدوية،ولا من الخطب القسية . ومع هذا فقد وجدوه فى عقولهم مستحسنا ، وفى نفوسهم مستملحا، وفى أذواقهم مستعذبا ، ولأسماعهم مألوفا : كلما تكرر حلا .

ومن أجل ذلك أوضح لهم العقل السليم أن تلك الصفات الباهرة لا تجتمع فى كلام اتفاقا ومصادفة . فإتيان محمد عليه الصلاة والسلام به وهو أمى أكبر دليل على أنه من عند الله تعالى، أرسله به ليكون معجزة له .

ومن العرب طائفة لم يكونوا من أصحاب الفصاحة والبلاغة ولم يكن عندهم قوة النظر والإحاطة بالصفات التى اشتمل عليها القرآن ودل اجتماعها فيه على أنه ليس من مصنوعات البشر ــ غير أنهم لما رأوا النبي صلى الله عليه وسلم ادعى الرسالة من عند الله، وأن هذا القرآن كلامه، وأنه تحدى أهل الفصاحة والبلاغة بأقصر سورة منه، وقرر عجزهم بلسان القرآن : إذ يقول الله تعالى ــ كما تقدم ــ : ﴿ فَإِنْ

لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾، وأنه يقرعهم بقصورهم بمرأى منهم و بمسمع، وأن الفصحاء والبلغاء أهل النقد والبصر أقروا بالعجز عن المعارضة من غير مداهنة ولا مخاتلة، وانقادوا إلى التصديق والاعتراف بأن القرآن فى الدرجة التى لا تنال، وأن محمدا صادق فى دعواه — لما شاهدوا ذلك كله آمنوا به وأيدوه .

جاء القرآن والعرب قد وقعت بينهم الفرقة، وتشتت الألفة، واختلفت كلمتهم، واضطربت أحوالهم، فكانوا إخوان دبر ووبر، أذل الأمم دارا، وأجدبهم قرارا، لا يأوون إلى جناح دعوة يعتصمون بها، ولا إلى ظل ألفة يعتمدون على عزها : فأحوالهم مضطربة، وأيديهم مختلفة، وكانوا فى بلاء عظيم : من جهل مطبق، وبنات موءودة، وأصنام معبودة، وأرحام مقطوعة، وغارات مشنونة . فلما استضاءوا بنور القرآن الكريم اجتمعت أملاؤهم، واتفقت أهواؤهم، واعتدلت قلوبهم، وترادفت أيديهم، وتناصرت سيوفهم، وعقد بملته طاعتهم، وجمع على دعوته ألفتهم، وأصبحوا ينعمون فى ظل سلطان قاهر ثابت، وصاروا حكاما على العالمين، وملوكا فى أطراف الأرضين : قد ملكوا الأمور على من كان يملكها عليهم، وأمضوا الأحكام فيمن كان يمضيها فيهم .

جاء القرآن وقد تمكنت من العرب عصبية الجاهلية فما عدا أن سفه أحلامهم، ونكس أصنامهم، وذهب كل ما ألفوه حتى كأنما خلقهم خلقا جديدا، وكأنهم على آدابه نشئوا وهم أغفال وأحداث، بل كأنهم كانوا سلالة أجيال كان القرآن فى أوليتهم المتقادمة، وكانوا هم الوارثين لا الموروثين مصداقا للحديث الشريف : « خَيْرُ الْقُرُونِ قَرْنِى ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ » .

كان من أثره فيهم أن أذهب عنهم العصبية الممقوتة، وأحل محلها التعصب لمكارم الخصال ومحامد الأفعال ومحاسن الأمور وخلال الحمد : من الحفظ للجوار والوفاء بالذمام والطاعة للبر والمعصية للكبر والأخذ بالفضل والكف عن البغى والإعظام للقتل والإنصاف للخلق والكظم للغيظ واجتناب الفساد فى الأرض . لهذا كله انعقدت عليه قلوبهم وهم يجهدون فى نقضها، واستقاموا لدعوته

وهم يبالغون فى رفضها : فكانوا يفرون منه فى كل وجه ثم لا ينتهون إلا إليه : ذلك بأنه قد جاءهم بما لا قبل لهم به و بما يسمى فى علم النفس بالاستهواء، فغلب على طباعهم، وحال بينهم و بين قديمهم .

ولعمرى لو كان القرآن غير فصيح وكانت فصاحته غير معجزة فى أساليبها التى ألقيت إليهم لخلا منه موضعه الذى هو فيه ، وكان سبيله بينهم سبيل القصائد والخطب والأقاصيص، ولنقضوه : كلمة كلمة وآية آية دون أن تتخاذل أرواحهم، أو تتراجع طباعهم .

بين لهم أن الطبيعة مسخرة لهم فعليهم كشف ما فيها واستخراج أسرارها : ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ .

نادى فيهم القرآن الكريم : أن النبى صلى الله عليه وسلم ابن يومه وابن عمله وعقله، فلا هو مفاخر ولا واهم ولا شاعر . وخاطبهم بالآية الكريمة التى هى روح الثبات فى أمم العلم والعمل : ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ .

بينا فيما سبق أن العرب قبل نزول القرآن الكريم قد وصلوا إلى هاوية الانحلال الاجتماعى بما لم يعهد له مثيل فى تاريخ الأمم : فكانوا فى جهل مطبق بأحكام الدين الصحيح ومبادئ السياسة والحياة الاجتماعية، ولم يكن لهم فن يذكر أو صناعة تنشر، ولم يكونوا يعرفون شيئا من العلاقات الدولية ، وكانت كل قبيلة أمة قائمة بنفسها تحفز لشن الغارات على جارتها . فما لبثوا بعد أن جاءهم الكتاب الكريم أن خالطت أحكامه قلوبهم ، وأيقظت أرواحهم، وجعلتهم يتلمسون الحق، ونصبوا نفوسهم لرفع مناره ونشره فى أطراف الأرضين . قد بلغوا فى العبادة مبلغا بزوايه

أهل الرهبنة والتنسك ، وصاروا أولى قوة فى دين ، وحزم فى لين ، وإيمان فى يقين ، وحرص فى علم ، وعلم فى حلم ، وقصد فى غنى ، وخشوع فى عبادة ، وتجمل فى فاقة ، وصبر فى شدة ، وطلب فى حلال ، ونشاط فى هدى ، وتحرج عن طمع . ومع بلوغهم هذه الدرجة الروحية العالية لم يهجروا الدنيا وشئونها ، بل عملوا لها بصدق وإخلاص ، فأبدلهم الله العز مكان الذل ، والأمن مكان الخوف ، فصاروا ملوكا حكاما ، وأئمة أعلاما .

وإن تعجب فعجب أن يتم ذلك المجد العظيم للعرب فى أقل من مائة سنة . وفى هذا برهان قاطع على أن أحكام القرآن خير طريق إلى تنمية الملكات الإنسانية وإعدادها لكسب الحياتين الدنيوية والأخروية : فقد جعل الأمة العربية تضع أعناقها للحق الذى لم تألفه حقا ، وأن تعطيه مع ذلك محض ضمائرها ، وتسلم له فى تاريخها وعاداتها .

إن نظرة بإمعان فيما جاء به القرآن الكريم من الآيات البينات تدل على أنه ليس هناك فى الإنسان من نقص إلا والقرآن كفيل بإصلاحه : فهو طبيب الإنسانية . وأحذق الأطباء من يتبين الداء ويعطى ناجع الدواء . وكذلك فعل القرآن : فقد بلغ من أثره فى العرب أنه حول طبائعهم ، وغير أخلاقهم ، فلم يشهد التاريخ جيلا اجتماعيا مثل الجيل الأول فى صدر الإسلام حين كان القرآن هو المنار الذى يهتدى به ، ولم تستطع الفلسفة على اختلاف ضروبها فى أى عصر من العصور أن تنشئ جيلا من الناس كالذى أخرجه القرآن الكريم : فكانوا مثلا حسنا فى علو النفس ، وصفاء الطبع ، ورقة الجانب ، ورجاحة اليقين ، وطهارة الخلق ، وشدة الأمانة ، وإقامة العدل ، والخضوع للحق ، وما إلى ذلك من أمهات الفضائل .

(١٢) تأييد الله لمحمد صلى الله عليه وسلم وخذلان أعدائه

أيد الله محمدا صلى الله عليه وسلم ، وعصمه من أعدائه ، وهم الجم الغفير والعدد الكبير ، وهم أحنق ما يكون عليه ، وأشد طلبا لنفسه ، وهو بينهم مسترسل قاهر ، ولهم مخالط ومكاثر ، ترمقه أبصارهم شذرا ، وترتد عنه أيديهم ذعرا :

فمن ذلك أنه جلس فى بعض منازله تحت شجرة فاخترط أعرابى سيفه عليه فأرعدت يده وسقط منها السيف . ومع ذلك عفا عنه المصطفى عليه الصلاة والسلام فرجع إلى قومه قائلا : جئتكم من عند خير الناس .

وانفرد يوم بدر لأمر ما ، فتبعه رجل من المنافقين مصلتا سيفه من قرابه ، فعصمه الله من شره ، ورد كيده فى نحره .

وقصده دُعثور بن الحرث وفى يده عضب مرهف الحد فى غزوة غطفان ، فوقع لظهره ، ثم هدى بعدها للإيمان .

وتواعده المشركون مرات عِدة ، وأتوا للفتك به بكل حيلة ومكيدة : فمنهم من هرب وفر ، ومنهم من وقع مغشيا عليه ، ومنهم من ضرب الله على عينيه ، ومنهم من سقط بين يديه .

ومن ذلك أن قريشا اجتمعت على قتله . فخرج عليهم من بيته ، وذر التراب على رءوسهم ، وخلص منهم ، وهم له منتظرون : صم بكم عمى فهم لا يبصرون .

وتبعه سراقة حين الهجرة يريد قتله — وقد جعلت قريش فيه وفى أبى بكر الجعائل — فلما قرب منهما خر عن فرسه بعد أن ساخت قوائمها مرتين . فناداه بالأمان ، وقابله بالإحسان .

وجاء أبو جهل بصخرة ليطرحها عليه — وكان إذ ذاك ساجدا ، وقريش تنظر إليه — فيبست يداه إلى عنقه ، ولم ينفعه « هبل » .

وجاءه مرة أخرى — وهو يصلى عليه الصلاة والسلام — فلما قرب منه ولى ناكصا على عقبيه .

ومن ذلك أن كلدة بن أسد أبا الأشد — وكان من القوة بمكان — خاطر قريشا يوما على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأعظموا له الخطر إن هو كفاهم . فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الطريق يريد المسجد ، فجاء كلدة ومعه المزراق ، فرجع المزراق فى صدره ، فعاد فزعا ، فقالت له قريش : مالك يا أبا الأشد ؟

فقال : ويحكم . ما ترون الفحل خلفى . قالوا : ما نرى شيئا . قال : ويحكم : فإنى أراه .

ومن ذلك أن كثيرا من اليهود والكهان أنذروا به صلى الله عليه وسلم، وعينوه لأصحاب الأوثان، وأخبروهم بأمره، وحضوهم على قتله، فعصمه الله تعالى منهم بنصره ، وحرسه بعينه التى لا تنام، وكلأه بعنايته فى الرحلة والمقام ، وجعل فى أعناقهم أغلالا ، وألبسهم من الذل والهوان سربالا ، وكف أيديهم عنه إذ هموا ببسطها، وحمى رسولهُ عليه الصلاة والسلام، وكفاه : « أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ » .

أتم الله التأييد لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فمكنه من توحيد أمة منقسمة إلى قبائل متعادية ، وجاءها بقانون كفل لها السلطان على جميع الأمم بعد أن كانت فى حيز العدم ، ومحا العقائد الباطلة ، وأبدل بها دينا بلغ من سمو مبادئه أنه لا يزال يزيد وينمو فى كل يوم بنفسه .

تمت له هذه الأمور الثلاثة ولم يفقد من طهارة نفسه ولا سمو روحه مثقال ذرة ، ولم تفتن نفسه الطاهرة بنجاحه الباهر مع أن معشار عشر هذا النجاح العظيم قد فتن كثيرا من الملوك والمشترعين والفلاسفة والقواد .

(١٣) تكامل الفضل فيه

كمله الله بالفضائل . وحسبك دليلا ما يلى :

(ا) كمله بالسكينة الباعثة على الهيبة والتعظيم ، فكان صلى الله عليه وسلم أعظم مهيب فى النفوس حتى ارتاعت رسل كسرى من هيبته حين أتوه مع ارتياضهم بصولة الأكاسرة ومكاثرة الملوك الجبابرة .

(ب) استحكمت محبة طلاقته فى النفوس حتى لم يقلُه مصاحب، ولا تباعد عنه مقارب، فكان أحب إلى أصحابه من الآباء والأبناء .

(ح) مالت النفوس إلى متابعته ، وانقادت لموافقته ، وثبتت على شدائده ومصابرته ، ولم ينفر منه معاند ، ولا استوحش منه مباعد — إلا من ساقه الحسد إلى شقوته ، وقاده الحرمان إلى مخالفته .

(ى) أوتى رجاحة فى العقل، وعلوا فى الهمة، وصدقا فى الفراسة، فكان دائما صحيح الرأى جيد التدبير. ما استغفل فى مكيدة، ولا استعجز فى شدّة، بل كان يلحظ عواقب الأمور فى المبادئ فيكشف عيوبها، ويحل خطوبها.

(هـ) كانت حياته صلى الله عليه وسلم حياة ثبات فى الشدائد، ونفسه فى اختلاف الأحوال ساكنة: لا يتحير فى شدّة، ولا يستكين لعظيمة أو كبيرة، وكان مع قلة أعوانه يصابر صبر المستعلى، ويثبت ثبات المستولى:

روى حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس رضى الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أخفت فى الله وما يخاف أحد، ولقد أوذيت فى الله وما يؤذى أحد، ولقد أتت على ثلاثون مابين يوم وليلة وما لى ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شىء يواريه إبط بلال.

(و) إعراضه صلى الله عليه وسلم عن زخرف الدنيا والاكتفاء بالكافى منها: فلم يمل إلى غضارتها، ولم يستمتع بحلاوتها، وقد ملك من أقصى الحجاز إلى عذار الفرات، ومن أقصى اليمن إلى شِحْرِ عُمان، وهو صلى الله عليه وسلم أزهد الناس فيما يقتنى ويدخر، وأعرضهم عما يستفاد ويحتكر، لم يخلف عينا، ولم يورث أهله وولده متاعا ولا مالا ليصرفهم عن الرغبة فى الدنيا كما صرف نفسه عنها. ولقد جاءت فاطمة رضى الله عنها إلى أبى بكر رضى الله عنه تريد الميراث فقال لها: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إنا لا نورث: ما تركناه فهو صدقة. ثم قال لها: من كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعوله فأنا أعوله، ومن كان ينفق عليه فأنا أنفق عليه.

(ز) خفض جناحه للناس وهم له أتباع، فكان يمتزج بأصحابه وجلسائه فلا يتميز عنهم إلا بإطراقه وحيائه وجليل سمته ورزانه. ولقد دخل عليه صلى الله عليه وسلم بعض الأعراب فارتاع من هيبته فقال: خفض عليك: فإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة. ولعمرى هذا من شرف أخلاقه وكريم شيمه: فهى غريزة فطر عليها، وجبلة طبع بها، لم تندر فتعد، ولم تحصر فتحد.

(ح) رزقه الله الحلم والوقار . ولقد منى بجفوة الأعراب فلم تحفظ عليه بادرة ، ولم يعرف حليم غيره إلا ذو عثرة، ولا وقور سواه إلا له هفوة . أما هو فقد عصمه الله تعالى من نزغ الهوى وطيش القدرة : ليكون بأمته رءوفا ، وعلى الخلق عطوفا . قد تناولته قريش بكل كبيرة، وقصدته بكل جريرة، وهو صبور عليهم معرض عنهم . ولما ظفر بهم عام الفتح — وقد اجتمعوا إليه — قال لهم : ما ظنكم بى؟ قالوا : ابن عم كريم . فإن تعف فذاك الظن بك، وإن تنتقم فقد أسأنا . فقال صلى الله عليه وسلم : بل أقول كما قال يوسف لإخوته : لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين . وقال صلى الله عليه وسلم : اللهم قد أذقت أول قريش نكالا . فأذق آخرهم نوالا .

(ط) حفظ العهد، ووفى بالوعد، فما نقض لمحافظ عهدا، ولا أخاف لمراقب وعدا، بل كان يرى الغدر من كبائر الذنوب، والإخلاف من مساوى الشيم .

(ى) أوتى من الحكمة البالغة والعلوم الجمة الباهرة ما بهر العقول، وأذهل الفطن: من إتقان ما أبان، وإحكام ما أظهر، فلم يعثر فيه بزلل وهو مع ذلك أمى من أمة أمية : لم يقرأ كتابا، ولا درس علما، ولا صحب عالما ولا معلما .

تأمل أنه أوجز المراد من شريعته فى أحاديث أربعة :

الأول : « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى » .

والثانى : « الْحَلَالُ بَيِّنٌ، والْحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ، وَمَنْ يَحُمْ حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ » .

والثالث : « مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ » .

والرابع : « دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ » .

وحسبك هذا دليلا على صفاء جوهره وخلوص مخبره .

(ك) لم يعزب عنه من قصص الأنبياء مع الأمم وأخبار العالم فى الأحقاب الخالية صغير ولا كبير مع أنه لم يضبطها بكتاب يدرسه، ولم يتلقها عن معلم لقنه ،

بل علمه الله وآتاه ذهنا صحيحا وصدرا فسيحا وقلبا شريحا . وتلك أداة الرسالة، وميزة النبوة .

(ل) أيد شريعته بأظهر دليل، وأبانها بأوضح تعليل ، فما خرج منها ما يوجبه معقول ، ولا دخل فيها ما تدفعه العقول ، وإلى ذلك أشار صلى الله عليه وسلم بقوله : « أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَاخْتُصِرَتْ لِيَ الْحِكْمَةُ اخْتِصَارًا» .

(م) أمر بمحاسن الأخلاق، ودعا إلى مستحسن الآداب ، وحث على صلة الأرحام ، وندب إلى التعطف على الضعفاء والأيتام ، ونهى عن التباغض والتحاسد، وكف عن التقاطع والتباعد، فقال : ﴿لَا تَقَاطَعُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا﴾ : لتكون الفضائل فيهم أكثر ، ومحاسن الأخلاق بينهم أنشر، وإلى الخير أسرع ، ومن الشر أمنع ؛ وليتحقق فيهم قول الله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ فيتكامل لهم صلاح دينهم ودنياهم ، و يصبحوا أئمة أبرارا، وقادة أخيارا .

(ن) كان واضح الإجابة ظاهر الحجة ،فلا يحصره عي ،ولا يقطعه عجز،ولا يعارضه خصم فى جدال إلا كان جوابه أوضح، وحجاجه أرجح : جاءه أبى بن خلف الجمحى بعظم نخر من المقابر قد صار رميما، ففركه حتى صار رمادا، ثم قال : يا محمد : أنت تزعم أنا وآباءنا نعود إذا صرنا هكذا . لقد قلت قولا عظيما ما سمعناه من غيرك : من يحيي العظام وهى رميم ؟ فأنطق الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ببرهان نبوّته فقال : ﴿ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ . فانصرف مبهوتا، ولم يحر جوابا .

(س) حفظ الله لسانه من تحريف فى قول أو إيراد خبر يجانب الصدق . ولم يزل صلى الله عليه وسلم مشهورا بالصدق فى خبره ناشئا وكبيرا حتى صار بالصدق مرقوما ، وبالأمانة موسوما . ومن لزم الصدق فى صغره كان له فى الكبر ألزم، ومن عصم منه فى حق نفسه كان فى حقوق الله تعالى أعصم .

(ع) نقل أمته بما جاء به من الدين عن مألوفها ، فأذعنت له النفوس طوعا ، وانقادت خوفاً وطمعا ، واجتمع الراغبون والراهبون على نصرته ، وقاموا بحقوق دعوته رغبا فى عاجل وآجل ، ورهبا من زائل ونازل . وبالرغبة والرهبة صار الدين مستقرا والصلاح بهما مستمرا .

(ف) أمر أمته بالاعتدال : فلم يمل بهم إلى الدنيا كما رغبت اليهود ، ولا إلى رفضها كما ترهبت النصارى ، بل قال لأصحابه : « خَيْرُكُمْ مَنْ لَمْ يَتْرُكْ دُنْيَاهُ لِآخِرَتِهِ وَلَا آخِرَتَهُ لِدُنْيَاهُ » : لأن الانقطاع إلى أحدهما اختلال ، والجمع بينهما اعتدال . ولم يأمر أبدا برفض الدنيا كما يتقول المتخرصون : لأن منها يتزود المؤمن لآخرته ، ويستكثر فيها من طاعته ، ولأنه لا يخلو تاركها من أن يكون محروما مضاعا ، أو مرحوما مراعى . وهو فى الأول كَل ، وفى الثانى مستذل . تأمل هذه القصة : أثنى على رجل بخير فى حضرة الرسول فقيل : كنا إذا ركبنا لا يزال يذكر الله تعالى حتى ننزل ، وإذا نزلنا لا يزال يصلى حتى نرفع . فقال الرسول : فمن كان يكفيه علف بعيره وإصلاح طعامه؟ قالوا : كلنا ، فقال : كلكم خير منه .

(ص) اتسع زمنه القصير لنشر الدعوة أولا سرا ثم جهرا ، وللحروب التى تطلبتها الدعوة بعد الهجرة ، ولتوضيح أحكام الدين : فبين العبادات وأوضح الحلال والمباح والمحظور ، وفصل مايجوز وما يمنع من عقود ومعاملات حتى احتاج اليهود والنصارى فى كثير من معاملاتهم ومواريثهم إلى شرعه ، ولم يحتج شرعه إلى شرع غيره ، ثم مهد لشرعه أصولا تدخل فيها أحكام الحوادث المتجددة فى الأزمنة والأمكنة المتعددة حتى صار لما تحمله من الشرع مؤديا ، ولما تقلده من حقوق الأمة موفيا : حتى لا يكون فى حقوق الله زلل ، ولا فى مصالح الأمة خلل . كل ذلك فى زمن موجز تم فيه هذا الأمر الخارق المعجز .

(ب) الأدلة الحسية

إلمامة بالمعجزات ووجه الحاجة إليها : إن العقول التى فى ضلال تعتقده هدى، ولا تقبل ما يأتيها من الهدى إلا بعد تردد وتبين : إذ لابد لها من أن تنكر غير الذى عرفته حتى يقوم لها الدليل على بطلانه وصحة الحق الذى تدعى إليه. فإذا طالبت الرسول بالبراهين كانت على قسمين : قسم طريقه الحق والبراهين العقلية الكافية فتطمئن العقول له . وقسم لا تطمئن له فتتردد فيه مرة ، وتجحده أخرى . فيقيم الله تعالى الحجة بالمعجزة للرسول .

وشأن هذه المعجزة أن تكون متصوَّرة بالعقل مع كونها معجزة للبشر، وبذلك يزداد المطمئن يقينا ، ويطمئن الظان والمرتاب ، وتقوم الحجة على المنكر المستكبر ، فلا تستطيع نفس إقامة حجتها على الله : ﴿ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ ﴿ هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ فلا حق ولا صحة لأحد فى النطق والعذر بعد البلاغ المبين، وإلى هذا أشار سبحانه وتعالى إذ يقول : ﴿ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ﴾ ﴿ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ من أجل ذلك أيد الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بمعجزات معنوية وحسية :

أما المعنوية فالأحاديث النبوية والقرآن الكريم . والأحاديث النبوية جميعها قضايا صادقة تندرج فيها كل المصالح الدينية والدنيوية على اختلاف الطبائع والبقاع والأزمان . فصدورها على هذه الصورة ممن ليس له عهد بعلم وسياسة وحكومة ومدنية مسبوقة ، بل ليس لقومه من قبله حظ من العلوم والمعارف : كل ذلك برهان لا محيص من الإذعان إليه على صدق دعوى الحق .

والقرآن الكريم قد سبق القول فيه بما هو مقنع .

وأما المعجزات الحسية : فسببها أنه كان بين الأقوام الذين تصدى المصطفى صلى الله عليه وسلم لهدايتهم من لاسبق لهم فى الفصاحة والبلاغة، ولم تسم أفكارهم

إلى الإحاطة بما حواه القرآن الكريم من الصفات الفاضلة التي لا يمكن جمعها فيه لأحد من البشر ، ولم يلتفتوا إلى عجز من عجز عن المعارضة من أهل السبق في الفصاحة ، ولا إلى حال من التجئوا إلى المقارعة والمخاصمة لعجزهم عن الفهم لأسراره . ومن أجل ذلك تطلعت أنظارهم إلى عالم الطبعيات ، و إلى السنن التي تجرى عليها حوادث الكون وهم يعلمون أنه ليس فى قدرة البشر تغيير شيء منها ، فأصروا على أن يطالبوه صلى الله عليه وسلم بالإتيان بأمور خارقة لما تجرى عليه السنن الكونية : فإن جاء بها كان صادقا لأنها بمنزلة أن الله تعالى يقول : ﴿صدق عبدى﴾ و إن عجز عن الإتيان بها كان ذلك دليلا على كذبه (حاشاه) وتكذيب الله له فأخذوا يطلبون منه عليه السلام إجراء خوارق للعادات الجارية باطراد فى هذا العالم، فأتم الله له كثيرا منها لا يدخل تحت حصر :

فمنها انشقاق القمر : فقد انشق فرقتين حتى رأى أهل مكة حراء بينهما علما بين شعلتين . وقال لهم المصطفى : اشهدوا وهم حينئذ بمنى . فجعلها أبو جهل من حمقه سحرا . وقال : ابعثوا إلى أهل الآفاق طرا . فأخبروا أهل الآفاق أن معجزته كانت حقا، وأنهم عاينوا القمر منشقا[1] .

ومنها أن الناس التمسوا الماء فلم يصلوا إليه . فطلب فضل ماء وصبه فى إناء وضع بين يديه ثم وضع النبي فيه كفه الميمون ، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون ، فتوضأ الناس عن آخرهم . ولقد أصاب الناس شدّة من العطش فى جيش العسرة حتى أن الرجل لينحر بعيره فيشرب عصير فرثه من فرط العطش ، فرغب أبو بكر فى الدعاء إليه ، فرفع يديه بالدعاء فلم ترجعا حتى أتت السماء من أديمها بما لا يحصر، فشربوا وآرتووا وملئوا ما معهم من الآنية .

ومنها أن الناس أصابتهم مخمصة فى بعض مغازيه، فجمع من الأزواد ما رِبْضَة العنز توازيه ، ثم دعا الناس بأوعيتهم الخلية ، فلم يبق فى الجيش وعاء إلا ملئ ، وبقيت بقية .

(١) من أراد الاطلاع على الأدلة الوافية فليطلع على رسالتى (انشقاق القمر معجزة لسيد البشر) .

ومنها أن أعرابيا سأله آية تكون سببا للهـداية ، فأمر بدعوة بعض الشجر ، فأقبلت الشجرة إليه ممتثلة لمـا أمر ، فسلمت عليـه ووقفت بين يديه ، ثم رجعت بإشارته إلى منبتها .

ومنها أنه كان حول البيت ثلثمائة وستون صنما أرجلها مثبتة بالرصاص فى الحجارة إثباتا محكما . فلمـا دخل عام الفتح إلى المسجد الحرام جعل يشير بقضيب فى يده إلى تلك الأصنام ، فوقعت لوجوهها وظهورها على حسب إشارته .

ومنها أن قتـادة قد أصيبت عينه يوم أحد حتى وقعت على وجنتـه ، فردّها صلى الله عليه وسلم وكانت بعد أحسن عينيه . وأنه نفث فى عينى على يوم خيـبر ، فأصبح رمده لم يكن شيئا يذكر . وانكسرت يوم الخنـدق ساق ابن الحكم ، فنفث عليها ، فبرأ لوقته ، ولم يحصل له ألم .

ومنها أنه دعا لأنس بالبركة وتكثير الولد والمـال ، فلم يعـلم أحد نال من كثرة الولد ورخاء العيش ما نال . وأنه دعا لمعاوية بالتمكين فى البلاد ، فنـال الخلافة ، ووسع رقعة الإسلام ، وأنه قال للنابغة : لا يفضض الله فاك . فأدرك بدعائه غاية تعلو على الأفلاك ، وعمّر وكان أحسن الناس ثغرا : كلما سقطت له سن أنبت الله له أخرى . وأنه دعا لابن عباس بالتفقه فى الدين وعظيم التأويل ، فكان بعد يسمى حبر الأمة وترجمان التنزيل . ودعا على كسرى بتمزيق ملكه ، فتمزق وتشتت شمل ذرّيته وتفرّق .

وصفوة القـول أنك إذا تأملت معجزاته وباهر آياته عليـه الصلاة والسلام وجدتها شاملة للعلوى والسفلى ، والصامت والناطق ، والساكن والمتحرك ، والمائع والجامد ، والسابق واللاحق ، والغائب والحاضر ، والباطن والظاهر ، والعاجل والآجل : ممـا يفيد مجموعها القطع بأنه ظهر على يديه صلى الله عليه وسلم من خوارق العادات شىء كثير .

ومن يستريب فى انخراق العادة ، ويزعم أن آحاد هذه الوقائع لم تنقل تواترا ، بل المتواتر هو القرآن فكمن استراب فى الذائع المستفيض ، أوكمن استراب فى شجاعة

على وكرم حاتم الطائى فى زمانهما . ومعلوم أن آحاد وقائعهم غير متواترة ، ولكن مجموع الوقائع يورث علما ضروريا .

فما أشد غباوة من ينظر فى أحواله وأقواله وأفعاله وأخلاقه ومعجزاته وفى استمرار شرعه إلى الآن مع انتشاره فى أقطار العالم وفى إذعان ملوك الأرض له فى عصره وبعد عصره مع ضعفه ويتمه، ثم يمارى فى صدقه صلى الله عليه وسلم .

تلك نبذة من آيات النبوة الواضحة وبضعة من علامات رسالته الهادية : لأن الأدلة عليها لا تعد ولا تحصى، واختصار القول فى هذا المقام العظيم أحجى :

وفضل البحر لم يدركه وصف * وعد الموج فيه ليس يحصر

عظيم الخلق معروف السجايا * إله العرش قدسه وطهر

*

الباب السادس

محمد صلى الله عليه وسلم أكبر المصلحين نجاحا

أشرق نور المصطفى صلى الله عليه وسلم حين استحكمت الضلالة فى النفوس، وتغلغلت الغواية فى الرءوس، وتناهت الفتنة، وتفاقمت المحنة — وكذلك الرسل يولدون عند عموم الجهالة، ويبعثون عند طموم الضلالة — فيعثه الله للناس جميعا: ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ويهديهم صراطا مستقيما. بجاهد فى الله حق جهاده، مقتحما الشدائد، محتملا الصعاب، سائرا سير الحكيم، آخذا قومه بالموعظة الحسنة والمجادلة الرشيدة، حتى اجتاح الضلالة، وأظهر الحق بأقوى دليل، وأرشد الخلق إلى أقوم سبيل، وتم له ما أراد: من نجاح اجتماعى وخلقى، ونفوذ سياسى، وفوز حربى. صلى الله عليه وعلى آله الأكرمين، وأصحابه الغر الميامين. وإليك البيان:

(١) نجاحه الاجتماعى والخلقى

لاجرم أن تغيير حال أمة كالأمة العربية وإحياءها وإحياء أمم الأرض بها وقلب نظمها وإصلاح جميع أحوالها وأمورها وإخراجها من الفساد والاختلال والفوضى برجل كمحمد صلى الله عليه وسلم فى حاله ونشأته وفقره ويتمه وأميته وبتلك السرعة العجيبة فى ذلك الزمن القصير — أمر لم يعهد له مثيل فى تاريخ البشر، وليس له نظير: فهو من أعجب العجائب وأغرب الخوارق.

رجل فقير يتيم أمى، بعيد عن العلم والعلماء فى ناحية من الأرض بعيدة عن كل نظام ومدنية، ناشئ فى الهمجية وبين أهل وأقارب عريقين فى الجهل والكفر والوثنية. فأبدل وحده من الجهل علما، ومن الفساد نظاما، ومن الكفر إيمانا،

ومن الشرك توحيدا، ومن التشبيه تنزيها، ومن التفرق اتحادا، ومن التخاذل ائتلافا، ومن الضعف قوة، ومن الهمجية مدنية، وهو فى كل ذلك الليث الهصور، والقائد المحنك، والخطيب المصقع، والبليغ المعجز، والسياسى الحاذق، والمنبئ الصادق، والشارع الحكيم، والمعلم الماهر المخبر قومه بما لم يعلموه وما لم يلتفتوا إليه، والتقى الورع، والزاهد الناسك العابد، والمتمتع بالحلال، والمتلذذ بالطيبات والرءوف الرحيم، والقاسى على الظالمين، ومثال الأدب والتهذيب والرقة والكمال والجمال والنظافة والأعمال الصالحة والإيمان الصادق الصحيح، والمصلح الأكبر لأمته ولسائر العالم . كل ذلك أنصع دليل على أنه الإنسان الكامل الجامع لما تجد فيه الأمم ما يضىء لها السبيل، والقدوة الحسنة فى كل شىء، والمثال الصالح الوحيد فى كل صفة وخلق وعمل : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ .

فلا عجب أنه أحيا أمة حملت لواء العلم والعز والمجد والمدنية الصحيحة والحرية والإخاء والمساواة إلى أمم الأرض قاطبة مع شدة الحاجة إلى بعثته فى ذلك الزمن الذى ساد فيه الاختلال والفساد، والكفر والظلم والاستبداد، وسوء الحال والجهل : فغيرت وجه الأرض، وقلبت نظم الأمم، وصبغتها بصبغتها فى اللغة والدين والأخلاق فى سنين قليلة و بسرعة خارقة للعادة مع أن دول ذلك العصر على عظمتها وقوتها وعلمها وأموالها واقتدارها عجزت عن صبغ محكوميها بصبغتها فى الدين واللغة والجنس والأخلاق مع صرف كل مجهودها وعلمها وأموالها واقتدارها فى ذلك، فلم يزدد الناس منها إلا نفورا وسخطا و بغضا مع مضى المدد الطويلة عليها وتسلطها على جميع مصادر حياة تلك الأمم، ولم تنل منها مع قوتها فى السنين الكثيرة ما ناله العرب مع ضعفهم فى السنين القليلة .

فمحمد صلى الله عليه وسلم الذى أحيا تلك الأمة، وجاء بذلك الدين، واستوجب محبة الأمم الآخذة بتعاليمه المتأثرة بأقواله وأعماله إلى اليوم، والذى له أكبر سلطان على نفوس (الملايين) من البشر لا يتم له هذا النجاح بدون عون إلهى ومدد ربانى .

لم يرو التاريخ أن مصلحا غيره قام بين البشر، وكان مثله فى حاله ونشأته، وكانت أمته كأمته العربيـة البدوية الأمية — كان منـه ما كان من محمد صلى الله عليه وسلم فى أثره العالمى العظيم وبسرعة عجيبـة كهذه، أو دام عمـله فى الأرض إلى اليوم .

حقا لقد خاب كل مدّع للنبوّة من بعـده، وظل محمد صلى الله عليـه وسلم فذا فى جميع أعماله دون سائر البشر : لمـا آتاه الله من القدرة العجيبة والسلطان السريع والتأثير المدهش فى أمم الأرض قاطبة إلى قيام الساعة .

كان عمله فى قلب الأمة العربيـة وبعثها من الموت إلى الحيـاة بهذه السرعة أبلغ من قلب العصا حية وإحياء الموتى : لأن إخراج الأمم من الظلمات إلى النور وإماتة الجهل وإحياء العرفان ونبذ الهوى ومخاطبـة العقل السليم : كل ذلك أليق بمقام النبوّة، وأقوى فى إثبات الدعوى :

قال (سير وليم مُوير) فى كتابه « سيرة محمد صلى الله عليه وسلم » : " امتاز محمد صلى الله عليه وسلم بوضوح كلامه، ويسر دينه، وأنه أتم من الأعمـال ما يدهش الألباب : فلم يشهد التـاريخ مصلحا أيقظ النفوس، وأحيا الأخلاق، ورفع شأن الفضيلة فى زمن قصير — كما فعل محمد صلى الله عليه وسلم " .

لبثت مكة خاصة والبلاد العربية عامة دهورا وأحقابا غارقة فى الجهل والضلال : فلم يكن لليهودية والمسيحية من الأثر فى العرب وأحوالهم الاجتماعية والخلقيـة إلا بمقدار ما يؤثر حجر يلقى فى ماء كدر لا يعدو أثره وجه المـاء ولا يبلغ أعماقه .

كان العرب سابحين فى ديجور من الرذيلة وضروب القسـوة : إذ كان الولد الأكبر يرث أباه فى زوجتـه، وبلغت الأنفة والغيرة عنـدهم حدّا جعلتهم يئـدون البنات، وعكفوا على الأصنام، وعبدوا الأوثان، ولم يفقهوا معنى للحيـاة الأخرى وما فيهـا من ثواب وعقاب . فلمـا جاء محمد صلى الله عليـه وسلم أمكنه فى خلال ثلاث وعشرين سـنة أن يطهر مكة وغيرها من البلاد العربية ممـا كان فيهـا من الأرجاس والمقابح، ثم اتبعته طائفة قد هجروا عبادة الأصنام، ودانوا لله بالطاعة،

وصدقوا الرسول، وآمنوا بما أنزل إليه، فآستقرت فى قلوبهم خشية الله، وتطلعوا إلى عفوه وفضله، وتسابقوا فى عمل البر، وتنافسوا فى نصر الفضيلة ونشر لواء العدل، وبان لهم أن الله على كل شىء قدير، وأن العناية الصمدانية تحوطهم وترعاهم ما داموا على ثباتهم، وأن الله مطلع على أحوالهم وشئونهم وسرهم وعلانيتهم، وأن ما فى الكون من نعمة أو آية مصدرها الخلاق الوهاب، وأن الأمور صغيرها وكبيرها بيده يصرفها كيف يشاء، وأن ما جاءهم من الدين الجديد فضل أفاض الله به عليهم، وقد وجب عليهم أن يدفعوا عن بيضته ويحرسوا حماه، وظهر لهم أن محمدا صلى الله عليه وسلم هو بشير السعادة، وأنه معقد آمالهم، ومنقذهم من أحوالهم وأوحالهم، فلذلك انقادوا له بالطاعة .

لا جرم أن مكة فى زمن قصير قد انشطرت شطرين : الكفار، والمؤمنين :

فأما الكفار فقد ظل معظمهم على عناده حتى تم للنبي الكريم النصر والفتح المبين .

وأما المؤمنون على قلتهم فقد آحتملوا صنوف الأذى، وعانوا آلام التعذيب، ولم يزدهم ذلك إلا حبا لمحمد ودينه، وقد بلغ من أمر حبهم إياه أنهم جحدوا معتقداتهم التى ورثوها عن آبائهم — وكانت أنفس الأشياء لديهم — ثم هجروا أوطانهم إلى بلاد الحبشة — كما سيأتى — ثم إلى المدينة حيث لحق بهم محمد صلى الله عليه وسلم تاركين مدينتهم المحبوبة وفيها البيت المحرم، وهو أحب أرض الله إليهم . ولما آستقر بهم المقام فى المدينة عقد المصطفى صلى الله عليه وسلم بينهم رابطة الإخاء، وبذلك استعدّت نفوسهم للدفاع عن محمد ودينه، ووهبوا دماءهم لإعلاء كلمة الله .

كان من أثر محمد أن العرب الذين كانوا بالأمس عاكفين على شن الغارات وسفك الدماء لأوهى الأسباب أصبحوا وقد تأكدت بينهم أواصر الأخوة، وأشربوا فى قلوبهم أن يعمل كل لخير أخيه، ولا يستأثر بشىء دونه .

هذب الأمة العربية التى ضرب بها المثل فى الجهل قبل الإسلام حتى أصبحت منار العلم والعرفان للعالم . وفى ذلك يقول (كارليل) : « قوم يضربون فى الصحراء

لا يؤبه لهم عدة قرون . فلما جاءهم النبي العربي أصبحوا قبلة الأنظار في العلوم والعرفان، وكثروا بعد القلة ، وعزوا بعد الذلة ، ولم يمض قرن حتى استضاءت أطراف الأرضين بعقولهم وعلومهم » .

هؤلاء العرب الذين غمطوا المرأة جميع حقوقها وأنزلوها عن مرتبتها الطبيعية أصبحوا بعد الإسلام هداة الأمم في تقدير حقها ، وصاروا مثلا صالحا للاستقامة والتقوى محافظين على حدود الله وأحكامه عاملين بأوامره مجتنبين نواهيه . قوم كانت بواعثهم للعمل صغيرة مرذولة . فلما أتاهم الإسلام عظمت بواعثهم، وشرفت مقاصدهم، وحبب إليهم عمل البر ومناصرة العدل ونشر لواء المحبة .

حقا إنه لعجيب أن يتم هذا التحول في سنين قليلة : كأن ملائكة السماء هبطت إلى الأرض، فنفثوا في نفوس العرب روح الوئام والمحبة، وأماتوا فيهم دواعي الانتقام وعبادة الأوثان والشيطان والشغف بالقمار وما إلى ذلك من المنكرات والقبائح .

دع عنك أن تعداد الزواج قد نظم ، والربا أخذ يختفي ، وحل العمل محل البطالة، وتحققت أمنية عيسى عليه السلام: من استقرار ملكوت السماء في الأرض.

كان مثل محمد مثل الرعد القاصف : قضى على الشرور التي رسخت في العصور السابقة، فأيقظ الناس من سباتهم العميق ، ثم رفعهم إلى ذروة الحضارة . ألم تر أن الأمة التي كانت تعبد الأحجار والحيوان والنبات أصبحت أمة موحدة لها يقين ثابت، وعقل راجح ؟ فأنجبت مثل عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي عبد الوثن والصنم في جاهليته، والذي قال بعد إسلامه عند استلامه الحجر الأسود: « إنك لحجر ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك » .

حقا إن الأمم كالأطفال : ولذلك جاءهم الأنبياء بما يناسب عقولهم ودرجة سذاجتهم . وكان البشر على الجملة في عهد البعثة المحمدية قد خرجوا من طور الطفولة إلى سن الرشد ، فأصبحوا لايناسبهم من الدلائل والبراهين ما كان يناسبهم في القرون الأولى، وقل فيهم تأثير المحتالين والدجالين والسحرة والمشعوذين، وصاروا

يرجون الهداية من طريقها . فساعدهم الإسلام على ذلك ، ونهج بهم منهجا لم يسبقه به دين من قبل : فجعل الحجج العلمية والدلائل العقلية رائده فى جميع دعاويه ، وعليها معتمده فى كل مبانيه ، وقلل من شأن المعجزات الحسية بقدر الإمكان حتى لا تكون عقبة فى سبيل رقى عقل الإنسان فى مستقبل الزمان : ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ . يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ : فإن البشر فى عهد النبوة المحمدية أخذوا يدركون قيمة المعجزات الحسية ، وأنها لا علاقة بينها وبين دعوى النبوة ، وأنها لا يسهل تمييزها من غيرها من أعمال السحرة والمشعوذين والصناع الماهرين وعجائب أهل الرياضات والمجاهدات من المتصوفين وغيرهم على ما يقول بعض الناس ، وأنها إن أقنعت تلك العقول القديمة وأرهبت تلك النفوس وهى صغيرة ، وحملتها على الإيمان : فإنها أصبحت لا تغنى العقل فتيلا ولا تزيد الأمور إلا تعقيدا . وإن الدليل إن لم يكن له من العقل أكبر نصيب فهو أضعف ضعيف .

وأما من كان يطلب من النبى صلى الله عليه وسلم تلك المعجزات فما كان يريد إلا الإعنات والإعجاز والسخرية والاستهزاء والعناد ، وإلا فلديه من البراهين والآيات مايشفى علة النفوس ، ويروى غلة العقول : ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ .

وأما ما أظهره الله تعالى على يديه من المعجزات الحسية فلم يكن يراد به إلا إفحام المعاندين المستهزئين ، والزيادة فى تثبيت ضعفاء المهتدين . وقد كان جل اعتماد النبى صلى الله عليه وسلم فى إثبات دعواه على القرآن وحده كما يتضح ذلك لمن تدبر آياته : فإنه هو المعجزة التى تلتئم مع الدعوى ، وتعلو بالعقل إلى مستوى العلم والفهم ، وتناسب حال الأجيال من بعده ، فلا تقف عقبة فى سبيل نظرياتهم وتفكيرهم ومعلوماتهم واختراعاتهم ، ولا تلتبس عليهم بحيل الدجالين وتدليس المحتالين ولا بكذب القصاصين وإفك الراوين وتخيل الواهمين ، بل تساعدهم على البحث ، وتحضهم على التفكير والتقصى والتمحيص والاستدلال والاستنباط .

فببعثة محمد صلى الله عليه وسلم انقضى عصر العجائب والغرائب ، وبدأ عصر العلم والعقل . فهو الحد الفاصل بين العصرين . فلذا كانت معجزاته تشمل هذا وذاك ، وكان أجلها وأكبرها والباقى منها — وهو القرآن — مناسبا لزمنه عليه السلام ، ولكل ما يأتى بعده من الأزمان ، فلا يناسبها غيره .

وكما ختم عصر المعجزات وتمت النبوات كذلك أغلق باب الكهانة . فكان الله تعالى : فى العصور الأول — والبشر فى طور الطفولة — يخاطب حواسهم ، وفى العصور التالية — وهم فى طور الرجولة — صار يخاطب بصائرهم أكثر مما يخاطب أبصارهم : فإن بصائرهم فى العصور الأول كانت ضعيفة غلفا ، لا تقوى ولا تنفتح للعنويات ، فوالى عليهم أنبياءه ورسله الكثيرين وآياته ومعجزاته بما ناسب استعدادهم : وذلك لأن الأب مع أطفاله يكثر التكلم معهم وتأديبهم وتهذيبهم وترغيبهم وترهيبهم ومكافأتهم بالماديات : كالحلوى والنقود والألاعيب ، أو معاقبتهم بالضرب ونحوه على حسب ما يبدو منهم . فإذا صاروا رجالا كف عن ذلك ، واكتفى بإبداء بعض نصائحه العامة وإرشاداته المكتسبة من طول التجربة والاختبار ، وتركهم يستعملون عقولهم فيما يرونه صالحا لهم ، وقل أن يضربهم أو يهينهم . كذلك فعل الله تعالى : ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى ﴾ .

بعد أن بلغ الإنسان رشده أعطاه الشريعة العامة والقواعد الثابتة ، وأباح له التصرف فى الأمور بحسب ما يرشده إليه عقله فى حدود شرعه : فبعد أن كان يوحى إلى الأمم السابقة كبنى إسرائيل مثلا فى كل جزئية من جزئيات الأمور اكتفى الآن بما فى القرآن الشريف من القواعد العامة والأصول الثابتة : فإنها مع ما يوحيه إلينا العقل كافية لهدايتنا فى جميع الأمور بعد أن بلغنا رشدنا .

لذلك أغلق الله تعالى باب الوحى والمعجزات ، وأخبرنا بذلك كله صريحا فى الكتاب العزيز . فلم يبق لمحتال ولا لمشعوذ أدنى وسيلة . وبذلك خلص العقل البشرى من الأوهام والخرافات والترهات ، وأصبح طريق العلم أمامه فيه واضحا . ولكى لا يبقى هناك ثلمة فى نفس أحد من المؤمنين يصل إليه منها شيطان من

الشياطين نص الكتاب العزيز نصا صريحا لا يقبل التأويل على أن الغيب علمه عند الله لا يعلمه إلا هو، وأن الأمور كلها بيد الله يصرفها كما يشاء لا يراعى فيها مجاملة أحد من عباده . فقال مخاطبا رسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ . ومثل ذلك فى القرآن كثير يعرفه من وفق إلى تلاوته .

إن نظرة فيما كانت عليه طوائف المسيحيين فى القرون الأولى تدل بأجلى بيان وأنصع دليل على مقدار نجاح محمد صلى الله عليه وسلم الاجتماعى :

ذلك بأن الناس وقتئذ تضاربت عقائدهم وأفكارهم فى كافة أصول الدين الأساسية، وكثرت مذاهبهم فيها، ولم يرق للناس فى تلك الأزمان — لقصر عقولهم — إلا الشرك والتجسيم وعبادة الصور والتماثيل . وكلما قام فيهم موحد أو مصلح حكموا بكفره ومروقه حتى أريقت دماء العالمين بسبب ذلك ظلما وعدوانا ، وتبدل دين المحبة والوفاق إلى بغض وشقاق، وانصدع بنيان الكنيسة المسيحية من قديم الأزمان .

قام أريوس بالتوحيد ، ووافقه على ذلك بعض الأساقفة والإمبراطور قسطنطين نفسه، ثم وجد له من أمم الجرمانيين أتباعا كثيرين، ولكن ميل جمهور الناس فى ذلك الزمن إلى الشرك والوثنية حمل أكثر أعضاء مجمع (نيقية) سنة ٣٢٥ م على الحكم عليه بالزندقة والمروق، وتأصلت العداوة بين أتباعه وبين سائر المسيحيين منذ ذلك الحين .

ولما فشت فى الناس عبادة الصور والتماثيل، واشتدت حتى صارت جزءا من الدين قام بعض الناس — ومنهم القياصرة كليون الثالث — لمحقها . وسموا إذ ذاك (كاسرى التماثيل) . وكان ذلك فى القرن الثامن والتاسع . فحكم البابا جريجورى الثانى ثم الثالث بحرمانهم ومروقهم . ولما اجتمع مجمع القسطنطينية سنة ٨٤٢ م

كان أيضا مضادا لهم ، وفاز فيه العابدون لها مع نهى كتبهم عن عمل الصور والتماثيل وعبادتها والإشراك بالله تعالى نهيا صريحا لا يقبل التأويل . فكان ذلك سببا آخر من أسباب الشقاق بين طوائف المسيحيين .

ولما قام لوثر بالإصلاح البروتستنتى فى القرن السادس عشر اشتعلت نار الحروب بين المسيحيين ، وخضبت الأرض بدماء الألوف من الأبرياء المصلحين فى مثل مذبحة اليهود بفرنسا سنة ١٥٧٢ م . ومن فرقهم القديمة من عبد مريم العذراء ، وكان فريق من نصارى العرب يسجدون لها من دون الله ، ويطلبون منها ما يشتهون . فنهى القرآن الشريف عن اتخاذها إلهاً مع الله : تعالى الله عما يشركون .

من ذلك تتبين حكمة تشديد الشريعة الإسلامية فى النهى عن التصوير واتخاذ التماثيل ، وتتبين حاجة العالم فى ذلك الوقت إلى الإصلاح العظيم الذى جاء به الإسلام والذى هو سابق لكل إصلاح عملى ناجح . فأنى لمحمد ذلك لولا وحى الله ؟ ولماذا انفرد عن العالم كله فى ذلك الوقت الذى كانت فيه الأمم غارقة فى عبادة الصور والتماثيل ؟ ولماذا لم يتأثر عقله بما يراه عند قومه وأهله وأهل الكتاب خصوصا الذين يزعم المبشرون أنهم معلموه مع أنه هو الذى جاءهم بالإصلاح قبل أن يعرفوه ، ونهاهم عن عبادة الأشخاص والصور ؟ فكيف اقتنع بصحة عقيدته فى التوحيد والتنزيه وهى مخالفة لما كان عليه جماهير الناس فى العالم كله إلا أفرادا قليلين ؟ وكيف عرف أن الحق مع هؤلاء دون أهله والأكثرين من قومه وذلك منذ طفولته قبل أن يكون للعقل مجال فى البحث والتفكير ؟ ولماذا كان محمد هو السابق للعالم فى إصلاح كل فساد فى أمور الناس الاجتماعية دينية كانت أو دنيوية إصلاحا عمليا ناجحا ؟ فممن تعلم هذه الطرق العملية الناجعة فى سياسة الناس والتأثير فيهم والوصول إلى قلوبهم وعقولهم حتى صاروا طوع إشارته فى كل شىء فملك نواصى العالمين وفاز فى ذلك فوزا مبينا لم يسبقه فيه أحد من المصلحين والنبيين ؟ فإذا كان لوثر أو غيره يعد الآن من كبار المصلحين فأولى ثم أولى أن يعد (محمد) الذى ظهر قبله فى وسط الوثنية المحضة محاطا بها من جميع الجهات ، وأصلح جميع أمور الناس

وأحوالهم، وأتى بالدين الحق والتوحيد الخالص — أكبر مصلح ظهر على الأرض: لذلك قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ . وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ .

ما كان لحكومة أن تستطيع الهيمنة على بلادها دون الاستعانة بالشُّرَط — بيد أن الحكومة التى أنشأها محمد صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة إلى المدينة لم تستعن فى المحافظة على الأمن وحمل الناس على إطاعة الأوامر بشىء مما تستعين به حكومات الأمم الأخرى، ومع ذلك فالجرائم كادت تختفى، ومن ارتكب إثما فى سره أوعلانيته سارع إلى الاعتراف للمصطفى بما اقترفت يداه :

وسر ذلك أن خشية الله تمكنت من قلوب المسلمين، فأصبح سرهم كعلانيتهم وأصبح الجانى شرطى نفسه، ومن أجل ذلك صار واجب الحاكم سهلا لينا : فلا المتهم فى حاجة إلى مدره، ولا القاضى فى حاجة إلى طول البحث والفحص .

لا جرم أن الذى أنشأ جيلا كهذا من الناس عجز عنه من تقدمه من الفلاسفة والحكماء والأنبياء لهو جدير بأن يقال : إنه أحرز أعظم نجاح عرف، ولا شك فى أن هذا الجيل قد بلغ من التقدم الخلقى والاجتماعى والسياسى مالم يشهده التاريخ .

قرر علماء الاجتماع أنه لا يتم إصلاح لأمة من الأمم أو لشعب من الشعوب إلا إذا أفعمت القلوب حبا للمصلح وطاعة لأوامره، وبدهى أن المال أو القوة بل المعجزات : كل أولئك لا يكفى لحمل القلوب على ما يجب للمصلح من المحبة والاحترام والطاعة، وهى أمور ثلاثة تأتى تبعا لما تناله الأمم من التقدم الخلقى والروحى — غير أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يستعن بالمال ولا بالقوة، ولا بغيرهما بل كان ينحى عن نفسه جميع ما من شأنه الإغراء والاستمالة : ألم تر أنه يقول بلسان القرآن : ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾ ؟ ومع هذا كان أمره مطاعا، وهو محبوب إلى أصحابه، يفدونه بأنفسهم

وأموالهم وأولادهم : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

أما وقد بان أن محمدا صلى الله عليه وسلم أحبه أصحابه و بذلوا كل نفس ونفيس فى نصرته وتأييده دون أن يستهويهم بشىء من عرض الدنيا ، فليس بعجيب أن يكون أكثر الأنبياء والمصلحين نجاحا كما أقر ذلك بعض كتاب الغرب ، ولا يمكن ان يبلغ هذا النجاح النادر إلا من وصل إلى أعلى مقام روحى .

كان شعار أصحاب محمد عليه السلام قولهم : لن نقول كما قال قوم موسى عليه السلام : ﴿ فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ ولم يكن قولهم مجاملة أو مصانعة ، بل كانوا يفعلون ما يقولون : انظر إلى ما حصل فى موقعة أحد : إذ رمى المصطفى فكسرت رباعيته اليمنى السفلى ، وجرحت شفته السفلى ، وشجت جبهته ، وجرحت وجنته ، وهشموا البيضة على رأسه ، ورموه بالحجارة حتى سقط لشقه فى حفرة ، فهجم عليه العدو ، فهرع إليه أصحابه الأوفياء ، وجعلوا من جسومهم حصونا حوله : فأحاطوا بالحفرة ، ثم نصبوا صدورهم لنبال العدو التى أخذت تخترق أجسامهم ، وهم لا يبالون ، وأخذوا يصرعون واحدا بعد الآخر ، وكلما خلا مكان واحد منهم سارع غيره إلى احتلاله ، ولم ينفرد الرجال بهذه الروح الفدائية ، بل أخذت النساء منها أوفر نصيب : فقد تقدمت عائشة وأم سلمة وغيرهما بالسيوف ، وهجمن على العدو . وبذلك نجا النبى الكريم فى أشد الأوقات حرجا ، وكان أصحاب محمد ممن يفخرون بأنهم عاهدوه على أن يموتوا فى سبيل دينه ، وبذلك تم لهم النصر المبين .

إن الروح التى نفثها محمد صلى الله عليه وسلم فى قومه لم يقتصر ظهورها على مواقع القتال ، بل مكنتهم من محاربة ألد الأعداء وأقواها : وهى طبائعهم الفاسدة ، وعاداتهم المرذولة ، وعقائدهم السخيفة :

وسر ذلك أن محمدا صلى الله عليه وسلم — مع كثرة واجباته التى أداها على أكمل وجه — لم يشغل عن عبادة ربه : فقد كان يقضى نهاره فى عمل متواصل ، وليله فى تهجد طويل ﴿ يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ، قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ، نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ، أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا، إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا، إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا، إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾ .

عكف على العبادة حتى فى أيام المدينة التى كثر فيها العمل وتنوع ، وظلت حاله كذلك حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى . ولم تمض السنة العاشرة من الهجرة حتى انهالت القبائل العربية من جميع الأطراف على المصطفى صلى الله عليه وسلم للدخول فى دينه ، وجاءت الوفود تلو الوفود إلى مكة ثم المدينة للإبانة عن معاضدتهم الإسلام، فنزل قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ وقد كان نزولها إيذانا بكمال الوحى ، وقد نزلت عليه وهو فى مكة عند زيارته البيت الحرام، ومعه ألوف من أصحابه .

وقد رأى ابن عباس رضى الله عنهما أن نزول هذه السورة يشعر بقرب انتقال المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى . وقد صدق فهمه فلم يعش المصطفى بعدها سوى ثمانين يوما .

وفى اليوم التاسع من ذى الحجة فى السنة العاشرة للهجرة الموافق ٨ من مارس سنة ٦٢٢ م كان المصطفى فى منى، وحوله جمع عظيم لا يقلون عن مائة وأربعين ألفا من الرجال والنساء والأطفال. وفى ذلك اليوم نزل قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ .

وقد اغتنم المصطفى هذه الفرصة ، فخطب خطبته المشهورة — وحوله ممثلو جميع القبائل، وهى :

(إن الحمد لله . نحمده ونستغفره ونتوب إليــه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا . من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله :

أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، وأحثكم على طاعته ، وأستفتح بالذى هو خير . أما بعد : أيهـا الناس : اسمعوا منى أبين لكم : فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعــد عامى هذا فى موقفى هــذا . أيها الناس : إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هــذا . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذى ائتمنــه عليها . وإن ربا الجاهلية موضــوع ، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبــد المطلب . وإن دماء الجاهلية موضــوعة ، وإن أول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعــة بن الحــارث بن عبد المطلب . وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية . والعمد قود ، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر : ففيه مائة بعير . فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس : إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ، ولكنه رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم . أيها الناس : ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ . وإن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض . منهـا أربعة حرم : ثلاثة متواليـات ، وواحد فرد : ذو القعـدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب الذى بين جمادى وشعبان . ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد .

أيها النـاس إن لنسائكم عليكم حقا ، ولكم عليهن حق : ألا يوطئن فرشـكم غيركم ، ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة . فإن فعلن فإن الله قــد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح . فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكســوتهن بالمعروف . وإنمـا النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا : أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله : فاتقوا الله فى النساء ، واستوصوا بهن خيرا .

أيها الناس : إنما المؤمنون إخوة : فلا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفسه . ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد . فلا ترجعوا بعدى كفارا، يضرب بعضكم أعناق بعض : فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا : كتاب الله، وأهل بيتى . ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد .

أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد : كلكم لآدم، وآدم من تراب. أكرمكم عند الله أتقاكم. ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى. ألا قد بلغت؟ قالوا : نعم . قال : فليبلغ الشاهد منكم الغائب .

أيها الناس : إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث . ولا يجوز لوارث وصية فى أكثر من الثلث . والولد للفراش، وللعاهر الحجر : من ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته) .

حقا قد ظهر بين الفرنجة الآن كثيرون ممن اهتدى إلى صواب جميع ما أتى به عليه السلام، ومنهم من أسلم ظاهرا وباطنا بعد أن كانوا يعدونه من أكبر الكذابين والدجالين لكثرة ما افتراه عليه قسيسوهم فى تلك العصور المظلمة حتى أنهم ادعوا أن لمحمد صنما من ذهب يعبده المسلمون الذين لا يعبدون إلا الله وحده، ويصلون له خمس مرات فى كل يوم، ويصيحون باسمه تعالى فى كل واد وفى كل مرتفع، ويصومون له شهر رمضان فى كل سنة .

لا ريب فى أن الأنبياء الكذبة يعرفون بأعمالهم كما قال المسيح عليه السلام : (متا ٧ : ١٦ — ٢٠)، ولا يأتى الشرير بالخير والإصلاح للناس أجمعين، والله تعالى لا يؤيد الكذابين الدجالين المضلين للناس : (راجع مزمور ١ : ٥، ٦ : ٦، ١٦، ص ٣٧٠) . وقد أيد محمدا صلى الله عليه وسلم حتى نجح فى عمله هذا النجاح الباهر العجيب السريع الذى لم يعهد له مثيل فى التاريخ .

رجل قام باسم الله، ودعا الناس باسم الله، وقال وعمل كل شىء باسم الله، ونسب إليه تعالى كل عمل من أعماله، ولم يكذبه الله تعالى، ولم يخذله، أو يقتله —

كما فصل بالكذابين — بل ثبته وأيده، وقواه ونصره، وكتب له النجاح فى جميع مساعيه ومقاصده، وصدّقه فى كل ما أخبر به عنه، ورفع ذكره، وأعلى شأنه، حتى صار اسمه يذكر بجانب اسم الله على ألسنة عدد عظيم من البشر فى كل بقعة من الأرض : فلا يعقل أن يكون هذا من الكذابين .

إذا أحصينا الملوك العظماء، والساسة الماهرين، والقوّاد المحنكين ، والخطباء والبلغاء، والمنشئين المجيدين، والكتّاب المتفننين، والشارعين الحكماء، والوعاظ المؤثرين، والأنبياء ، والمصلحين ، ومؤسسى الممالك والدول العظام — وجدناه أكبر ملك ، وأعقل سياسى ، وأبلغ منشئ وواعظ ، وأحكم شارع ، وأشجع قائد ، وأعظم غاز وفاتح ، وأروع متدين ، وأخلص ناصح وأكبر مرشد للناس فى جميع شئونهم الدينية والدنيوية ، وأعظم مصلح للأفكار والأخلاق والعقائد والعبادات والمعاملات ، وأوسع مؤسس ، وأدوم منشئ للدول والممالك، وهو فى كل ذلك لم يتعلم من مخلوق شيئا يكفى لإزالة جزء من ألف مما حوله من الأوهام والخرافات، ولم يتدرب أو يتدرج أو يتمرن قبل النبوّة على أى عمل مما أتى به بعد نبوته ، بل نبغ فى كل ذلك دفعة واحدة حينما ظهرت نبوته . وكلما لزمه شىء من أعبائها وجد نفسه أنه أكبر نابغ فيه . فما هذا العلم فى تلك الأمية ؟ وما هذا الإصلاح ممن نشأ فى بلاد الوثنية بعيدا عن كل نظام ومدنية ؟ :

كفاك بالعلم فى الأمى معجزة * فى الجاهلية والتأديب فى اليتم

تباركت : يا ألله : إن هو إلا وحيك إليه، وعونك وتأييدك له .

ولولاك — يا ألله — ما قدر على فتح مدينة واحدة ولا تهذيب رجل واحد : فإننا نرى الدول الأوربية بخيلها ورجلها ، وعلمها وفنونها ، ومخترعاتها وأساطيلها ، ومدرعاتها وطائراتها، وأموالها وزخرفها، ومدارسها ومستشفياتها ، وجميع تدبيراتها وخداعها — عاجزة كل العجز عن مناوأة دينك، أو صد تياره الجارف، أو الحيلولة بينه وبين قلوب البشر المترامين فى أحضانه من جميع الملل والنحل فى سائر بقاع

الأرض، حتى ضج دعاة الأديان الأخرى وهم دهشون، وهبوا لمناوأته : ليطفئوا نور الله بأفواههم . والله متم نوره ولو كره الكافرون : ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ .

(ب) نجاحه فى سياسته

(١) احتماله الأذى وتألفه من حوله

حبب إليه صلى الله عليه وسلم الانقطاع عن الناس والتفرغ لعبادة ربه والتفكير فى صنع الواحد الديان إلى أن بلغ من العمر أربعين سنة ، فانفتق له الحجاب ، وتجلى عليه النور القدسى ، وهبط له الوحى من المقام العلى ، وتحقق له ما كان يحسه من الإلهام الإلهى ، واختاره الله ، وعلمه كيف يهدى قومه والناس أجمعين ، فصدع بما أمر ، وبلغ ما أنزل إليه من المولى ، ودعا لعبادته تعالى سرا حذرا من مفاجأة الناس بأمر غريب ، فأسلم كثير من الرجال والنساء والصبيان والأشراف والموالى . كل ذلك ولم يكن معه سيف يضرب به أعناقهم ، وليس معه ما يرغبهم حتى يترك العظماء آباءهم ، ويطيعوه صاغرين ، ويتحملوا إهانة أهليهم مع أن الكثير منهم كان واسع الثروة أكثر منه عليه السلام ، ولكن الدين الحق ما حل فى قلب ولا سطع فى عقل إلا فضله على ما سواه .

ولما ألف الناس هذه الدعوة ، وجاءه أمر الله بالجهر بها بقوله تعالى : ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ وقوله : ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ لبى داعى الله ، وخاض الغمرات وسلك مفاوز النصيحة ، واقتحم ميدان الإرشاد:

صعد ذات يوم فى الصفا ، وقال : « ياصباحاه » فاجتمعت إليه قريش ، فقالوا : مالك ؟ فقال : « أرأيتم إن أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أما كنتم تصدقوننى ؟ » قالوا : بلى . قال : « فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد» فقال أبو لهب : « تبالك . ألهذا دعوتنا؟ » فنزل قوله تعالى : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ...﴾ وظل يطلب من الناس عبادة الله وحده واجتناب عبادة الأوثان

وتجافى المنكرات وهجر المحرمات بقلب ثابت ويقين راسخ وسياسة حكيمة : فمنهم من هدى الله، ومنهم من حقت عليه الضلالة . ولاقى فى سبيل ذلك من صنوف الأذى ما يعجز عنه الوصف ، وبخاصة عند ذهابه إلى البيت للصلاة : روى أن أبا جهل (عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومى القرشى) قال يوما : « يا معشر قريش : إن محمدا قد أتى ما ترون من عيب دينكم وشتم آلهتكم وتسفيه أحلامكم وسب آبائكم . إنى أعاهد الله لأجلسنّ له غدا بحجر لا أطيق حمله . فإذا سجد فى صلاته رضخت به رأسه . فأسلمونى عند ذلك، أو امنعونى . فليصنع بى بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم» فلما أصبح أخذ حجرا كما وصف، ثم جلس لرسول الله ينتظره . وغدا عليه السلام كما كان يغدو إلى صلاته — وقريش فى أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل — فلما سجد عليه الصلاة والسلام احتمل أبو جهل الحجر ، ثم أقبل نحوه حتى إذا دنا منه رجع منهزما ممتقعا لونه من الفزع، ورمى حجره من يده، فقام إليه رجال من قريش، فقالوا : ما لك يا أبا الحكم ؟ قال : قمت إليه لأفعل ما قلت لكم، فلما دنوت منه عرض لى فحل من الإبل . والله ما رأيت مثله قط . هم بى أن يأكلنى . فلما ذكر ذلك لرسول الله قال : ذاك جبريل . ولو دنا لأخذه . ولأبى جهل كثير فى إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو سائر فى دعوته عامل على نشر رسالته إلى أن صرع الحق الباطل : إن الباطل كان زهوقا .

كل ذلك فى مدى أربع سنين . فلما جاءت السنة الخامسة أمر الرسول أصحابه بالهجرة إلى الحبشة فرارا من الذى كان يلحقهم لاتباعهم إياه، خصوصا من ليس له عشيرة تحميه أو قبيلة ترد عنه كيد أعدائه ، فهاجروا فرارا بدينهم . وهى أول هجرة من مكة ، وعدة أصحابها عشرة رجال وخمس نسوة . وكان عدد المسلمين فى ذلك الوقت لايتجاوز الخمسين . فلما رأت قريش أن أمره فى الازدياد وأن الإسلام انتشر فى القبائل هموا بقتله : «قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ» فدخل مع عمه أبى طالب وبنى هاشم الشِّعب . فغضبت قريش، وقطعوا عنهم الأسواق، ومنعوهم الرزق، وأبوا الصلح إلا أن يسلموا محمدا صلى الله عليه وسلم للقتل، وكتبوا بذلك

صحيفة، وعلقوها فى جوف الكعبة . وعند دخوله الشعب أمر أصحابه بهجرة ثانية إلى الحبشة . وعدّتها ثلاثة وثمانون رجلا وثمانى عشرة امرأة . وانضم إليهم الذين أسلموا فى اليمن مع أبى موسى الأشعرى . فلما رأت قريش أن المهاجرين استقرّوا فى الحبشة التمسوا من ملكها أن يرد من هاجر إلى بلاده من المسلمين ، فردّ وفد قريش خائبا، ثم أسلم النجاشى نفسه ومن معه من القسيسين والرهبان على إثر سماعهم سورة مريم، فنزل فى حقهم قوله تعالى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ .

ولا تنس ما لاقاه الرسول ومن معه فى الشعب من شدّة الجهد والجوع : فكان لا يصل إليهم شىء إلا سراً حتى إنهم أكلوا أوراق الشجر . واستمرّوا على ذلك ثلاث سنين ، ثم خرج الرسول بعد أن نقض جماعة من قريش الصحيفة . وقد أخبر صلى الله عليه وسلم أن الأرضة أكلت ما فيها من الكتابة إلا أسماء الله . فلما أنزلوها ليمزقوها وجدوها كما أخبر صلى الله عليه وسلم، ولم يزدهم ذلك إلا بغيا وعتوا .

وفى السنة العاشرة وفد على النبى وفد من نصارى نجران فأسلموا . وقد حضرت المنية عمه أبا طالب، فجمع وجوه قريش وأشرافهم وأوصاهم بالنبى خيرا، وطلب منهم أن يكونوا من أنصاره وأعوانه، وقال « قد جاءكم بأمر قَبِله الجنان ، وأنكره اللسان مخافة الشنآن » وبعد موته اشتد أذى قريش للرسول وتعصبهم عليه . فلما رأى ذلك هاجر إلى الطائف ، ومكث شهرا كاملا . فلما لم ينل منهم خيرًا رجع إلى مكة ، ودخلها فى جوار المطعم بن عدى ، ثم أكرمه الله بالإسراء فى السنة الحادية عشرة، وكذا بالمعراج الذى فرضت فيه الصلاة، وما فتئت قريش تضع العراقيل فى طريق دعوته مما أدّى إلى خروج المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى مواسم العرب ليعرض نفسه على القبائل فعرفه نفر من الأوس الذين سمعوا وصفه صلى الله عليه وسلم من اليهود ، فقالوا فيما بينهم : والله إنه النبىّ الذى أنبأتنا به

اليهود، فلا تسبقنا إليه، وآمن به منهم ستة من الخزرج كانوا سبب انتشار الإسلام فى المدينة، ثم لقيه منهم فى العام الثانى اثنا عشر رجلا من الخزرج واثنان من الأوس، وكانت مبايعتهم للمصطفى عند العقبة : بايعوه على ما أحب — وتسمى العقبة الأولى — قائلين : «على ألا نشرك بالله شيئا، ولا نسرق ولا نزنى، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولانعصيه فى معروف، وأن نقول الحق حيث كان لانخاف فى الله لومة لائم» فقال عليه الصلاة والسلام : « فإن وفيتم فلكم الجنة » ثم انصرفوا إلى المدينة، فأظهر الله فيها الإسلام، ولم تبق دار من دور المدينة إلا وفيها ذكر الرسول .

ولما جاءت سنة ثلاث عشرة للنبوة وفد عليه من المدينة للحج كثيرون ومعهم ثلة من مشركيهم ، وحين قابله وفدهم واعدوه المقابلة ليلا عند العقبة ، فأمرهم ألا ينبهوا نائما وقتئذ ، ولا ينتظروا غائبا : لأن كل هذه الأعمال كانت خفية من قريش حتى لا يطلعوا على الأمر ، فيسعوا فى نقض ما أبرم . وتلك سياسة حكيمة ومنهج قويم .

ولما فرغ الأنصار من الحج توجهوا إلى موعدهم كاتمين أمرهم عمن معهم من المشركين — وكان ذلك بعد أن انصرم من الليل ثلثه الأول — وقد تسللوا فرادى ومثنى حتى تم عددهم سبعين رجلا وامرأتين، فبايعوه، وأسلموا عند العقبة — وتسمى العقبة الثانية — ثم نقب عليهم اثنى عشر نقيبا منهم — لكل عشرة نقيب — وقال لهم : «أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم عليه السلام، وإنى كفيل على قومى» . ثم انصرفوا إلى المدينة . وانتشر الإسلام على إثر ذلك بين أهلها تمهيدا له عليه الصلاة والسلام : ليسلك مع العرب المسلك الأعلى، وينتصر عليهم انتصاراً حربيا بعد نجاحه نجاحا سياسيا باهرا لاقى الأذى والشدائد من أجله : فقد استمر صلى الله عليه وسلم كما قدمنا ثلاث عشرة سنة يبلغ الرسالة إلى كل من أصغى إليه، وينشر دينه بين الحجيج مدة إقامتهم بمكة، ويستميل الأتباع هنا وهنالك، وهو يلق فى سبيل ذلك منابذة ومناوأة ومناصبة بالعداوة، ومجاهرة وشرا

باديا وكامنا . وكانت قرابته تحميه وتدافع عنه . وقد بلغ من الشدّة والبلاء حالا لم يرها إنسان قط : فلقد كان يختبئ فى الكهوف، و يفر متنكرا إلى هذا المكان و إلى ذاك لا مأوى ولا مجير ولا ناصر ، تتهدّده الحتوف ، وتتوعده المهلكات ، وتفغر له أفواهها المنايا .

ولما أيقن أن أعداءه متألبون عليه جميعا ، وأن أربعين رجلا يمثلون أربعين قبيلة ائتمروا به ليقتلوه ، وألفى المقام بمكة مستحيلا ، وأن القوم الظالمين لم يكتفوا برفض رسالته وعدم الإصغاء إليها ، بل أبوا إلا تماديا فى ضلالهم : يسلبون و ينهبون و يقتلون النفس التى حرم الله قتلها ، و يأتون كل إثم ومنكر . وقد جاءهم من طريق الرفق والأناة فأبوا إلا عتوا وطغيانا : لما أيقن ذلك كله أرشده الله جلت قدرته إلى الهجرة : ليتم انتصاره ، وينتشر دين الله فى الآفاق ، و يصبح المسلمون إخوانا متحابين .

(٢) حذقه فى المعاهدات واستقبال الوفود ومراسلة الملوك

بلغ صلى الله عليه وسلم من البراعة فى السياسة والبصر فى الأمور والنظر فى حسن العواقب ما يجب أن يحتذيه الزعماء والساسة على اختلاف زمانهم ومكانهم . فمن ذلك ما يأتى :

(١) معاهدة الحديبية

الحديبية (بئر قرب مكة سميت الأرض باسمها) : ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم أراد فى السنة السادسة للهجرة زيارة مكة فأخبر المسلمين أنه يريد العمرة واستنفر الأعراب الذين حول المدينة ليكونوا معه خوفا من أن تردهم قريش عن عمرتهم ولكن هؤلاء الأعراب أبطئوا عليه لأنهم ظنوا أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا وتخلصوا بقولهم : شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا . فخرج عليه الصلاة والسلام بمن معه من المهاجرين والأنصار تبلغ عدّتهم ألفا وخمسمائة ، وأخرج الهَدْى ليعلم الناس أنه لم يأت محاربا . ولم يكن مع أصحابه شىء من السلاح إلا السيوف فى أغمادها لا يقصدون شرا ولا يبطنون غدرا .

ولما وصل أصحابه إلى عسفان (موضع على مرحلتين من مكة) بلغه أن قريشا هاجها خبر مقدمه وثارت ثائرتها وأجمعت رأيها على أن يصدوا المسلمين عن مكة ، وتجهزوا للحرب ، وأعدّوا خالد بن الوليد فى مائتى فارس طليعة لهم ليصدّوا المسلمين عن التقدم . وأبى عليه السلام إلا أن يزور الحرم رغم كل مقاومة ، ثم أمر أصحابه بالنزول أقصى الحديبية حيث جاء بديل بن ورقاء سيد خزاعة موفدا من قبل قريش يسأل الرسول عن سبب مجىء المسلمين . فأخبره عليه السلام : بأننا لم تقدم لقتال أحد ولكنا جئنا معتمرين ، وإن قريشا قد نهكتهم الحرب فإن شاءوا ماددتهم مدّة نترك الحرب فيها ويخلون بينى وبين الناس . فعاد بديل وقص على قريش ما سمعه من محمد صلى الله عليه وسلم فلم يثقوا بخبره : لأنه من خزاعة التى كانت حليفة بنى هاشم فى الجاهلية قائلين له : أيريد محمد أن يدخل علينا فى جنوده معتمرا : تسمع العرب أنه قد دخل علينا عنوة وبيننا وبينه من الحرب ما بيننا ؟ والله ما كان هذا أبدا ومنا عين تطرف .

ثم انتدبوا سفيرا آخر : وهو عروة بن مسعود سيد ثقيف . فتوجه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وأخذ يثبط همته بتعظيم أمر قريش . وكان مما جاء فى كلامه قوله : إن المسلمين ليسوا من قبيلة واحدة فلا رابطة تربطهم ولذلك لا يؤمن قرارهم . فأجابه أبو بكر الصديق رضى الله عنه على الفور : إن مودّة الإسلام أعظم من مودّة القرابة .

ثم رجع عروة إلى قريش فقال لهم : والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشى . والله ما رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدا : إذا أمرهم ابتدروا أمره يقتتلون ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده إجلالا وتوقيرا وما يحدون النظر إليه تعظيما له . وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها . ولقد رأيت معه قوما لا يسلمون لشىء أبدا فانظروا رأيكم .

ومع هذا فلم يجد هذا النصح من قريش أذنا واعية ولا نفوسا قابلة فأرسلوا سفيرا ثالثا : فكان من حاله ما كان من أمر سابقيه .

ولما رأى المصطفى صلى الله عليه وسلم إخفاق سفراء قريش فى وساطتهم أرسل لهم من قبله خراشة بن أمية إيثارا للسالمة والمودة فعقروا ناقته وهموا بقتله لولا أن تداركه بعضهم فأنقذوه وردوه إلى قومه . فأراد النبى أن يرسل لهم عمر ابن الخطاب ليبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له فقال له : يا رسول الله : إنى أخاف قريشا على نفسى . وما بمكة من بنى عدى بن كعب أحد يمنعنى . وقد عرفت قريش عداوتى إياها وغلظى عليها . ولكن أدلك على رجل له بنو عم يمنعونه : وهو عثمان بن عفان . فأرسله المصطفى ومعه كتاب إلى أشراف قريش يخبرهم : أنه لم يأت إلا زائرا لهذا البيت ومعظما لحرمته فلما جاءهم عثمان أصروا على منعهم الرسول وأصحابه من الطواف مهما كانت النتيجة وأذنوا لعثمان وحده أن يطوف بالبيت فأبى عثمان ذلك فأمروا بسجنه ثلاثة أيام وأشاع الناس أنه قتل مع العشرة الذين معه فوقف النبى خطيبا بين قومه قائلا : إن كان حقا ما سمعنا فلن نبرح الأرض حتى نناجز القوم . البيعة البيعة : أيها الناس . فتوافد الناس يبايعون الرسول صلى الله عليه وسلم فنزل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

فلما سمعت قريش بأمر البيعة وبثبات النبى صلى الله عليه وسلم على عزمه خلعت ثوب خيلائها ، وأطلقت سراح عثمان ومن معه ، ثم أرسلت من قبلها سهيل ابن عمرو العامرى وحويطب بن عبد العزى — وكانا من عظماء قريش وكبار وجهائها — لعقد معاهدة مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فاستبشر بذلك النبى . وكان من حديثه مع سهيل أن قال له : لم لا تمكنونا من البيت نطوف به ؟ فأجابه سهيل : والله لا يتحدث العرب أننا أخذنا ضُغْطَة (أى بالشدة والإكراه) ولكن لك ما تريده

فى العام القابل، ثم تم الأمر على الصلح على ترك القتال، وأن توضع الحرب بينهم عشر سنين، وأن يأمن بعضهم بعضا، وأن يرجع المصطفى عنهم عامهم هذا ويأتى فى العام القابل ويخلون له مكة ثلاثة أيام، وألا يدخلوا إلا بالسيوف فى قرابها، وعلى أنه لا يأتيه منهم رجل وإن كان على دين الإسلام إلا ردّه إليهم، وألا يردّوا إليه من جاءهم من عنده . ومن أراد أن يدخل فى عهد محمد من غير قريش دخل، ومن أراد الدخول فى عهد قريش دخل فيه .

ولما تم الأمر ولم يبق إلا كتابة المعاهدة وثب عمر بن الخطاب، فجاء إلى أبى بكر، وقال له : أليس هو برسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : بلى . قال : أولسنا بمسلمين ؟ قال : بلى . قال : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ فقال أبو بكر : يا عمر : إنه رسول الله . وليس يعصى ربه وهو ناصره . فاستمسك بغرزه (ركابه) حتى تموت : فإنى أشهد أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وما كادت المعاهدة تكتب حتى حدثت أحداث استوجبت الخلاف فى تنفيذها : فمن ذلك أن أحد المستضعفين بمكة — واسمه أبو بَصير — جاء إلى المدينة هاربا ، فكتبت قريش إلى النبي تطلبه قائلة : لقد عرفت ما عاهدناك عليه من ردّ من قدم عليك من أصحابنا . فابعث إلينا بصاحبنا . فقال المصطفى لأبى بَصير : إنا قد أعطينا هؤلاء القوم عهدا . ولا يصح الغدر فى ديننا : فانطلق مع رسولهم : فقال أبو بَصير : أتردّنى إلى المشركين يفتنوننى فى دينى ؟ فقال له المصطفى : انطلق إلى قومك : فإننا لا نغدر، وإن الله جاعل لك من الضيق فرجا .

ومن ذلك أن قريشا لما شعرت بما حل بتجارتها من التعطيل والكساد بسبب تعرّض أبى بصير وشيعته فزعت إلى النبي مستصرخة به، فأرسلت أباسفيان طالبة إليه إيواء الذين فرّوا عنها ، ولا حاجة لها بردّهم، وأن تسقط هذا الشرط من المعاهدة . فقبل المصطفى ذلك، وأمر أبا بصير ومن معه أن لا يتعرّضوا لعير قريش أو رجالها .

ومن ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه في مستهل ذى القعدة من السنة السابعة أن يشدوا رحالهم إلى مكة قضاء للعمرة التى لم يؤدوها بسبب المعاهدة التى عقدت مع قريش فى العام الفائت . فلما عرفت ذلك قريش بثت روادها فى جميع السبل تترقب قدوم عسكر المسلمين . ولما ظهر لهم أن قوم محمد مسلحون أرسلوا إليه وفدا برياسة مُكْرَز بن حفص . فقالوا له : يا محمد : والله ما عرفت بالغدر صغيرا ولا كبيرا . أتدخل بالسلاح فى الحرم على قومك وقد أمنتهم وأمنوك؟ فقال لهم المصطفى : إنا لن ندخل بالسلاح ما داموا على الوفاء، وهذا السلاح الذى ترونه سنتركه فى الخارج : لنأتى به إذا حدث ما يدعو إليه .

ولما انقضت الأيام الثلاثة أرسلت قريش إلى النبي تطلب إليه الخروج لانتهاء المدّة المضروبة . فقال لرسولهم : ماذا عليكم لو تركتمونا بينكم أياما ؟ فقال رسولهم : ناشدتك الله أن تخرج : قد مضت الأيام الثلاثة . فأجابه النبى : إنا فاعلون فى المساء إن شاء الله . وأمر من يؤذن فى الناس بالرحيل . ولما رأت قبائل العرب ما أظهره الرسول من الوفاء بالعهد والمحافظة على الوعد رغبت فى محالفته، وأقبلت على معاهدته ، فتوثقت عرا المودّة بينه وبين تلك القبائل ، وتم بينه وبينهم التناصر .

تأمل أن المصطفى كان معه جيش عظيم يمكنه من دخول مكة فاتحا ، ولكنه اجتنب القتال وقبل شروطا رآها عمر رضى الله عنه غير لائقة بالإسلام وكرامته : ليكون قدوة صالحة لأهل الزعامة فى سعة الحيلة وبعد النظر وسداد الرأى ونيل المطالب من أنبل سبلها . ولذلك قال أبو بكر رضى الله عنه : ما كان فتح الإسلام أعظم من فتح الحديبية، ولكن الناس قصر رأيهم عما كان بين محمد وربه ، والعباد يعجلون، والله لا يعجل لعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد .

تأمل صلح الحديبية وما ظهر فيه من البراعة السياسية تر أن المصطفى صلى الله عليه وسلم آثر السلم على الحرب مع ما صار إليه المسلمون وقتئذ من المنعة والقوة والقدرة على الفتك بأعدائهم : لأن هذا الصلح أدّى إلى اختلاط المسلمين بالمشركين،

وإسماعهم القرآن، وتبليغهم حقيقة الدين ، وإرسال الرسل لتبليغ ملوك جزيرة العرب وما اتصل بها من الشام ومصر وفارس . فصار الناس يدخلون فيه آمنين مقتنعين، وأظهر الإسلام فى هذه الهدنة من كان يخفيه بين المشركين خوف الفتنة.

وناهيك برهانا على عظم شأن هذه المعاهدة أن الله تعالى أنزل سورة الفتح فى تعظيم شأنها مبينة ما فيها من الحكم والمصالح ومشتملة على أخبار الغيب والوعد بالنصر والمغانم ، فسماها الله فتحا مبينا ، وأعقبها نصرا عزيزا : لأنها كانت تمهيدا لفتح مكة الذى أتم الله به النعمة على الأمة العربية، والعالم أجمع .

(ب) استقبال الوفود

ومما هو أدل على براعته السياسية وسديد تصرفه حسن استقباله الوفود وإجابته مطالبهم بما تتسع له شريعته . وإليك الأمثلة :

(١) وفد نصارى نجران

وفد على المصطفى صلى الله عليه وسلم وفد نصارى نجران بالمدينة بعد الهجرة وكانوا ستين راكبا جاءوا يجادلونه فى شأن عيسى عليه السلام . وكان وصولهم إلى المدينة ودخولهم المسجد النبوى بعد دخول وقت العصر، فقاموا يصلون فيه ، فأراد الناس منعهم لما فيه من إظهار دينهم، فقال صلى الله عليه وسلم، دعوهم تألفا لهم ورجاء لإسلامهم . فاستقبلوا المشرق ، فصلوا صلاتهم ، ولما فرغوا من صلاتهم عرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، فامتنعوا .

ثم قال لهم : إن الله أمرنى إن لم تنقادوا للإسلام أبا هلكم ، فقالوا : يا أبا القاسم : نرجع فننظر فى أمرنا . فخلا بعضهم ببعض، ثم قال بعضهم : والله قد علمتم أن الرجل نبى مرسل ، وما لاعن قوم قط نبيا إلا استؤصلوا ، وإن أنتم أبيتم إلا دينكم فوادعوه، وصالحوه، وارجعوا إلى بلادكم . ثم استقر رأى جميعهم على ألا يباهلوه، واكتفوا بأن صالحوه على الجزية، ثم كتب لهم كتابا، فطلبوا إليه أن يرسل معهم أمينا، فأرسل أبا عبيدة عامر بن الجراح رضى الله عنه، وقال لهم : هذا أمين هذه الأمة.

(٢) وفد تميم الدارى وأصحابه

وفد عليه صلى الله عليه وسلم أبو تميم الدارى، وأخوه، وأربعة آخرون، وكانوا على دين النصرانية، فأسلموا، وحسن إسلامهم: وفدوا على الرسول بمكة قبل الهجرة، وسألوه أن يعطيهم أرضا من الشام، فقال لهم صلى الله عليه وسلم: سلوا حيث شئتم، وبعد أن تشاوروا سألوه بيت جَبْرُون وكُورتها، فدعا صلى الله عليه وسلم بقطعة من أَدَم، وكتب لهم كتابا نسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب ذكر فيه ما وهب محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم للداريين: أعطاه الله الأرض، فوهب لهم بيت عينون وجيرون والمرطوم وبيت إبراهيم إلى الأبد. شهد عباس بن عبد المطلب وخزيمة بن قيس وشرحبيل، ثم أعطى رسول الله الوفد كتابا، وقال: انصرفوا.

(٣) وفد عامر بن صعصعة

قدم هذا الوفد على النبي وفيهم عامر بن الطفيل عدو الله وهو سيد القوم: وكان ينادى مناديه بسوق عكاظ: هل من راحل فنحمله؟ أو جائع فنطعمه؟ أو خائف فنؤمنه؟ وكان مضمر الغدر بالنبي، فقال لأربد بن ربيعة وهو من رؤساء قومه: إذا قدمنا على محمد فإنى شاغل عنك وجهه، فإذا فعلتُ ذلك فاعْلُهُ بالسيف.

فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عامر: يامحمد: اتخذنى خليلا. قال صلى الله عليه وسلم: لا: والله حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له. فجعل يكلم النبي صلى الله عليه وسلم وهو ينتظر من أربد ما كان أمره به. وأربد لا يأتى بشيء، ويبست يده على السيف: فلم يستطع سله. وقيل: إنه لما جاء عامر إلى المصطفى صلى الله عليه وسلم وضع له وسادة ليجلس عليها، ثم قال له: أسلم ياعامر. فقال عامر: لى إليك حاجة: أتجعل لى الأمر بعدك إن أسلمت؟

فقال الرسول : ليس ذلك لك ولا لقومك : إنما ذلك إلى الله يجعله حيث شاء، ولكن لك أعنة الخيل . قال أنا الآن فى أعنة خيل نجد . أتجعل لى الوبر ولك المدر ؟ قال الرسول : لا .

وقيل : قال له : يامحمد : مالى إن أسلمت ؟ فقال : لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم . فقال : أما والله لأملأنها عليك خيلا ورجالا، ولأربطن بكل نخلة فرسا . فقال صلى الله عليه وسلم : يمنعك الله عز وجل .

ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقال : اللهم اهد بنى عامر، واشغل عنى عامر بن الطفيل : كيف شئت، وأنى شئت .

وقد مات عامر شر ميتة، وأحرقت الصاعقة أربد، وأسلمت بنو عامر .

(٤) وفد عبد القيس

كانت منازلهم بالبحرين ، وكان ممن وفد فيهم الجارود ، وكان نصرانيا قد قرأ الكتب فقال أبياتا يخاطب بها النبي صلى الله عليه وسلم . منها قوله :

يا نبى الهدى أتاك رجال * قطعت فدفدا(١) وآلا(٢) فآلا
تتقى وقع يوم عبوس * أوجل القلب ذكره ثم هالا

فعرض صلى الله عليه وسلم الإسلام على الجارود، فقال : يا محمد : إنى كنت على دين، وإنى تارك دينى لدينك . فتضمن لى ذنبى . فقال : نعم : أنا ضامن أن قد هداك إلى ما هو خير منه . فأسلم، وأسلم أصحابه .

وقيل : لما قدم الجارود على الرسول قال : بم بعثك ربك يا محمد ؟ . قال : بشهادة أن لا إله إلا الله وأنى عبد الله ورسوله ، والبراءة من كل ند يعبد من دون الله، وبإقام الصلاة لوقتها، وإيتاء الزكاة لحقها، وصوم رمضان، وحج البيت بغير إلحاد . من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها، وما ربك بظلام للعبيد . قال الجارود : إن كنت نبيا فأخبرنى عما أضمرت . فخفق الرسول خفقة كأنها سنة،

(١) المفازة . (٢) السراب .

ثم رفع رأسه والعرق يتحدّر عنه، فقال له : إنك أضمرت أن تسألنى عن دماء الجاهلية، وعن حِلْف الجاهلية، وعن المنيحة : ألا و إن دم الجاهلية موضوع ، وحلفها مردود، ولا حِلف فى الإسلام ، ألا و إن أفضل الصدقة أن تمنح أخاك ظهر دابة أو لبن شاة .

(٥) وفد عدى بن حاتم رضى الله عنه

قال عدى بن حاتم : كنت امرأ شريفا فى قومى . فلما سمعت برسول الله كرهته : ما رجل من العرب كان أشدّ كراهية له حين سمع به منى . ولما علمت أن جيش محمد قد وطئ البلاد احتملت أهلى وولدى، والتحقت بأهل دينى من النصارى بالشام، وخلفت بنتا لحاتم، فسبيت فيمن سبي . فلما قدمت السبايا على رسول الله، و بلغه هربى إلى الشام منّ عليها وكساها وحملها وأعطاها نفقة وأقبلت إلى الشام ، ثم أقامت عندى، فقلت لها — وكانت امرأة حازمة — : ماذا ترين فى أمر هذا الرجل؟ قالت : أرى والله أن تلحق به سريعا : فإن يكن نبيا فللسابق إليه فضيلة، و إن يكن ملكا فأنت أنت . فقلت : والله إن هذا لَلرَّأْىُ .

ولما ذهبت إليه قال : من الرجل؟ فقلت : عدى بن حاتم، فانطلق بى إلى بيته . و إنه لقائدنى إليه إذ لقيته امرأة كبيرة ضعيفة، فاستوقفته، فوقف لها طويلا تكلمه فى حاجتها . فقلت : ما هذا بملك . ولما دخل بيته تناول وسادة بيده من أَدَم حشوها ليف، وقال : اجلس على هذه، فقلت : بل أنت فاجلس عليها . قال : بل أنت . فجلست عليها، وجلس الرسول على الأرض، فقلت : والله ما هذا بأمر ملك، ثم قال لى : يا عدى بن حاتم : ألست من القوم الذين لهم دين؟ فقلت : بلى . فقال : ألم تأخذ ربع الغنيمة؟ (كما هو شأن الأشراف من أخذهم فى الجاهلية ربع الغنيمة) قلت : بلى . قال : فإن ذلك لم يكن يحل لك فى دينك . قلت : أجل والله . وعرفت أنه نبى مرسل يعلم ما يُجْهَل .

ثم قال : لعلك ياعدى إنما يمنعك من الدخول فى هذا الدين ما ترى من حاجتهم . فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه . ولعلك إنما يمنعك

من ذلك ماترى من كثرة عدوهم وقـلة عددهم . فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور البيت (الكعبة) لا تخاف .

ولعلك إنما يمنعك من ذلك أنك ترى أن الملك والسلطان فى غيرهم . وايم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم. قال عدى : وقد رأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها تحج البيت .

وقد أسلم عدى رضى الله عنه، وحسن إسلامه .

(٦) وفد كندة

وفد عليه صلى الله عليه وسلم ثمانون من كندة (قبيلة باليمن) فيهم الأشعث ابن قيس وكان وجيها مطاعا فى قومه وهو أصغرهم. فلما أرادوا الدخول على الرسول سرحوا شعورهم، وتكحلوا، ولبسوا جبب الحِبَرَة قد سجفوها بالحرير، ولما دخلوا عليه قالوا : « أبيت اللعن »، فقال لهم : لست ملكا : أنا محمد بن عبد الله . قالوا : لا نسميك باسمك . قال : أنا أبو القاسم . قالوا : يا أبا القاسم : إنا خبأنا لك خبئا . فما هو ؟ وكانوا خبئوا له عين جرادة فى ظرف سمن . فقال لهم : سبحان الله : إنما يفعل ذلك الكاهن . وإن الكاهن والكهانة والتكهن فى النار . فقالوا : كيف نعلم أنك رسول الله ؟ فأخذ كفا من حصباء، فقال : هذا يشهد أنى رسول الله : فسبح الحصى فى يده، فقالوا : نشهد أنك رسول الله . قال : إن الله بعثنى بالحق ، وأنزل علىّ كتابا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فقالوا أسمعنا منه. فتلا الرسول: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ حتى بلغ: ﴿وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ ثم سكت وسكن بحيث لا يتحرك منه شىء ودموعه تجرى على لحيته . فقالوا : إنا نراك تبكى . أمن مخافة منْ أرسلك ؟ قال : خشيتى منه أبكتنى . بعثنى على صراط مستقيم فى مثل حدّ السيف إن زغت عنه هلكت . ثم تلا : ﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ الآية، ثم قال لهم : ألم تسلموا ؟ قالوا : بلى . قال : فما بال هذا الحرير؟ فعند ذلك شقوه وألقوه .

(٧) وفد تُجِيب

هى قبيلة من كندة، وفد على رسول الله منها ثلاثة عشر رجلا، وقد ساقوا معهم صدقات أموالهم التى فرض الله عليهم، فسر رسول الله بهم، وأكرم مثواهم، ثم قالوا : يارسول الله : إنا سقنا إليك حق الله فى أموالنا ، فقال لهم : ردّوها : فاقسموها على فقرائكم . قالوا : ما قدمنا عليك إلا بما فضل من فقرائنا ، فقال أبو بكر : يارسول الله : ما قدم علينا وفد من العرب مثل هذا الوفد، فقال الرسول : إن الهدى بيد الله عز وجل : فمن أراد به خيرا شرح صدره للدين .

ثم جعلوا يسألونه عن القرآن والسنن، فازداد رسول الله رغبة فيهم. ولما أرادوا الرجوع جاءوا إليه فودعوه، فأرسل إليهم بلالا : فأجازهم بأرفع ما كان يجيز به الوفود .

ثم قال لهم النبي عليه السلام : هل بقى منكم من أحد ؟ فقالوا : غلام خلفناه على رحلنا وهو أحدثنا سنا ، فقال : أرسلوه إلينا ، فأقبل الغلام ، وقال : يارسول الله : إنى من الرهط الذين أتوك آنفا فقضيت حوائجهم فاقض حاجتى . فقال : وما حاجتك ؟ فقال : والله ما أخرجنى إلا أن تسأل الله أن يغفرلى ، ويرحمنى ، ويجعل غناى فى قلبى . فقال الرسول : اللهم اغفر له ، وارحمه ، واجعل غناه فى قلبه . ثم أمر له بمثل ما أمر لرجل من أصحابه .

(٨) وفد بنى سعد هذيم من قضاعة

قدم وفد بنى سعد هذيم ، ونزلوا ناحية من المدينة ، ثم خرجوا يؤمون المسجد حتى انتهوا إلى بابه ، فوجدوا الرسول يصلى على جنازة فى المسجد ، فلم يدخلوا مع الناس فى صلاتهم ، وقالوا : ننتظر حتى يصلى رسول الله ، ونبايعه : ثم انصرف رسول الله ، ونظر إليهم ، فدعاهم ، فقال : أمسلمون أنتم ؟ قالوا : نعم . فقال : هلا صليتم على أخيكم ؟ فقالوا : يا رسول الله : ظننا أن ذلك لا يجوز لنا حتى نبايعك ، فقال : أينما أسلمتم فأنتم مسلمون . فأسلموا ، وبايعوه على الإسلام ،

ثم انصرفوا إلى رحالهم، وكانوا قد خلفوا فيها أصغرهم، فبعث الرسول فى طلبهم، فجاءوا ومعهم صاحبهم، فتقدم، فبايع الرسول على الإسلام، فقالوا : إنه أصغرنا، فقال : أصغر القوم خادمهم . بارك الله عليه . فكان خيرهم وأقرأهم للقرآن، ثم أمّره رسول الله عليهم : فكان يؤمهم .

ولما أرادوا الانصراف أمر بلالا : فأجازهم بأوان من فضة لكل رجل منهم . ثم رجعوا إلى قومهم، فأسلموا .

(ج) مراسلته للملوك

لم يكتف بهذا كله، بل جاء صلى الله عليه وسلم رحمة عامة بشيرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، فأخذ يراسل الملوك ويدعوهم إلى دين الإسلام : كقيصر ملك الروم، وكسرى ملك الفرس . وقد مزق الكتاب استكبارا، فمزق الله دولته، وملكها المسلمون فيما لا يزيد على أربع سنوات كما ملكوا دولة الرومان على عظمتها واتساعها وكثرة جيوشها . وأرسل بقية الملوك والأفراد : فأسلم النجاشى ملك الحبشة والمنذر بن ساوى، وأكرم المقوقس رسوله، ورد قيصر ردا جميلا . ومما جاء فى كتابه :

بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام : أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين . فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين : ﴿ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ .

كان هذا فى حين أن وفود العرب كانت تفد طوعا زرافات ووحدانا مشاة وركبانا لاعتناق الإسلام : فأسلم كثير من القبائل عن طيب نفس إذعانا لله

وخضوعا لدينه ، وصرع الحق الباطل -- إن الباطل كان زهوقا — وأباد جحافل الأعداء، ومزقها تمزيقا، ولم يبق إلا قبائل الشام والعراق .

ثم حج صلى الله عليه وسلم حجته المشهورة بحجة الوداع، وقد بين فيها أهم أصول الدين وفروعه . وفى هذا اليوم نزل قوله تعالى ممتنا على المؤمنين : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ ثم رجع صلى الله عليه وسلم من حجة الوداع ، وجهز جيشا لغزو قبائل الشام التابعة للروم . وقبل سيره اشتد عليه مرضه صلى الله عليه وسلم، فجعل يرفع يديه إلى السماء ثم يضعها على رأس أسامة فودعه أسامة ورجع إلى المعسكر ، وأمر الناس بالرحيل . وإذا بالرسول يقول : توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

مما تقدم يتبين أنه صلى الله عليه وسلم لقى من الأذى ضروبا كثيرة، وكافح صعابا جمة ، فلم تهن عزيمته، ولم تفتر همته، بل ثبت فى نشر دعوته ومناجزة عدوه ثبات الصادق فى أمره المستيقن من نفسه ، فتم له أعظم نجاح حصل عليه أحد من قبله ومن بعده، وترك دينا خالدا أحيا به الأمم، وأزال به الغمم، وجعله نورا يستضىء به بنو الإنسان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

(ج) نجاحه فى حروبه

قد أبنا فيما تقدم ما لاقاه المصطفى صلى الله عليه وسلم من ضروب الأذى والتضييق الكبير والأهوال العظيمة : فطالما أزاح عقبة كأداء، وخاض بحرا هائجا، وسلك مفاوز مهلكة ، فثبت غير حافل بهول ولا عابئ بمشقة، بل احتمل هذه الملمات، وصمد لتلك المصاعب : يريد نشر دعوته فنشرها ، وأحرز فيها النصر الإلهى العظيم : ﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ﴾ .

فلما تم له الفوز فى سياسته أذن الله له بالهجرة — بيد أن أهل مكة لما رأوا وثيق اتصاله بأهل المدينة وسرعة انتشار الإسلام فيها، وخشوا أن ذلك قد يفضى

إلى تحريض أهلها عليهم، دبروا حيلة لقتله وإبطال دعوته، ولكن خاب فألهم، وضل سعيهم: إذ خرج مهاجرا إلى المدينة يصحبه صديقه الحميم. وكانت هذه الهجرة هى السبب الأعظم لظهور دين الإسلام ونشره بعد أن قضى عليه الصلاة والسلام ثلاث عشرة سنة، وهو مضيق عليه فى نشر دينه القويم. فلما علم المشركون بفساد مكرهم ضاع رشدهم وهاجوا وجعلوا لمن يأتى به أو يدل عليه مائة ناقة. فأعمى الله أبصارهم عن رؤيتهما. وبعد ثلاث ليال جاءهما الدليل بالراحلتين فى غار حراء، فسارا قاصدين المدينة، ثم نزل صلى الله عليه وسلم بقباء ومكث بها مدة أربعة أيام، وكان نزوله فى بنى عمرو بن عوف، وبنى فيها مسجده الذى أسس على التقوى من أول يوم، وكان ذلك عند دخول الشمس فى برج الميزان — وهو أول الاعتدال الخريفى فى الزمان — فكان ذلك رمزا لما فى شريعته من الاعتدال وكونها آخر الشرائع الإلهية التى يبلغ بها الدين غاية الكمال.

ولما استقر عليه الصلاة والسلام فى المدينة أرسل فى طلب من تخلف من أهله، فمنع مشركو مكة بعضا من المستضعفين، وعذبوهم وحبسوهم، ولم يمض غير قليل حتى انتشر الإسلام فيها، فهاج ذلك اليهود، وغاظهم رسوخ قدم الإسلام، فتمكنت العداوة فى نفوسهم، وتحزبوا على المسلمين مع أنهم كانوا يستفتحون على المشركين بنبى يبعث وقد قرب زمانه — غير أن حب الرياسة أعماهم، فاستعظموا الأمر، وساعدهم على هذا جماعة من عرب المدينة المنافقين. ثم عقد الرسول مع اليهود عقدا على أن يتركوا أذاه، ويترك محاربتهم.

مشروعية القتال

لم يكن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سيف يضرب به أعناق الناس ليدخلوا فى دين الله أفواجا، بل كان الأمر مقصورا على الدعوة إلى الدين الحنيف. وتحمل فى سبيل ذلك أذى كثيرا ومعارضة شديدة وبغيا وحسدا، ومع ذلك كان ومن معه صابرين على الأذى والضيم إلى أن فرج الله عنهم بالهجرة، وأباح لهم مكافحة

أعدائهم الذين جاهروهم بالعدوان ، فأذن له صلى الله عليه وسلم بالقتال : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ .

أخذ ينشر دين الله بين القبائل بالدعوة ويدفع بالقوة كل اعتداء ينشأ دفاعا عن نفسه وعن المسلمين وحماية للدعوة من معارضيها ، ولم يقاتل إلا من قاتله أو اعتدى على المسلمين : ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ فنجم عن ذلك إرسال الجيوش : سرية إثر سرية وغزوة تتبعها غزوة حتى مكن الله له فى الأرض ، وتكفل بحفظ دينه من العبث : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ .

طلع عليهم طلوع البدر التمام ، وسفر لهم سفور الشمس ليس دونها غمام ، ومحا بنور الإسلام والإيمان ظلمات الأوثان والأصنام ، وأزال بالقرآن والبرهان جميع الشكوك والأوهام . ومن لم يتمنع بفصيح القول و بديع البيان أقنعه بفصيح السيف وحد الحسام . واستمر صلى الله عليه وسلم يجاهد فى الله حق جهاده ، و ينشر دينه فى بلاده وعباده مدة عشر سنين لم يسترح فيها غمضة عين ليقينه أنه على الحق . ومن كان على الحق فعليه أن ينشره باللسان أو السيف أو أى أداة أخرى حتى طهرت الأرض من عبادة الأوثان ، وسطعت أنوار الإيمان ، وامتلأت الدنيا بعبادة الرحمن ، وخذل أهل الكفر والعدوان مع اجتهادهم وتحزبهم فى كل زمان ومكان على محو دينه و إطفاء نوره : ﴿ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ . فدخل الناس فى الدين أفواجا ، وكثرت سراياه حتى قاربت الستين ، و بلغت مغازيه سبعا وعشرين : قاتل فى تسع منها بنفسه ، فأظهر فيها ما يفخر به أعظم قواد هذا الزمان من إحكام الخطط وحسن التدبير و إتقان النظام ودل أصحابه فيها على صدق فى محبته و إخلاص فى الولاء له : تأمل غزوة بدر الكبرى ، وما يليها من الغزوات :

غزوة بدر الكبرى

تدبر هذه الغزوة وما تم فيها من النصر المبين وإعزاز الإسلام وأهله مع قلتهم وإذلال المشركين على كثرتهم وما كانوا فيه من سوابغ الحديد والعدّة الكاملة والخيول المسوّمة والخيلاء الزائدة : وعدّتهم فى ذلك ألف محارب، ومائة فرس، وسبعمائة بعير . وعدد المسلمين لا يبلغ إلا أربعمائة، وثلاثة أفراس، وسبعين بعيرا. ولم يمنعهم من ملاقاتهم قلتهم، بل قام المقداد بن عمرو وقال : « يا رسول الله : امض لما أمرك الله فنحن معك . والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : « فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ » بل : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون . فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى بَرْك الغماد (يعنى مدينة الحبش) لجالدنا معك من دونه حتى نبلغه . فدعا له النبي صلى الله عليه وسلم بخير . ثم قال سعد بن معاذ : « قد آمنا بك، وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة . فامض يا رسول الله لما أردت ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك : ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن نلقى عدوّنا . وإنا لصُبُر عند الحرب، صُدُق عند اللقاء . ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك . فسر بنا على بركة الله تعالى » فسر النبي عليه الصلاة والسلام بقول سعد، ونشطه على ذلك، ثم قال : « سيروا على بركة الله ، وأبشروا : فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين . والله لكأنى أنظر الآن إلى مصارع القوم » وعين مصارعهم فما تعدوها . فالتقى الفريقان ببدر — وكان يوما من أشدّ الأيام هولا — ودارت الدائرة على قريش ، وانهزموا انهزاما كبيرا، وقتل فى هذه الغزوة أبو جهل وصناديد قريش، وأيد الله المسلمين : ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ . بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾

الآيات . وأعز الإسلام وأهله ، فرجعوا إلى المدينة فرحين مسرورين بهذه النصرة العظيمة . وقد امتن الله عليهم بالآيات المتقدمة .

وليست بقية الغزوات دونها فى خذلان الأعداء ورفع كلمة الإسلام وإعزاز جيشه، بل كانت كلها آيات بينات : فهاك غزوة الخندق وما أحرزه فيها المسلمون من التأييد العظيم والفوز الكبير مع أن عددهم لم يتجاوز ثلاثة آلاف فى حين أن جيش الأحزاب عشرة آلاف رجل جاء وهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وظن المسلمون بالله الظنون . فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بضرب الخندق على المسلمين، وأرسل من جيشه خمسمائة مقاتل لحراسة المدينة خوفا على النساء والأولاد، وهجم الأعداء من كل صوب وناحية ، فسلط الله عليهم ريحا شديدة ليلا : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ فانهزموا، وجعلوا يرتحلون هربا، ولم تقو الأحزاب مع كثرتهم على محاربة المسلمين المستضعفين . وظهر عند ضرب الخندق آيات من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم . بل انظر غزوة الفتح :

غزوة الفتح

تجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتائب الإسلام وجنود الرحمن وقال : «هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة، ويوم تكسى فيه الكعبة » وبعث إلى من حوله من قبائل العرب ، وأمر خالد بن الوليد ومن معه أن يدخل مكة من أسفلها ، وألا يقاتل إلا من قاتله . ودخل صلى الله عليه وسلم من أعلاها ، فاندفع خالد فصدته قريش ، فقاتلهم وهزمهم وانتهى بهم القتال إلى باب المسجد، فارتفعت طائفة منهم إلى أعلى المسجد ودخلوا الدور . ثم قال صلى الله عليه وسلم لخالد : لِمَ قاتلت وقد نهيتك عن القتال ؟ فقال : هم بدءونا بالقتال وقد كففت يدى ما استطعت ، فقال : « قضاء الله خير» ثم وضع رأسه صلى الله عليه وسلم تواضعا لله لما رأى ما أكرمه الله تعالى به

من الفتح المبين حتى إن رأسه لتكاد تمس رجله شكرا وخضوعا لعظمته جل وعلا : إذ أحل له بلده، ولم يحله لأحد قبله ولا بعده .

ثم أمن الرسول أهل مكة، وأمر أبا سفيان بعد إسلامه أن ينطلق إلى قريش فيعلن أن من دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن — إلا أشخاصا أهدر دمهم لمساويهم: ومنهم من قتل، ومنهم من أسلم بعد. ثم دخل الكعبة وحولها ستون وثلثمائة نصب، فجعل يشير إليها ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل» «جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد» ثم أمر بالآلهة فأخرجت . وطهر الله الكعبة البيت الحرام من هذه المعبودات الباطلة، واستبدل بها عبادة الله الواحد القهار، وخرج صلى الله عليه وسلم إلى مقام إبراهيم، وصلى فيه وشرب من ماء زمزم، ثم جلس بالمسجد — والأبصار شاخصة إليه : لترى ما هو فاعل بمشركي مكة ألد أعدائه الذين آذوه وأخرجوه من بلاده وهموا بقتله مرارا وقاتلوه — فقال : (يامعشر قريش : ما ترون أني فاعل بكم ؟) قالوا : خيرا : أخ كريم وابن اخ كريم . فقال : اذهبوا فأنتم الطلقاء — (الذين أطلقوا فلم يسترقوا ولم يؤسروا) — فعند ذلك أخذ الناس يبايعونه على الإسلام رجالا ونساء، وأسلم جميع أهل مكة .

ثم أرسل صلى الله عليه وسلم السرايا لهدم أصنام القبائل، فهدمت صوامع وبيع ، ولم يقف عند هذا الحد ، بل أرسل جيشا إلى اليمن وعلى رأسه علي بن أبي طالب وقال له : « سر حتى منزل باحتهم فادعهم إلى قول لا إله إلا الله : فإن قالوا : نعم . فمرهم بالصلاة . ولا تبغ منهم غير ذلك . ولأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك مما طلعت عليه الشمس . ولا تقاتلهم حتى يقاتلوك » وقال أيضا : « إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر » وبعد ذلك أرسل من يعلمهم : فأرسل معاذ بن جبل، وأبا موسى الأشعري، وقال لهما: «يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا » .

تأمل كل هذا، وراجع باقى جميع غزواته : غزوة غزوة تجد ما يدهشك : من النصر المؤيد، والفوز العظيم بنظام محكم وتدبير سديد : كغزوة خيبر وفيها أعظم المهيجين للأحزاب، وغزوة الخندق وبها جمهرة اليهود . وكانت ذات حصون ومزارع . فقاتلهم النبي، وقاتلوه أشدّ القتال، وفتحها حصنا حصنا . وهكذا بقية الغـــزوات .

فأى نجاح أعظم من تأسيس ملة حكيمة وأمة عظيمه ودولة عادلة رحيمة قال فى حقها « غوستاف لوبون الفرنسى » : « ماعرف التاريخ فاتحا أعدل ولا أرحم من العرب » ؟

وأى فوز أسنى من تبليغ دين يظل عزيزا ما أقام أهله الحق ، واعتصموا بالعدل ؟ فجزاه الله عنا أفضل ما جزى به نبيا عن قومه ورسولا عن أمتــه، وصلى الله و بارك عليه وعلى أهل بيته الطاهرين ، وأكثر فى أمته من الناسجين على منواله إلى يوم الدين .

*

الباب السابع

محمد صلى الله عليه وسلم أوفى الأنبياء دينـا

تمهيـــــد

اقتضت حكمة الله أن يخلق النـاس مفطورين على طبائع حسـنة تعينهم على انتظام أحوالهم ، وعلى طبائع تخالفها : ليتسابقوا فى عمران هـذا الكون الذى قدر وجودهم فيـه إلى أجل مسمى . وإن الطبائع السيئة لا تقف عنـد حد المسابقة والمنافسة ، بل تأتى من ضروب الطغيان ما يجعل ضررها أكبر من نفعها : ولذلك اقتضت حكمته تهذيبها ووقفها عند حدها النافع ، فبعث الرسل لكسر سورتها حتى تصطبغ بصبغة يظهر بها نفعها ، و يزول عنها ضرها . وحينئذ تسمى أخلاقا حسنة .

والرسل عليهم السلام يصلون إلى ذلك من طريقين : الترغيب ، والترهيب . وخير عمل لهم على إدراك ذلك ما طبعهم الله عليه من الصفات الكاملة : كالصدق والأمانة والقيام بالحق فى جميع أحوالهم مع البر والإحسان والنصيحة لكل إنسان وتنزههم عمـا لا يليق بمنصب رسالتهم من الوقوع فى المعاصى والاتصال بسفساف الأمور . وما وقع منهم من صـور المعصية فحكمته الإشـارة إلى انفراد الله تعالى وتوحده بالكمال المطلق . ولا ينافى أبدا أنهم أكمل الخلق وصفوة الناس .

لا شك فى أن العالم لم يخل من دين منذ الخليقة . وكان التنزيل فى كل عصر مساوقا لمـا وصل إليه الإنسان من الرقى العقلى والخلق . فلما بُعث محمد صلى الله عليه وسلم بالذكر الحكيم أماط اللثـام عن أغراض أسمى ومقاصـد أرفع : إذ بين ان مقاصد الدين إنهاض الإنسان وتنمية ملكاته واستثمار غرائزه جسما وعقلا وخلقا : ليبلغ ما أعدّه الله له من التقدّم والرقى ... :

ذلك بأن مثل الإنسان عند الله كمثل سائر السنن الكونية فيه ضروب من الاستعداد والمقدرة والملكات الكامنة، والحق جل جلاله أراد إخراجها إلى عالم الوجود لاستبطان مافى الكون من آى وعبر و بدائع ينتفع بها الخلائق فى معاشهم ومعادهم — بيد أن الإنسان ركبت فيه ميول هى فى أصلها أشبه بالميول الحيوانية، وجرت سنة الله فى السنن الكونية أن يخرج الوسيم من الذميم والمليح من القبيح، وكذلك جعل هذه الميول الحيوانية بذورا تثمر أشجارها الحضارة والمدنية، فأرسل النبى العربى الأمى صلى الله عليه وسلم: ليكشف الأسرار التى انطوى عليها الإنسان، وليبين كيف يرقى من رتبة الحيوانية إلى مرتبة الملائكة الأطهار .

ولم يسلك محمد صلى الله عليه وسلم فى استكناه هذه الأسرار مسلك من سبقوه من المصلحين فى الاقتصار على النصح السديد والموعظة الحسنة وتأدية فرائض الصوم والصلاة والأدعية والقرابين، بل جمع إلى ذلك مسلك المعلم الماهر فى التشريع :

فصل ما استكن فى العقل الإنسانى صغيره وكبيره، ووضع للغرائز الحيوانية نظاما يكفل الهيمنة عليها واستخدامها لمنفعة بنى الإنسان واتخاذها أساسا لعلو الهمة والمدافعة عن النفس والوطن والاحتفاظ بالمال والشرف وما إلى ذلك من الكمالات الإنسانية .

لاجرم أن الغريزة ينشأ عنها قوتان : القوة الغضبية والقوة الشهوية . ولهاتين القوتين مسالك منوعة : فمنها الجيد، ومنها الردىء، ومنها المحمود، ومنها المذموم : فإن كانت القوة الغضبية فى صورتها المذمومة نشأ عنها الحقد والعداوة والهوى وحدة الخلق والاستبداد والغيبة والقذف والجبن والنفاق، وإن كانت فى صورتها المحمودة نشأت عنها الشجاعة والإقدام وعلو النفس والصبر والمثابرة والتسامح والوداعة والحلم والتواضع والصفح، وإن كانت القوة الشهوية فى صورتها المحمودة نشأ عنها الحب والوفاء والرحمة والكرم والرضا والإيثار والثقة والاعتماد على الله، وإن كانت فى صورتها المذمومة نشأ عنها ضعة النفس والشح والشره والعجب والحسد والخيانة وما إلى ذلك .

وهنالك القوة العاقلة فإذا ثقفت أخذت بناصية القوتين الأخريين وصرفتهما التصريف الحسن .

انفرد الذكر الحكيم باشتماله على استكناه العقل الإنسانى وبيان ملكاته وصفاته . وظاهر أن كل شىء فى الكون صائر إلى كماله بسيره فى سبيل معدة له ، ومن ذلك مافى الإنسان من الملكات الجسمية والعقلية والخلقية . ووسيلة ذلك الدين الصحيح القائم على الفهم والتفكير : فقد خرج الإنسان من طور الاكتفاء بالقضايا البراقة التى لايدعمها دليل ولا برهان، وأصبح غير سائغ فى شريعة العقل أن يتحول الخسيس رفيعا بسحر زائف، بل لا بد فى طريق الكمال من جهاد دائم وعمل متواصل وهداية بنور العقل الأرفع الذى يدرك أسرار النفس الإنسانية .

من أجل ذلك جاء محمد صلى الله عليه وسلم بشريعة رفع بها الإنسان من حيوانيته إلى ملكيته، وهدى الناس إلى استخراج الفضائل مما فيهم من القوتين الغضبية والشهوية ، وأوضح جميع ضروب الخير وضروب الشر ، وبين المأمورات والمنهيات، وهدى الناس إلى قسطاس مستقيم يزنون به ميولهم ونزعاتهم وأعمالهم وأحوالهم : وهو التخلق بأخلاق الله : فقد ورد فى الحديث الشريف : « تَخَلَّقُوا بِأَخْلَاقِ اللهِ » .

لا ريب أن التخلق بأخلاق الله يستدعى المجاهدة العظيمة بالاتصاف بصفاته جل شأنه من حلم وكرم وسخاء ورحمة وقوة وعدل، ويستدعى أيضا العلم بالله بما يستطيع الحادث أن يعلم من القديم : لأنه لا يمكن التخلق بأخلاقه إلا إذا حصل العلم بحاله جل شأنه من العظمة والرفعة والقدرة . ولهذا تضمن القرآن الكريم طائفة من أسمائه الحسنى : تقريبا لأذهان البشر، وتمكينا لهم من أن يتأسوها . وليست هى كل ما لله جل شأنه من أخلاق وصفات، بل إنها هى التى يستطيع الإنسان أن يجاهد عسى أن يتصف بها .

ومن هذا يتجلى أن محمدا عليه الصلاة والسلام جاء للعالم بما قرب لهم فهم الألوهية، وأوضح لهم أن الله هو رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين الذى

فطر الخلائق ، وأودعها أسرارها ومزاياها ، وكفل لهـا أرزاقها وأقواتها ووسائل نموها بمـا يجعلها تبلغ كمالهـا بعد أن تجتاز أطوارا لامحيص منها فى سبيل التـدرج والارتقاء كما جرت سنته فى جميع الكائنات :

هو الرحمن الذى أحسن كل شيء خلقه وجعـل لكل شيء مزية ترتجى منـه فى كل طور من أطوار نمـوه . وكل ما أودعه إياها من المنافع والمزايا لم يكن بكسب منها، بل بمحض فيضه وحكمته و إرادته .

وهو الرحيم الذى يجزى خلقه عما يفعلون من الخير والحسنات أضعافا مضاعفة رحمة بهم ومحبة لهم . ومعظم هـذا الخير يجعله الله فى ملكاتنا ومواهبنا المكنونة . و إذا سلك عباده مسالكا خطأ فى سيرهم نحو الارتقاء فليس حتما عليه أن يعاقبهم : لأنه سيد قوانينه، وهو المتصرف المطلق فيها : ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّـا يَفْعَلُ ﴾ .

وهو مالك يوم الدين ، ورحمته سبقت غضـبه : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ .

غير أنه إذا اقتضت حكمته — تعـالى شأنه — أن لاصلاح للذنب الأثيم إلا بالعقوبة عاقبه بمـا يصلحه و يجعله عبرة لغيره .

إذا تأملت هذه النعوت الإلهية انكشف لك مظهرها فى كل ذرة من ذرات الكون فى خلقها ونموّها وتدرجها .

أليس فى هـذا برهان كاف على وجوب التأسى بالله فى هذه النعوت الحسنى ؟ بلى : لوفقه ولاة الأمور فى الناس هذا الدين الحنيف، وسلكوا فى عباد الله ما يشعر بتخلقهـم بأخلاق رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين لتحققت المملكة التى تمناها عيسى عليه السـلام، والتى استقرت على وجه الأرض فى عهـد محمد صلى الله عليه وسلم .

ولهذا الدين الحنيف مقاصد نجملها فيما يلى :

مقاصد الإسلام

تمهيد

اقتضت حكمة الله تعالى أن يرسل لكل أمة رسولا يخصهم بأوامره ، ولا يتجاوزهم بنصائحه . ولما ارتقت العقول واستعدت للهدى والعرفان وأراد الله تعميم الخير وتوحيد المعاملات فى دار الدنيا أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم بدين الحق ليظهره على الدين كله، وأرسله للناس أجمعين ، وأمره أن يصدع بالحق ، ويجهر بالدعوة غير هياب ولا وكل . ولاقى فى سبيل ذلك من الشدائد مازاده قوة، ومن الإهانة ماثبت عزيمته، وقوى إيمانه .

ولم تقتصر رسالته صلى الله عليه وسلم على الإنس ، بل تعدتهم إلى الجن ، فاهتدوا بهديه، وانتفعوا بإرشاده، فقالوا : ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ .

أرسل صلى الله عليه وسلم من بلد ليس لذويه عهد بملك أو إدارة مملكة أو دراسة فنون مع توافر ذلك فى الممالك حولهم، لا، بل فى ديار منعزلة عن الأمم، أهلها فى شقاق دائم، ونزاع لا ينتهى، وشرور وآثام فيها منغمسون . وقد رعاه الله من صغره لحفظه ، وتربى يتيما فقيرا : لا ثروة له ولا جاه، ولا عز ولا سلطان .

فلما أوحى الله إليه بما أوحى أعجز الفصحاء، وحير الحكماء، وأذهل العلماء، فلم يمض عليه غير زمن قصير حتى دانت لدينه رقاب دول القياصرة والأكاسرة من اليونان والفرس، وخشعت لعزة الله، مع ما كان عليه أصحابه صلى الله عليه وسلم من قلة الثروة وضعف الآلات والأدوات، فلم ترهبهم تلك العظمة الظاهرة والقوة الباهرة والسلطان المالى، بل تعاهدوا على التفانى فى الحق ونصرته، فوهن عدوهم وملأ الرعب قلبه، ولم تغن عنه أمواله وما ادّخر، ولم تنفعه حصونه وما شيد ، بل انهار كل ذلك أمام الدفاع عن الحق و إعلاء كلمة الله — وكلمة الله هى العليا —

وحطمت سنابك الخيول الإسلامية العربية كل ركن مشيد ، وأوهنت الصولة الصديقية الفاروقية كل عظيم شديد، ولم تضعف قوتهم قلة المال، ولا أوهنت حدتهم تقلبات الأهوال، بل ظلت الأيام تخدمهم والليالى تنقاد لهم إلى أن أيد الله كلمته ، وأعلى شريعته ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا على أيدى أناس كانوا بعيدين عن منابع العلم والعرفان ، وليس عندهم سوى ما أفاض الله على رسوله من الأحكام القرآنية والأوامر المحمدية ، فكانوا يهتدون بهداها ويسترشدون بحكمتها ، فوصلوا فى أقل من قرن إلى درجة من العز والعلم والسلطان والثروة لم يصل إليها الرومان واليونان فى قرون وأجيال .

وما زالت براهين الدين الإسلامى تتجلى فى كل عصر بما يناسبه وفى كل مجتمع بما يلائمه حتى لم يبق شك فى صلاحيته لكل زمان ومكان : فهو الكفيل بالسعادة فى الدارين : لأنه جمع بين العبادات للآخرة، والمعاملات للدنيا ، وكل فريضة من فرائضه وحكم من أحكامه له حكمة تهدى إلى النجاح، وترشد إلى طريق الفلاح .

وخلاصة القول: أن الله قد اصطفى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم، وخصه برسالته للناس أجمعين : ليعم الخير والهدى . ولم ينزل عليه القرآن دفعة واحدة كمن سبقه من الأنبياء، بل كان ينزل وفقا للحوادث والمناسبات والضرورات : ليكون الواقع برهانا على صحة ما ينزل من الحكم الإلهى . وما زالت الفيوضات الربانية تتوالى مشفوعة بالتأييد من الله وتلبية الناس لدعوته إلى أن تمت الأصول المقدسة بقوله تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ فقبض إذ ذاك سيد الكائنات ، ولكن شريعته لا تزال إلى الآن سندا قويا وركنا مكينا وحقا ساطعا : ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ وكان هذا دليلا واضحا على ما له من المكان الأعلى والمقام الأسمى عند الله ، وكانت المقاصد الآتى ذكرها شعاره ومبادئه التى أوصى الله بها إليه . وبالتمسك بها وأنت الأرض لدين الله، وخشع أهلها لعزته وجبروته :

المقصد الأوّل

إعداد الفـــــرد فى ذاته

وسبيل ذلك ما يأتى :

(ا) غرس العقيدة الصحيحة فيه

لا ريب فى أن الدين الإســلامى ، لا ، بل سائر الأديان قــد جاءت لبيان ما يرشد الخلق إلى معرفة الله تعالى : باعتقاد وجوده ، واتصافه بصفات الكمال ، وتنزهه عن صفات النقصان : بجميع الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام من لدن آدم عليه السلام إلى سيدنا محمد خاتم النبيين اتفقوا على مقصد واحد: هو توحيد الله تعــالى، واعتقاد اتصافه بجميع صــفات الكمال، وتنزهه عن صفات النقصان، وانفراده بأن يعبــد وحده لا شريك له . ومدار القرآن المجيد كله فى العقائد إنمــا هو على هذا القطب : قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًــا وَاحِدًا ﴾ ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُــولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْــهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ .

حقا لقد كان التوحيــد شائعا فى بلاد العرب قبل الإســلام من عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام — غير أنهم على تمــادى الدهور دخلت عليهم الأحداث وعبادة الأصــنام، فكانوا كما وصــفهم الله فى كتابه الكريم : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ فجاء الإسلام ما حيا لمــا كانوا عليه، مجددا للتوحيد على أكمل الوجوه وأشرف المقاصــد، ناسخا ما تقــدّمه من الأحداث والتغييرات التى شابت الدين الخالص بعد الرسل .

فالإسلام هو دين الفطرة التى فطر الله النــاس عليها : قال تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ .

فتوحيــد الله هو أساس الدين وأعظم أركانه : لأنه ســبيل الإخبات لرب العالمين الذى هو أجل الصفات المكسبة للسعادة . وقد نبه الكتاب العزيز والنبى

الكريم على عظم أمره وكونه من أنواع البر والخير بمنزلة القلب : إذا صلح صلح الجميع ، وإذا فسد فسد الجميع : قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ » .

ومظاهر هذا التوحيد أربعة :

الأول : قصر وجوب الوجود عليه تعالى فلا يكون غيره واجبا .

والثانى : اختصاصه بخلق السموات والأرض وما بينهما .

والثالث : أن ذاته واحدة لا تعدد فيها مطلقا .

والرابع : أنه منفرد بتدبير الملك والملكوت والتصرف فيهما .

وسائل تكوين العقيدة الصحيحة

دعا الله عباده فى كتابه الكريم إلى التفكر فى الموجودات : ليعرفوا ما له من صفات الوجود والوحدانية وصفات الكمال ونعوت الجلال : من عموم قدرته وعلمه وتمام حكمته ورحمته وإحسانه وبره ولطفه وعدله ورضاه وغضبه وثوابه وعقابه :

فمن ذلك خلق الإنسان : وقد ندب الله سبحانه إلى النظر فيه فى غير موضع من الذكر الحكيم : قال تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴾ ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ

لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ .

اشتمل القرآن الكريم على كثير من أشباه هـذه الآيات وجه فيها نظر الإنسان إلى التفكر فى مبـدأ خلقه ووسطه وآخره : إذ خلقه من أعظم الدلائل على خالقه وفاطره ، وأقرب شيء إلى الإنسان نفسه ، وفيه من العجائب الدالة على عظمة الله ما تنقضى الأعمار فى الوقوف على بعضه :

ألم تر ما اشتمل عليه جسم الإنسان : من الأعصاب والعظام والعروق والأوتار، وكيف ربطت يد القدرة بعضها ببعض أقوى رباط وأشدّه وأبعده عن الانحلال، وكيف كسيت العظام لحما جعل وعاء لها وغشاء وحافظة ؟

ثم انظر الحكمة البالغة فى تركيب العظام قواما للبدن وعمادا له ، وكيف قدّرها ربها وخالقها بمقادير مختلفة وأشكال متنوّعة : فمنها الصغير والكبير، والطويل والقصير، والمنحنى والمستدير، والدقيق والعريض، والمصمت والمجوف .

ثم تأمل خلق الرأس وما فيه من العظام الكثيرة ، وكيف ركبه سبحانه وتعالى على البدن ، وجعله عاليا علو الراكب على مركوبه ، وكيف جعل فيه حواس السمع والبصر والشم والذوق واللمس ، وجعل حاسة البصر فى مقدمه ليكون كالطليعة والحرس والكاشف للبدن، وركب كل عين من سبع طبقات : لكل طبقة وصف مخصوص ومقدار مخصوص ومنفعة مخصوصة . ولو زالت طبقة من تلك الطبقات السبع أو اختلت هيئتها لتعطلت العين عن الإبصار . وأركز المبدع جل وعلا داخل تلك الطبقات السبع إنسان العين بقدر العدسة يبصر به ما بين المشرق والمغرب والأرض والسماء، وجعله من العين بمنزلة القلب من الأعضاء : فهو ملِكها، وتلك الطبقات والأجفان والأهداب خدام له وحجاب وحراس . فتبارك الله أحسن الخالقين .

ثم تأمل صنع الله فى ملكوت السموات وعلوها وسعتها واستدارتها وعظم خلقها وحسن بنائها وعجائب شمسها وقمرها وكواكبها ومقاديرها وأشكالها وتفاوت مشارقها ومغاربها : فلا ذرة فيها تنفك عن حكمة وعبرة .

والقرآن الكريم مفعم بذكر السموات والأرض وما بينهما . ومن تتبع حكمة ترداد ذكرها وجدها : إما إخبارا عن عظمتها وسعتها، وإما إقساما بها، وإما دعاء إلى النظر فيها، وإما إرشادا إلى العباد أن يستدلوا بها على عظمة بانيها ورافعها، وإما استدلالا منه بربوبيته لها على وحدانيته وأنه الله الذى لا إله إلا هو، وإما استدلالا منه بحسنها واستوائها والتئام أجزائها وعدم الفطور فيها على تمام حكمته وقدرته ، وكذلك ما فيها من الكواكب والشمس والقمر والعجائب التى تتقاصر عقول البشر عن قليلها : فكم من قسم فى القرآن بها كقوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾ ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾ ﴿ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴾ ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴾ ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴾ .

وهو سبحانه يقسم بمخلوقاته الدالة على ربوبيته ووحدانيته : ليتعرف بها إلى عباده، وليدركوا قدرة من أمسك السموات مع عظمها وعظم ما فيها، وثبتها من غير علاقة من فوقها ولا عمد من تحتها : ﴿ اللهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ ﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ﴾ ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ ﴿ هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ .

وكذلك : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

دعا القرآن الكريم إلى الاعتبار بوضع هذا العالم وتأليف أجزائه، ونظمها على أحسن نظام وأدلّه على كمال قدرة خالقها وكمال علمه وكمال حكمته وكمال لطفه ، وجعله كالبيت المبنى المعد فيه جميع مرافقه ومصالحه وكل شىء يحتاج إليه :

فالسماء سقفه المرفوع عليه ، والأرض مهاد و بساط وفراش ومستقر للساكن ، والشمس والقمر سراجان يزهران فيه ، والنجوم مصابيح له تزينه وأدلة للتنقل فى طرق هذه الدار ، والجواهر والمعادن مخزونة فيه كالذخائر والحواصل المهيأة ، كل شيء فيها لشأنه الذى يصلح له ، وضروب النبات مهيأة لمآربه ، وصنوف الحيوان مصروفة فى مصالحه : فمنها الركوب ، ومنها الحلوب ، ومنها الغذاء . ومنها اللباس والأمتعة . وجعل الإنسان كالملك المخول فى ذلك المحكَّم فيه والمتصرف بفعله وأمره .

كل أولئك أدلة قاطعة على أن العالم مخلوق بخالق حكيم قدير عليم قدره أحسن تقدير ، ونظمه أجل نظام .

جلت حكمة الله فى صنعه : ألبس الإنسان خلع الكرامة كلها من العقل والعلم والبيان والنطق والشكل والصورة الحسنة والهيئة الشريفة والقد المعتدل واكتساب العلوم بالاستدلال والفكر واقتناص الأخلاق الشريفة الفاضلة من البر والطاعة والانقياد ، وجعل العالم قرية له وهو رئيسها : الكل مشغول به ساع فى مصالحه ، والكل قد أقيم فى خدمته وحاجاته ، والأفلاك سخرت منقادة دائرة بما فيه مصالحه ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات جاريات بحساب أزمنته وأوقاته وإصلاح رواتب أقواته ، والعالم الجوى مسخر له برياحه وهوائه وسحابه وطيره ، والعالم الأرضى كله مسخر له مخلوق لمصالحه : أرضه وجباله وبحاره وأنهاره وأشجاره وثماره ونباته وحيوانه : ﴿ وَلِتَجْرِىَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) .

بهذه الايات وأشباهها بين القرآن الكريم أن السائر فى معرفة آلاء الله وتأمّل حكمته وبديع صفاته أطول باعا وأملأ صواعا من اللصيق بمكانه المقيم فى بلد عادته وطبعه راضيا بعيش بنى جنسه لا يرضى لنفسه إلا أن يكون واحدا منهم يقول : لى أسوة بهم : (وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر) وجهل أن نفائس البضائع ليست إلا لمن امتطى غارب الاغتراب ، وطوف فى الآفاق ، فاستلان ما استوعره المتعطلون، وأنس بما استوحش منه الجاهلون، فقوى إيمانه، وصحت عقيدته، وأقر إقرارا صحيحا بتوحيد الله وصفات كماله ونعوت جلاله وحكمته فى خلقه وأمره المقتضية إثبات رسالة رسله ومجازاة المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته، وبان له أن كل ذلك مركوز فى الفطرة ، وأنها لو خليت على ما خلقت عليه لم يعرض لها ما يفسدها أو يحولها عن فطرتها ولأقرت بواحدانية الله ووجوب شكره وطاعته وبصفاته وحكمته فى أفعاله وثوابه وعقابه، وأنها لما فسدت وانحرفت عن المنهج الذى خلقت عليه أنكرت ما أنكرت وجحدت ما جحدت ، فبعث الله رسله مذكرين لأصحاب الفطر الصحيحة السليمة : ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ فانقادوا طوعا واختيارا ومحبة وإذعانا بما جبل من شواهد ذلك فى قلوبهم حتى أن منهم من لم يسأل عن المعجزة والخارق، بل علم صحة الدعوة من ذاتها ، وعلم أنها دعوة حق برهانها فيها . وهذا أعظم مايكون من الإيمان، وهو الذى كتبه سبحانه فى قلوب أوليائه وخاصته، فقال جلت حكمته : ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ .

وصفوة القول أن القرآن الكريم احتوى فى باب إصلاح العقيدة ما لو اجتمعت عقول العالمين كلهم فكانوا على عقل أعقل رجل واحد منهم ما أمكنهم أن يقترحوا شيئا أحسن منه ولا أعدل ولا أصلح ولا أنفع للخليقة فى معاشها ومعادها. فهو أعظم آياته وأوضح بيناته وأظهر حججه على أنه الله الذى لا إله إلا هو ، وأنه المتصف بكل كمال المنزه عن كل نقصان .

دلت طريقة القرآن على أن الله أثبت فى الفطرة حسن العدل والإنصاف ، والصدق، والبر والإحسان، والوفاء بالعهد، والنصيحة للخلق ، ورحمة المسكين ،

ونصر المظلوم، ومواساة أهل الحاجة والفاقة، وأداء الأمانات، ومقابلة الإحسان بالإحسان، والإساءة بالعفو والصفح، والصبر فى مواطن الصبر، والبذل فى مواطن البذل، والانتقام فى مواضع الانتقام، والحلم فى موضع الحلم، والسكينة والوقار، والرأفة والرفق، والتؤدة وحسن الأخلاق، وجميل المعاشرة مع الأقارب والأباعد، وستر العورات، وإقالة العثرات، والإيثار عندالحاجات، وإغاثة اللهفات، وتفريج الكربات، والتعاون على أنواع الخير والبر، والشجاعة، والسماحة، والبصيرة، والثبات والعزيمة، والقوة فى الحق، واللين لأهله، والشدة على أهل الباطل، والغلظة عليهم، والإصلاح بين الناس، والسعى فى إصلاح ذات البين، وتعظيم من يستحق التعظيم، وإهانة من يستحق الإهانة، وتنزيل الناس منازلهم، وإعطاء كل ذى حق حقه، وأخذ ما سهل عليهم وطوعت به نفوسهم من الأعمال والأموال والأخلاق، وإرشاد ضالهم، وتعليم جاهلهم، واحتمال حقوقهم، واستواء قريبهم وبعيدهم فى الحق: فأقربهم إليه أولاهم بالحق وإن كان بعيدا، وأبعدهم عنه أبعدهم من الحق وإن كان قريبا حبيبا، إلى غير ذلك من معرفة العقل الذى وضعه بينهم فى المعاملات وما أودع فطرهم من حسن شكره وعبادته . وإن نعمه عليهم توجب بذل قدرتهم وطاقتهم فى شكره والتقرب إليه وإيثاره على ما سواه .

وأثبت فى الفطرة علمها بقبيح أضداد ذلك، ثم بعث رسله للأمر بما أثبت فى الفطر حسنه أوكماله وللنهى عما أثبت فيها قبحه ونقصانه، فطابقت الشريعة المنزلة الفطرة المكملة مطابقة التفصيل لجملته، وقامت شواهد دينه فى الفطرة تنادى للإيمان : (حى على الفلاح) وصدعت تلك الشواهد والآيات دياجى ظلم الجحود والنكران كما صدع الليل ضوء الصباح، وقبل حاكم الشريعة شهادة العقل والفطرة : ﴿ فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

حسب العقول الكاملة الفاضلة أن أدركت حسن القرآن، وشهدت بفضله، وأنه ما جاء إلى العالم دين أكمل ولا أجل ولا أعظم منه : فهو نفسه الشاهد

والمشهود له ، والحجة والمحتج له ، والدعوى والبرهان . ولو لم يأت المصطفى صلى الله عليه وسلم ببرهان عليه لكفى به برهانا وآية وشاهدا على أنه من عند الله : فكله شاهد لله سبحانه بكمال العلم وكمال الحكمة وسعة الرحمة والبر والإحسان والإحاطة بالغيب والشهادة والعلم بالمبادئ والعواقب ، فهو أعظم نعم الله التى أنعم بها على عباده : فما أنعم عليهم بنعمة أجل من أن هداهم له ، وجعلهم من أهله وارتضاه لهم وارتضاهم له : ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ .

وجلى أن وصف الدين الذى اختاره الله للعالم بالكمال والنعمة التى أسبغها عليهم بالتمام دليل على أن هذا الدين لا نقص فيه ولا عيب ولا خلل ، وأنه هو الكامل فى حسنه وجلاله ، وأنه دائم متصل . ومن أجل ذلك كان بعض السلف الصالح يقول : «ياله من دين لو أن له رجالا» : وذلك القول الحق .

الدين فى حاجة إلى أولى البصائر النافذة الذين شهدت بصائرهم هذا النور المبين فكانوا منه على بينة ويقين ومشاهدة لحسنه وكماله بحيث لو عرض على عقولهم ضده لرأوه كالليل البهيم .

وهذا هو الفرقان بينهم وبين من وصفهم الإمام على كرم الله وجهه بأنهم أتباع كل ناعق ، يميلون مع كل صائح ، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق .

وكذلك بينهم وبين من حرموا بصيرة الإيمان جملة ، فلا يرون من آيات الله إلا الظلمات والرعد والبرق ، ولا تجاوز أنظارهم ما وراء ذلك من الرحمة وأسباب الحياة الأبدية .

أما الرجال الذين يرفعون شأن الإسلام ويعلون كلمته فهم أولو البصيرة والعزيمة الذين أدركوا أن رب العالمين أحكم الحاكمين والعالم بكل شىء والغنى عن كل شىء والقادر على كل شىء ، وأن من شأنه هذا لا تخرج أفعاله وأوامره أبدا عن الحكمة

والرحمة والمصلحة، وما يخفى على الناس من معانى حكمته فى صنعه وإبداعه وأمره وشرعه يكفيهم فيه معرفته بالوجه العام أن فيه حكمة بالغة وإن لم يعرفوا تفصيلها، وأن ذلك من علم الغيب استأثر الله به، وحسبهم فى ذلك الإسناد إلى الحكمة البالغة العامة الشاملة التى علموا ما خفى منها بما ظهر لهم .

شاهد أولو العلم والبصر سنة التبديل والتغيير والتحويل فى الموجودات فأدركوا إمكان المعاد وما جاء به الرسل فيه، وظهر لهم أن القرآن والسنة إنما دلا على تغيير العالم وتحويله وتبديله لا جعله عدما محضا كما ذهب إليه الملاحدة الفلاسفة :

لاجرم أنهما دلا على تبديل الأرض غير الأرض، والسموات غير السموات ، وعلى تشقق السماء وانفطارها، وتكوير الشمس، وانتثار الكواكب، وسجر البحار ، وعلى أن القبور تبعثر، والجبال تسير ثم تنسف وتصير كالعهن المنفوش، والأرض تميد وتدنو الشمس من رءوس الناس . وكل هذه أمور لا مطمع للعلم فى الاعتراض عليها، أو القدح فى حصولها .

أرأيت أن القرآن الكريم يخبر بأن الله سبحانه يحيى العظام بعد ما صارت رميما، وأنه علم ما تنقص الأرض من لحوم بنى آدم وعظامهم فيرد ذلك عند النشأة الثانية ، وأنه ينشئ تلك الأجسام بعينها بعد ما بليت نشأة أخرى ويرد إليها أرواحها بنفسها ؟ وليس فى القرآن والسنة ما يفيد أن الله يعدم الأرواح، ثم يخلقها خلقا جديدا، أو أنه يفنى الأرض والسموات، ويجعلها عدما صرفا، ثم يجدد وجودهما ، وإنما تضافرت النصوص على تبديلهما وتغييرهما . والعلم لا يجرؤ على إنكار ذلك .

لكن واحسرتاه لم تعط النصوص حقها، نخفيت، وفهم منها خلاف مرادها، وسلطت عليها الآراء، فتضاعف البلاء ، وعظم الجهل ، واشتدت المحنة وتفاقم الخطب . وسبب ذلك كله الجهل بما جاء به الرسول وبالمراد منه . فليس للعالم أنفع من الاستماع لما جاء به الرسول وعقل معناه : ففيه الخلاص والنجاة . وأما من لم يسمعه ولم يعقله فهم الذين قال الله فيهم جل شأنه : ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ .

(ب) تجميل ظاهره وتهذيب طبائعه بالعبادة

إن الله — جلت حكمته — ميز الإنسان باستعداده لقبول عبادة خالقه بما منحه من العقل والنطق، وخصه بهما دون سائر الحيوان والجماد، فكلفه العبادة وحده. وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا. لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾.

وظاهر أن المراد بالأمانة (والله أعلم) احتمال عهد التكليف وما ينجم عنه من الثواب والعقاب بالطاعة والمعصية: فالإنسان بطبيعته واستعداده وقابليته تلقى هذا التكليف، والسموات والأرض والجبال لعدم استعدادهن وقابليتهن بفطرتهن لم يستطعن تحمله. وما أجمل قوله تعالى فى حق الإنسان: ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ فإن الظلوم من لا يكون عادلا ومن شأنه أن يعدل، والجهول من لا يكون عالما ومن شأنه أن يعلم. وتلك حال الإنسان. أما غيره فصنفان: صنف عالم عادل لا يعتوره الظلم والجهل أبدا: وهؤلاء هم الملائكة. وصنف غير متصف بالعدل والعلم وليس من شأنه ذلك كله: كالبهائم والجمادات.

وإذ خص الله — سبحانه وتعالى — الإنسان دون غيره بنعمة التفكير أطلق له النظر فى السموات والأرض وما فيهما من الأفلاك والكواكب والحيوان والنبات والمعادن وغيرها: ليستخدمها فى إصلاح معيشته: تأمل قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ. وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ. وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾.

ثم أوجب عليه الشكر باستدامة ذكره والخضوع لأوامره والوقوف عند أحكامه وحدوده ، وعلمه أن العبادة له وحده دون سواه : تأمل ما جاء فى قوله صلى الله عليه وسلم لمعاذ : يا معاذ : (هَلْ تَدْرِى مَا حَقُّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ)؟ قال معاذ : الله ورسوله أعلم. قال : (فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ أَلَّا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا) .

جلت حكمة الله فى هذا الدين الحكيم : فقد طلب إلى الناس أن يعبدوه ، وجعل عبادته وسيلة لتجميل ظواهرهم ، وتهذيب طبائعهم ، وتكوين عاداتهم ، وإصلاح سرائرهم . وإليك البيان :

أمر الإنسان بالوضوء قبل الصلاة لتجميل مواطن نظر الخلق : بإزالة ما أصاب أعضاء الوضوء من ملامسة الأشياء ، ومما يحمله الهواء من التراب ، وتخرجه المسام من العرق ، وتقذفه المنافذ من الأقذار . وبهذا يستجمله المصلون ، ويألفه المؤمنون . على أن فى غسل أعضاء الوضوء محافظة على الصحة بدفع عوامل الأمراض والوقاية منها : فقد ثبت طبيا أنها تدخل فى الجسم من المنافذ التى يعمها الوضوء . فإذا أزيل عنها ما عليها مما يمنع بروز العرق وتصاعد الأبخرة كان ذلك أحفظ للصحة وأدعى للسلامة .

هذا إلى أنه ليس فى البدن ما يتحرك للمخالفة أسرع من أعضاء الوضوء . فكان فى غسلها التنبيه على الاعتناء بطهارتها الباطنة : وهى التوبة من ذنوبها الكثيرة الوقوع . يشهد بذلك ترتيبها فى التطهير على حسب إسراعها للمخالفات وكثرة وقوعها فى الآثام :

ألا ترى أنه يقدم الوجه الذى لا يوجد أكثر منه فى الأعضاء مخالفة : لاشتماله على الفم الذى آفته أكثر من أن تحصى ، والأنف والعينين اللذين تقرب ذنوبهما من ذنوبه ؟ ثم تطهر بعده اليدان اللتان يكون البطش بهما بعد التكلم باللسان والنظر بالعينين غالبا ، ثم الرأس المجاور للوجه الذى هو كثير الذنوب . واكتفى فيه بالمسح : لأن مجاورة المذنب أخف من ارتكاب الذنب فضلا عما فى غسله من الحرج :

تأمل قول ابن عباس رضى الله عنهما : « شرع غسل الكفين للأكل من موائد الجنة ، والمضمضة لكلام رب العالمين ، والاستنشاق لروائح الجنة ، وغسل الوجه للنظر إلى وجه الله الكريم ، وغسل اليدين إلى المرفقين للسوار ، ومسح الرأس للتاج والإكليل ، ومسح الأذنين لسماع رب العالمين ، وغسل الرجلين للمشى فى الجنة » .

وأمره بالطهارة العامة لإزالة الروائح الكريهة التى تضر صاحبها والمصلين ، وتستوجب سخطهم عليه ، واستقذارهم إياه وميلهم إلى التباعد عنه ، والنفور من التقرب منه ، مع أنه منهى عن تجنبهم والإضرار بهم ، مأمور بالإحسان إليهم والاختلاط بهم ، لا سيا فى مجالس الخير كصلاة الجماعة التى أكدها الشرع ، وحث عليها العقل .

ومن أسرارها انشراح النفس ونشاطها : لأن لها بالبدن ارتباطا قويا لا يجحد ، فكل تأثير فى الجسم يظهر أثره فى النفس : فإذا نظف الجسم انشرحت النفس ، وذهب كسلها وجاء نشاطها ، وسهل عليها إحسان العبادة والإتيان بها على الوجه الأكمل . ومن ظفر بذلك خفت عليه عبادة ربه ، وكان على القيام بها و بأعماله الدنيوية أقدر .

ومن أسرارها أن فى تنظيف الظاهر بالماء إشارة إلى تنظيف الباطن من الأخلاق الرديئة والعقائد الفاسدة : فقد جاء فى الخبر : « الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ » ولا يكون كذلك وهو مقصور على نظافة الظاهر . لهذا قصد الشارع الحكيم أن يغرس فى الناس خلق نظافة الظاهر : ليطهروا بواطنهم ، فيتخلوا عن الأخلاق الذميمة ، ويتحلوا بالسجايا المحمودة ، ويتنزهوا عن العقائد الزائفة ، ويتمسكوا بالمشروع منها : فإنه إذا استحكمت الموافقة تعذرت المفارقة .

وأمره بالصلاة لما يأتى :

(١) إن الصلاة إذا أديت على الوجه المطلوب من الخشوع والتعظيم والحياء غيرت ماجبلت عليه نفس الإنسان من الهلع الناجم عن الركون إلى حظوظ الدنيا

و إيثار العاجل على الآجل : لأن وقوف المصلى بين يدى ربه يتضرع إليه ويستحضر خشيته فى قلبه ويتذكر عظمته ويخاف عقابه يهوّن عليه حرصه على العاجل ، ويقوّى رغبته فى الآجل .

(٢) خلق الإنسان بفطرته غير ثابت فى أحواله : إن رزقه الله خيرا بطر وطغى ومنع حقه فيه ، وإن رزقه الشر جزع وسخط : فإذا أدّى الصلاة كل يوم خمس مرات فى أوقاتها الراتبة توطنت نفسه على الثبات وقوّة الجأش ، وخضوعها لجميع ما يجرى عليها من خير وشر : لعلمها أن الخير والشر من الله الذى تقف بين يديه خمس مرات مقرّة بربوبيته معترفة بوحدانيته .

مما تقدّم يتبين أن الصلاة وسيلة إلى تغيير قبيح الأخلاق وأدناها : وهو شدّة الحرص الذى هو أصل المفاسد والأخلاق الذميمة من التحاسد والتباغض إلى أجمل الأخلاق وأعلاها من اطراح الحرص وما ينجم عنه ، وأنها تكسب صاحبها الثبات والمثابرة وقوّة العزيمة ، وتوطن النفس على النظام والتؤدة والتروّى فى الأمور . وإلى فضل الصلاة فى هذا المعنى يشير قوله تعالى : (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا . إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا . إِلَّا الْمُصَلِّينَ) .

(٣) إن الصلاة تحول بين صاحبها وارتكاب المنكر : لأنها بما اشتملت عليه من الذكر والقراءة والركوع والسجود ومظاهر الخضوع لله سبحانه وتعالى تجعل المصلى خالى الفكر من الشواغل الدنيوية مستحضرا خشية الله بقلبه متضرعا إليه ممتثلا لإرادته ومشيئته . وبذلك ترتدع عن الشهوات ، وتعدل عما كانت تصر عليه من الآثام والمنكرات : لأن الإقرار بعظمة الله قولا وفعلا يدل دلالة واضحة على أن المصلى لاينابز صاحب العظمة والكبرياء بالعصيان أو يجاهره بالمنكر . وإلى هذا السر العظيم يشير القرآن الكريم فى قوله تعالى : (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) .

(٤) إن توقيت الصلاة بأوقات راتبة وأزمان مترادفة سبب لاستدامة الخضوع لله تعالى والابتهال إليه، فلا تنقطع الرهبة منه ولا الرغبة فيه . وإذا لم تنقطع الرغبة والرهبة استدام صلاح الخلق .

(٥) إن أهل كل بلد محتاج بعضهم إلى بعض كما جرت بذلك سنة المعيشة : فمنهم الغنى والفقير والعالم والجاهل والقوى والضعيف . فيجتمعون فى الصلاة : لتتحد كلمتهم، وتتوثق عرا المودّة والمحبة فيما بينهم، ويتعاونوا على ما يجلب لهم الخير، ويدفع عنهم الضير: لأن الجيران إذا اجتمعوا فى المسجد خمس مرات فى اليوم والليلة لعبادة ربهم وإصلاح دينهم تيسر لهم إصلاح أمر دنياهم : إذ حصول التعارف والمودّة بينهم يستدعى الرحمة والشفقة وحب بعضهم بعضا : فلا يجدون بينهم محتاجا إلا نفضوا عنه غبار الحاجة ، ولا مضطرا لإعانة إلا مدّوا إليه يد المساعدة ، ولا غائبا إلا بحثوا عن أسباب غيبته : فإن علموه مريضا عادوه ، أو مشرفا على خطر أنقذوه ، أو متقاعدا لكسل عاتبوه . وهذا ما كان يفعله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — ويأمر به : فقد روى أنه قال: « تفقدوا إخوانكم فى الصلاة . فإن فقدتموهم : فإن كانوا مرضى فعودوهم، وإن كانوا أصحاء فعاتبوهم » .

(٦) تعويد المؤمنين الحرية وإشراب قلوبهم المساواة والإخاء: لأن الإنسان إذا اعتاد الوقوف فى صف يكون فيه السيد بجانب المسود والمخدوم قريبا من الخادم — والكل ذليل بين يدى مولى عزيز — لم يجد له فى هذا الموقف فضلا على غيره ، بل ربما رأى غيره ممن هو أقل منه درجة فى الدنيا أفضل عبادة منه . فإذا انصرف من مكان الصلاة استحيا أن يرى لنفسه حقا فى ادعاء السيادة أو التفرد بالحرية . .

(٧) إن فى صلاة الجماعة واتباع المصلين لإمامهم فى جميع أعمال الصلاة تعويد النفوس الطاعة والانقياد للرؤساء كما نرى رؤساء الجند يأخذونهم بأعمال يعلمون أنهم لا تمكنهم مراعاتها وقت الحرب . وإنما القصد منها ألفة نفوس

الجند للطاعة والانقياد لأمر الرئيس. وقد فطن لهذا السر (رستم) قائد جيش الفرس حين رأى الصحابة يصلون خلف إمامهم، ويتحركون لحركته، ويسكنون لسكونه.

وأمره بالصوم لما يأتى :

(١) ليس القصد بالصوم مجرد الإمساك عن الأكل والشرب عن كل مفطر من الفجر إلى الغروب، بل المقصود أثر ذلك : وهو كف النفس عن الاسترسال فى ميولها التى أمرنا بمجاهدتها بسلاح الصبر والتقوى. ولا يتحقق ذلك الأثر إلا بكف اللسان عن الهذيان والفحش والغيبة والنميمة والكذب والمراء، وكف السمع عن الإصغاء إلى كل مكروه، ومنع البصر من النظر إلى جميع ما ينافى خشية الله تعالى : لقوله صلى الله عليه وسلم : « النَّظَرُ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ لَعَنَهُ اللهُ فَمَنْ تَرَكَهَا خَوْفًا مِنَ اللهِ آتَاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِيمَانًا يَجِدُ حَلاَوَتَهُ فِى قَلْبِهِ » . وإلى هذه الحكمة البالغة من الصوم يشير الله تعالى فى كتابه الكريم بقوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ أى تتخذون من الصوم وقاية تحول بينكم وبين الميول المرذولة والمنكرات وسائر الموبقات . وجاء فى الحديث الشريف ما يبين مدلول الآية : إذ يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « إِنَّمَا الصَّوْمُ جُنَّةٌ فَإِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ صَائِمًا فَلاَ يَرْفُثْ وَلاَ يَجْهَلْ وَإِنِ امْرُؤٌ قَاتَلَهُ أَوْ شَاتَمَهُ فَلْيَقُلْ إِنِّى صَائِمٌ» ومعنى هذا أن الصوم وقاية يتحصن بها الصائم من عدويه (النفس والشيطان): فالنفس بكبحها عن الاسترسال فى ميولها ومتابعتها فى غلوائها، والشيطان بقهره بمدافعة تلك الميول التى هى وسائله . وإنما تقوى تلك الميول بالأكل والشرب : وفى هذا يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ الشَّيْطَانَ لَيَجْرِى مِنِ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ مِنَ الْعُرُوقِ فَضَيِّقُوا مَجَارِيَهُ بِالْجُوعِ» .

(٢) إن سبب الأمراض فى الغالب الأكل والشرب وحصول فضلة الأخلاط فى المعدة . وحسبك ما ينشأ عن الأمراض من تنغيص العيش ومقاساة الآلام الشديدة وعدم القدرة على أداء الواجبات الدينية والدنيوية . وقد أشار إلى

ذلك النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : « الْبِطْنَةُ أَصْلُ الدَّاءِ وَالْحِمْيَةُ رَأْسُ الدَّوَاءِ » فصوم شهر فى السنة تطهير للمعدة مما تخلف فيها من فضلات الطعام طول العام .

وقد قال لقمان لابنه وهو يعظه : يا بنى : إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة، وخرست الحكمة ، وقعدت الأعضاء عن العبادة . وقد وصف الحسن البصرى رحمه الله تعالى فى قصصه نقص الإنسان بالطعام وغيره فقال : مسكين ابن آدم : محتوم الأجل، مكتوم الأمل، مستور العلل، يتكلم بلحم، و ينظر بشحم، ويسمع بعظم، أسير جوعه، صريع شبعه، تؤذيه البقة ، وتنتنه العرقة ، وتقتله الشرقة ، لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا .

(٣) إن من اعتاد قلة الأكل والشرب كفاه من المال قدر يسير، ومن تعوّد الشبع جعل بطنه غريما ملازما له آخذا بخنقه كل يوم يطالبه بمطالبه المتنوعة التى قد تدفعه إلى السرقة، أو القمار، أو إراقة وجهه ، وارتكاب ضروب الذلة والدناءة وخسة النفس .

(٤) إن منع النفس من مشتهياتها وسيلة إلى أن تسكن لربها، وتخشع له، ويتبين لها عجزها إذ ضاقت حيلها وأظلمت عليها الدنيا : لشعورها بالحاجة الشديدة إلى يسير الطعام وقليل الشراب . والمحتاج إلى الشيء ذليل به . وفى هذا حث له على أن يخلع عن عاتقه رداء الكبر، ويخضع لخالقه ورازقه ، ويعامل خلق الله بحسن الخلق ولين الجانب، فتتم الرأفة والمودّة والمساعدة والمعاونة .

وقد أثبت الطب أن كثيرا من جراثيم الأمراض لا يقتلها سوى الصوم . ولذلك يشير الأطباء فى كثير من الأحايين على المرضى بالصوم .

(٥) الصوم سبيل تعود الصبر والثبات على المكاره : فإن الصائم يكلف نفسه البعد عن مشتهياتها من الأكل والشرب وما إليهما، ويذودها عن ذلك بعزم قوى وصبر حسن . فلو رغبته بأعظم الرغائب على أن يتناول من الطعام ذرة أو من الشراب قطرة ما وسعه ذلك . ووجد لذلك فى نفسه ما يكدر خاطره، وينغص

عيشه . ومن اعتاد مقاومة نفسه عند نزوعها إلى ميولها أصبح لعقله السلطان على بقية قواه . ومن السعادة أن يملك الإنسان نفسه، لا أن تملكه نفسه .

(٦) إن من يرعى الأمانة فى هـذه العبادة فى سره وعلانيته جدير بأن يؤتمن على أنفس شىء وأعظمه . وفى ذلك من حسن السيرة ما به يكون صاحبه من أجل الناس قدرا .

هـذا إلى أن المحافظة على تأدية هذه العبادة فى أشـد الأمكنة خفية وأبعدها عن أعين الرائين دليـل على كمال المروءة وعلو الهمة ووفرة الحياء . وما المروءة إلا المحافظة على الأحوال التى تكون بها النفس على أفضل حال وأكملها . وقد استوعبها صلى الله عليه وسلم فى قوله : « إِنَّ مُرُوءَةَ الرَّجُلِ مَمْشَاهُ وَمَدْخَلُهُ وَمَخْرَجُهُ وَمَجْلِسُـهُ وَإِلْفُهُ وَجَلِيسُهُ » .

وما الحياء إلا ثلاثة أمور :

أحدها : امتثال أوامر الله عز وجل، والكف عن زواجره، وحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وترك زينة الحياة الدنيا، وذكر الموت والبلى .

وثانيها : كف الأذى عن النـاس، واطراح مجاهرتهم بالقبيح، واتقاؤهم : فلا خير فيمن لا يستحيي من الناس . وإلى ذلك يشير بشار بن برد : إذ يقول :

ولقد أصرف الفؤاد عن الشى * ء حياء وحبـه فى السـواد

أمسك النفس بالعفاف وأمسى * ذاكرا فى غد حديث الأعادى

وهـذا النوع من الحياء من كمال المروءة وحب الثناء . وإليه يشـير الحديث الشريف : « مَنْ أَلْقَى جِلْبَابَ الْحَيَاءِ فَلَا غَيْبَةَ لَهُ » : وذلك لقلة مروءته، وضعفه أمام ميوله .

وثالثهـا : حياء الإنسان من نفسـه بعفتها وصيانتها فى الخلوات كما قال بعض الحكماء : ليكن استحياؤك من نفسك أكثر من استحيائك من غيرك .

وكما قال بعض الشعراء :

فسرى كإعلانى وتلك خليقتى * وظلمة ليلى مثل ضوء نهاريا

وجلى أن من استكمل هذه الأمور الثلاثة من الحياء كملت فيه أسباب الخير، وانتفت عنه أسباب الشر، وصار بالفضل مشهورا، وبالجميل مذكورا .

(٧) إن كف النفس عن مشتهياتها ومنعها عما تبغيه مجاهدة عظيمة لها دالة على توافر الشجاعة الأدبية . والشجاعة الأدبية أساس الفضائل، وعنوان محاسن الشمائل : ولقد قال صلى الله عليه وسلم : « رَجَعْنَا مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ » : وهو جهاد النفس، ومكافحة ميولها وأهوائها .

(٨) إن الصائم يعانى خلال صومه من حرارة الجوع ولظى الظمأ ما يدفعه إلى إعانة من رآه محتاجا إلى طعام أو شراب : لينقذه من مثل ما ذاق ألمه، بخلاف من لم يصم : فإن من لم يقاس بلاء لم يدرك عناء : قيل ليوسف عليه السلام : لِمَ تجوع وأنت على خزائن الأرض؟ قال : أخاف أن أشبع فأنسى الجائع .

مما تقدّم يتبين لماذا رغبت الشريعة الإسلامية فى الصوم، وبالغت فى الحث عليه، وأكثرت من الوسائل التى توصل إليه : فقد جعلته فى كفارة القتل، وكفارة الأيمان، وكفارة الظهار . ولا عجب : فالصوم جُنَّة كما تقدّم فى الحديث .

المقصد الثانى

إعداد الفرد ليكون عضوا نافعا فى المجتمع

ولذلك طريقان :

الأولى — الزكاة

(١) الإنسان بطبيعته يحب المال حبا جما، وحبه أحد أمراضها، وعلاجه إزالة ما بها من علة البخل والشح وتدريبها فى السماحة المؤدية للفلاح : ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ : لأن الشح يدعو إلى المطل ويحول دون البذل ،

والسماحة تصد عن العقوق وتحث على أداء الحقوق : فقد قال صلى الله عليه وسلم : « شَرُّ مَا أُعْطِيَ الْعَبْدُ شُحٌّ هَالِعٌ وَجُبْنٌ خَالِعٌ » وما يصد عن أداء الحقوق فأخلق به ذما ، وما يبعث على أداء الحقوق فأجدر به حمدا .

(٢) إن الزكاة مواساة للفقراء ومعونة لذوى الحاجات تكفهم عن البغضاء وتمنعهم من التقاطع وتبعثهم على التواصل ، لأن الآمل وصول ، والراجى هائب . وإذا زال الأمل وانقطع الرجاء واشتدت الحاجة وقعت البغضاء وتزايد الحسد ، فحدث التقاطع بين أرباب الأموال والفقراء ، ووقعت العداوة بين ذوى الحاجات والأغنياء حتى تفضى إلى التغالب على الأموال والتغرير بالنفوس . وهذه أمور تحمل على إيقاد نار العداوة والبغضاء ، فتلتهم المال والنفس والولد ، ويختل معها الأمن ، ويوجد الذعر والخوف ، ويسوء من الأمة مصيرها . وبهذا نبتت أصول الاشتراكية فى الممالك الغربية ، وأثمرت أغصان الفوضوية ، فجنى المثرون منها كل رزية .

(٣) تحصين أموال الأغنياء وتميتها : لأن الفقراء إذا أيقنوا أن الغنى يصرف لهم شيئا من ماله ، وأن ذلك يزداد بازدياد ماله أحبوه ، وتمنوا بقاء نعمته وزيادتها : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ﴾ .

(٤) إن إخراج الزكاة باعثة الشفقة بالفقراء والضعفاء المعوزين به سدّ عوزهم ، وتنفيس كربتهم ، وقضاء دينهم ، وإدخال السرور عليهم : وناهيك قوله صلى الله عليه وسلم عندما سئل : أى الناس أحب إليك؟ قال : (أَنْفَعُ النَّاسِ لِلنَّاسِ) قيل : يا رسول الله : أى الأعمال أفضل ؟ قال : (إِدْخَالُ السُّرُورِ عَلَى الْمُؤْمِنِ) قيل : وما سرور المؤمن ؟ قال : (إِشْبَاعُ جَوْعَتِهِ وَتَنْفِيسُ كُرْبَتِهِ وَقَضَاءُ دَيْنِهِ) .

(٥) إن إخراج الزكاة شكر لله من الغنى على أن صانه عن السؤال ، وأنعم عليه بوافر الأموال ، ولم يجعله من مستحق الصدقات وذوى الفقر والحاجات حتى استحق الحمد الأسمى والشكر الأوفى . ومن أدّى الزكاة شكرا على نعمة المال وطلبا

للمزيد نال من الله دوام المزيد : ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ .

(٦) إن الله جلت حكمته أراد أن يربط العالم الإسلامى أجمع، و يربط قلوب المسلمين كلهم بعضها ببعض، ويجعلهم أسرة واحدة رءوسها الأغنياء : يحسنون على فقيرهم، و يوسعون على المضيق عليه منهم حتى يكفوهم تكففهم الناس، و يمنعوهم من ذل السؤال . وفى هذا الارتباط والاتحاد والتعاون .

(٧) إن إخراج الزكاة تثبيت للإيمان وكمال فى اليقين : لأن المال شقيق الروح، و بذله أشق شىء على النفس من بين سائر العبادات . فإذا ارتاضت النفوس بإنفاق أحب الأشياء إليها — وهو المال — صارت خاضعة لصاحبها ، وقل طمعها فى اتباعه لميولها ، وآثرت ما عند الله تعالى على ما عندها . وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى : ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾.

(٨) إن إخراج الزكاة صون للمال عما لا يليق به : من وضعه كله فى يد غير محتاجة إليه، و إخلاء أصحاب الحاجة إليه منه . فضلا عن أن ما فضل عن الحاجة الأصلية من الأموال إذا أمسك عن الصرف فى وجوه البر بقى معطلا ممنوعا عمن لأجله خلقت الأموال . وذلك منع من ظهور حكمة الله تعالى ، وتعطيل لها بالكلية . وهو غير جائز : ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ .

الثانية : الحج

وهو زيارة الكعبة المشرفة وأماكن تجاورها مع أفعال وأقوال مخصوصة . ولهذه العبادة مزايا اجتماعية سامية :

(١) إن الدين الإسلامى حث فى كثير من أحكامه على تقوية الإخاء بين المسلمين واطراح ما عساه يقع بينهم من التباغض والتحاسد والتخاذل : فقال تعالى :

﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ وقال عليه الصلاة والسلام : « لَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَنْ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا » .

وشرع لهم الاجتماع فى أوقات الصلوات الخمس والجمعة والعيدين لما فيه من التعاون واجتماع الكلمة لأهل الحى الواحد أو البلد الواحد . ولما كان هذا الاجتماع لا يفى بكل الغايات التى يقصدها الإسلام : لأن الفائدة مقصورة على أهل البلد أو القطر شرع لهم اجتماعا عاما يجتمع فيه المسلمون من سائر أقطار العالم فى مكان واحد ، وكلهم على دين واحد وغرض واحد . تقوم فيه العلماء والخطباء والحكماء يعلمون الجاهل ، ويرشدون المسترشد ، ويطلعونهم على أحوال الأمم الشاسعة البعيدة منهم ، ويبينون لهم ما عليه حال هذه الأمم من العادات والأخلاق والتقدم فى العلوم والصناعات ، فيعود الحاج إلى بلده وعنده كثير من أخبار هذه الأمم وسيرها ومبلغ تقدمها فتنشط نفسه لمباراتهم والنسج على منوالهم .

(٢) إن زيارة الأماكن المقدسة ذكرى لما جرى هناك لسيدنا آدم أبى البشر وزوجته حواء عليهما السلام بعد هبوطهما من الجنة ، وما ألهمهما الله تعالى من الالتجاء إليه حتى تاب عليهما ، وذكرى لما جرى لإبراهيم الخليل عليه السلام : إذ ابتلى بذبح ولده وثمرة كبده ، فأطاع ذلك الوالد الشفيق أمر مولاه ، وامتثل الابن البار أمر أبيه راضيا بالموت ، فأنعم الله عليهما بالفداء ، وبدلها مكان الحزن والكدر المسرة والفرح . فزيارة هذه البقاع الطاهرة سبيل إلى أن يقتدى الحاج بهؤلاء فى الالتجاء إلى الله ، ويتشبه بهم فى الإخبات لأمره والعياذ به ، ويتصف بآدابهم مع رب الأرباب ، ويتخلق بأخلاقهم الطاهرة ، ويسير على سننهم المستقيم : لعله يلحق بهم فى الغفران ، ويضاف إليهم فى القبول .

(٣) إن رؤية شعائر الله تعالى والتزام الهيئات المشعرة بتعظيمه والوقوف عند الحدود المفروضة لإجلاله : كل ذلك ينبه النفس تنبيها عظيما ، ويحملها على ذكر الله والرهبة من قدرته والخضوع لجلاله وعظمته . وفى ذلك أجل المنافع وأعظم الخيرات .

(٤) إن الظلم من شيم النفوس، ومنعها منه أبدا شاق عليها، وتركها متوغلة فيه مفسدة لا يحتملها الاجتماع البشرى، ولا يقوى على دفعها إصلاح . فكان من الحكمة منع توغلها فى الظلم، وانقيادها للعدل .

ولهذا خص الله أزمنة الحج وأمكنته بمزيد الاحترام المفضى إلى تضعيف الثواب وتغليظ العقاب : ليكون الامتناع فيها عن الظلم والطغيان والتمسك بالعدل والإحسان مؤدّيا إلى تقليل الظلم، وكبح جماح النفوس . ألا ترى أن الشرع حرم فى أثناء الحج لبس المخيط وصيد البر وما إليهما مما هو مباح فى غير أوقات الحج ؟ وعلة ذلك ما يأتى :

(الأول) أن تَلَبُّس الإنسان بالأمر فى بعض الأحيان قد يصيره عادة له : فإن امتنع عن الجرائم فى بعض الأزمنة أو الأمكنة فرارا من تغليظ الجزاء صار ذلك عادة له مألوفة وخليقة ثابتة .

(الثانى) أن العاقل يجتنب إفساد عمله ، ويتمسك ما أمكنه بكل ما يحفظه من تطرق الخلل إليه : فإذا عمل فى بعض الأزمنة أو الأمكنة طاعة رجاء مضاعفة ثوابها صانها عن الفساد بالمعصية وتحرج من اجتراح السيئات . فكان ذلك داعيا إلى اجتناب المعاصى والبعد عن الآثام .

(٥) إن المسلمين إذا حشروا فى صعيد واحد واتجهت قلوبهم إلى الله بإخلاص و رفعوا أيديهم إليه جل شأنه بالرجاء مع اشتغال الألسنة بالابتهال ومختلف الدعاء — ومنهم المصطفون الأخيار والمقربون الأبرار — فإن الله لايخيب لهم قصدا، ولا يمنعهم رفدا، ولا يحرمهم رحمة تسعهم، وفضلا يشملهم . ومثل هذا الاجتماع يقوى بينهم رابطة الاتحاد، وينبههم إلى فضل التعاون واتحاد الوجهة .

هذا إلى أن وجودهم فى مكان واحد مجردين من معتاد ملابسهم متقطعين عن علائق الدنيا نادمين على ما اجترحوا من السيئات مستشعرين الرهبة والرغبة يتساوى فى ذلك عزيزهم وذليلهم ومطيعهم وعاصيهم لاهم لهم غير طلب الغفران ورجاء رحمة الرحمن : كل ذلك يذكرهم بيوم الحشر الأكبر، والهول الأعظم : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ

مِنْ أَخِيهِ وأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾ : لأنهم فارقوا أموالهم وأهلهم، وخضع عزيزهم وذليلهم فى الوقوف بين يديه، واجتمع المطيع والعاصى فى الرهبة منه والرغبة إليه، وأقلع أهل المعاصى عما اجترحوه، وندم المذنبون على ما أسلفوه .

(٦) إن زيارة الأماكن التى نشأ فيها الدين وبعث فيها الرسول صلوات الله وسلامه عليه، ومشاهدة دار الهجرة التى أعز الله بها أهل طاعته وأذل بنصرة نبيه محمد عليه الصلاة والسلام أهل المعصية حتى خضع له عظماء المتجبرين، وتذلل له زعماء المتكبرين — ترشد الزائرين إلى أن الدين لم ينتشر عن ذلك المكان المنقطع، ولا قوى بعد الضعف البين حتى طبق الأرض شرقا وغربا — إلا بمعجزة ظاهرة ونصر عزيز .

مما تقدم يتبين كيف أن الدين الإسلامى جاء بما يرقى نفس الفرد، ويهذب أخلاقه، ويكمل عقله، ويجعله عضوا نافعا فى المجتمع .

المقصد الثانى

إصلاح المجتمع

سلك الشارع لإصلاح المجتمع : سبيلين .

السبيل الأول : إنصاف المرأة ورفع شأنها

إجمال

مكان المرأة عند الأمم القديمة :

إن الأثينيين — وهم أكثر الأمم القديمة مدنية — عاملوا المرأة معاملة سقط المتاع تباع وتشترى فى الأسواق، بل سموها رجسا من عمل الشيطان، وحرموها كل شىء سوى تنظيم البيت وتربية الأطفال، وأباحوا التزوج بأى عدد من النساء يشاء الرجال . أما فى إسبرطة فمع أن الرجل كان ممنوعا من الزواج بأكثر من واحدة

إلا فى أحوال قاهرة قد أبيح للمرأة أن تتزوج بأكثر من رجل واحد، وأقبل معظم النساء على ممارسة هذه العادة المرذولة . وتلك غاية الانحطاط .

لم يكن تعدّد الزوجات مشروعا فى أول الدولة الرومانية ولا فى آخرها . ومع هذا كان شائعا فى بلادها . ولا أدل على ذلك من أن العاهل ڤالنتيان الثانى أصدر أمرا عاهليا أباح فيه لجميع رعايا الدولة التزوج بأكثر من واحدة إذا رغبوا فى ذلك. ولم يرو التاريخ أن الأساقفة أو رؤساء الكنائس استنكروا ذلك، بل إن جميع الذين جاءوا بعده حذوا حذوه . وقد ظل تعدد الزوجات بهذا الوصف فاشيا حتى جاء جوستنيان ووضع قوانينه التى تحظر تعدّد الزوجات، فلم تمنع النـاس من الاستمرار فى ممارسة هـذه العادة . وكل ما دلت عليـه قوانينه أنها كانت مظهرا من مظاهر التحوّل الفكرى لطائفة قليـلة من المتعلمين . أما السواد الأعظم فلم يحفل بها، ولم يجد فيها ما يحول بينـه و بين عادته . أضف إلى ذلك أنه لمـا تغلبت القبائل الهمجية على غربى أوربة واختلطت آراؤهم بآراء أهل البلاد التى احتلوها حاولوا منع تعدّد الزوجات. فلم يفلحوا : لأن دأب رؤسائهم على ممارسة هذه العـادة وتسامح رجال الدين فى إباحتها للنـاس بترخيص يعطيـه الأسقف أو الرئيس : كل ذلك حبب إلى الناس بقاءهم على ما اعتادوه .

كان بعض طوائف اليهود يعتدون البنت فى مرتبة الخادم، وكان لأبيها الحق فى أن يبيعها وهى قاصرة، ولم تكن لترث شيئا إلا إذا لم يكن لأبيها ذرية من البنين. وقـد بلغ من انحطاطها عند بعض عرب الجاهليـة الذين تأثروا بمساوى عادات الدول المجاورة لهم أنهم اعتدوا المرأة جزءا من ثروة أبيها أو زوجها،وكانت الأرامل يصبحن إرثا لابن الرجل أو بنته ، وسرت هذه الرذيلة إلى قبائل اليمن التى كانت مزيجا من اليهود والصابئين .

وجمـلة القول : أن مقام المرأة انحط فى المجتمع الإنسانى أيام دولتى الفرس والبيزنطيين : فحقرها المتعصبون من أهل الدين تحقيرا عظيما ، وجعلوها مثار الشر والويل ، وفاتهم أن الشر والويل الذى نسبوه إليها إنمـا جاءها من سقوط المجتمع

يومئذ فى حمأة الرذائل : إذ تعالت الأصوات من كل صوب بأن التجارب أثبتت فساد جميع النظم والشرائع القديمة . وظلت المرأة مجهولة القدر رازحة تحت أعباء ظالمة لم تلقها عن كاهلها إلا الشريعة الغراء : إذ جاء منقذ المرأة النبي العربى صلى الله عليه وسلم بكتاب كريم يقول : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ .

وقد سار أتباع النبي الكريم على احترام المرأة و إحلالها المكان اللائق بها : فسموا عائشة سيدة نساء أهل الجنة ، فدلوا بذلك على أنها كانت مثلا أعلى للمرأة فى الصلاح والعفاف والتقوى . وجاء بعدها كثير ممن نسجن على منوالها ، وأحرزن فى مقام العلم والفضل المقام السامى .

أكثر أعداء الدين الحنيف من رميه بسلب حقوق المرأة وجعلها فى درجة أنزل من درجتها اللائقة بها ، وحسبوا حجابها أمرا إدًا وخطبا جسيما ومعولا هادما لبناء المجتمع الإنسانى . ولو نظروا بعين الإنصاف فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله وسيرة السلف الصالح لسارعوا إلى القول بأن الشريعة السمحة أنصفت المرأة و بوأتها مكانا ساميا بعد أن كانت فى الصين حبيسة ، وفى الفرس مجهولة القدر ، وفى مصر حقيرة ، وفى أوربة مملوكة ، وفى البلاد العربية متاعا يورث .

وناهيك أن الفرنسيين عقدوا سنة ٥٨٦ للميلاد اجتماعا فى بعض ولاياتهم ثم أخذوا يبحثون : أتعد المرأة إنسانا أم غير إنسان ؟ وكان ختام البحث أن قرر المجتمع أنها إنسان ، ولكن خلقت لخدمة الرجل لا غير .

وصفوة القول أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث فى وقت كان وأد البنات فيه عادة لبعض القبائل ، ولم يعرف فى قطر آخر أى نظام يخول المرأة شيئا من حقها سواء أكانت بنتا أم زوجة أم أما ، فأتى بشريعة منحت المرأة حقوقا لم تعترف ببعضها البلاد الغربية إلا فى القرن التاسع عشر بعد كفاح شديد . و إليك البيان :

تفصيل

أولا — المرأة فى نظر الإسلام بوصفها بنتا

(ا) كان العرب يئدون البنات، فجاء الإسلام بتحريم وأدهن، وبذلك أعطى المرأة حق الحياة، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾. وقال تعالى فى معرض التنديد بوأد البنات : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ . فلا عجب بعد هذا أن يحدثنا التاريخ بأن المرأة أصبحت من حزب محمد صلى الله عليه وسلم : تجاهد فى نشر دينه، وتسعى فى إعلاء كلمته .

(ب) كانت العرب لا تورث النساء ولا الصبيان من أبناء الميت ، وإنما يورثون من يلاقى العدو، ويقاتل فى الحرب . فشرع الإسلام توريث المرأة . وكان ذلك شديدا على نفوس العرب، فقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : لما نزلت الفرائض التى بين الله فيها أنصبة البنت والزوجة والولد والأبوين كرهها الناس وقالوا : تعطى المرأة الربع أو الثمن ، وتعطى البنت النصف، ويعطى الغلام الصغير، وليس من هؤلاء أحد يقاتل القوم، ولا يحوز الغنيمة !

ومن أجل هذا قررت الشريعة الإسلامية للبنت قبل زواجها ما يكفل لها ألا تكون كلا على إخوتها أو أعمامها أو غيرهم من الأقارب : فجعلت لها نصيبا فى الإرث لا يحتمل الجدل : قال تعالى : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ﴾ .

وحكمة جعل نصيبها على النصف من الابن : أن الابن من شأنه أن يتزوج، ويدفع مهرا من نصيبه فى الميراث، ويقوم بنفقة زوجته منه . أضف إلى ذلك

أن ما يحتاج إليه البيت من الفراش وسائر الأمتعة وغيرها مما تتطلبه المعيشة الزوجية لا يجب شيء منه على المرأة شرعاً ، بل هو واجب على الزوج وحده كما تجب عليه نفقتها .

أما البنت فشأنها أن تأخذ مهرا ونفقة من زوجها، وتضم ذلك إلى نصيبها فى الميراث .

ومن هنا يتبين أن مال الابن مهدّد بالنقص من نواح شتى، ومال البنت محفوظ لها . ولولا ما يقوم به الرجل من الكدْح والنصب فى طلب الرزق ما استطاع أن يستقل بأعباء المعيشة . فتفضيل الابن على البنت فى الميراث آت من قبل الواجبات المنوّعة التى ألقتها الشريعة الغرّاء على عاتقه، فلا ظلم على البنت ولا غبن .

(حـ) نفقة الابن الفقير تجب له على أبيه حتى يقدر على الكسب . أما البنت فلها النفقة على أبيها حتى تتزوّج، ثم يتحوّل الوجوب إلى زوجها . فإذا طلقت وعادت إلى بيت أبيها عادت نفقتها عليه بعد انتهاء مايجب لها من النفقة على مطلقها .

وليس للأب أن يلزمها طلب الرزق كالابن، بل إذا اتفق أنها احترفت حرفة مشروعة من تلقاء نفسها وكان لها من الكسب ما يسدّ حاجتها ارتفعت النفقة عن أبيها . وإذا لم يكفها كسبها وجبت عليه النفقة .

(ى) جعلت الشريعة الإسلامية رضا البنت عند بلوغها سن الرشد شرطا لصحة العقد عليها، وليس لمخلوق كائنا من كان أن يرغمها على الزواج بغير من تشاء . وهذا حق أعطيته البنت المسلمة فى القرن السابع للميلاد ، وحرمته البنت في أوربة حتى نهاية القرن السادس عشر .

ثانيا — المرأة بوصفها زوجة

(ا) كان الجاهليون يرثون النساء كرها : بأن يجيء الوارث ويلقى ثوبه على زوج مورثه إن لم يكن منها ثم يقول : ورثتها كما ورثت ماله، فيكون أحق بها

من نفسها : إن شاء تزوجها بلا صداق ، أو زوّجها واستوفى صداقها ، أو حرم عليها الزواج ليرثها إذا ماتت . فمنعت الشريعة الإسلامية هذا الحق الباطل، والإرث الظالم : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ﴾ .

(ب) وكان العرب يعضلون النساء بضروب من العضل : فيمنع الوارث امرأة مورثه عن التزوج إلى أن تعطى ما أخذت من الميراث، ويحجب الرجل بنته حتى تخلى له عما تملك، والمطلق مطلقته إلى أن يأخذ ما يريده منها، ويمتنع الزوج إذا كره زوجته وأحب فراقها عن تسريحها ويسيء عشرتها حتى تفتدى بمهرها . فحظرت الشريعة الغراء ذلك كله بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ ﴾ .

(ح) وكانوا يسيئون معاشرتهن : فلا يعدلون بينهن فى مبيت ولا نفقة . فأمر الله بالإنصاف بينهن فى ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ .

(د) وكانوا إذا رغب أحدهم فى التزوج بأخرى رمى زوجته بالفاحشة لتفتدى بما آتاها : فيسيء إليها فى عرضها ومالها، ثم ينفق ما أخذه منها على من رغب فيها . فحرّم عليهم البغى والعدوان بقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ﴾ ثم وبخهم على هذا الأخذ المؤثم بقوله تعالى : ﴿ أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ .

(هـ) وكانوا يعدون النساء من الأمتعة، فيتصرفون فيهنّ بما أرادوا وأراد ظلمهم : فكان الزوج ينزل عن زوجته لغيره إذا شاء بعوض أو بغير عوض رضيت أم لم ترض .

من أجل ذلك كله استنقذت الشريعة العادلة المرأة من هذه البلايا ، وجعلتها سيدة محترمة، بل راعية مسيطرة : قال سيد الخلق عليه الصلاة والسلام : « كُلُّكُمْ

رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ : الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ » . ومن تأمل هذا الحديث الشريف وجد مكانة المرأة بين الإمام والرجل، لا الرجل والخادم : تنويها بشرفها، وتحقيقا لسيطرتها .

ومن محاسن الشريعة الإسلامية أنها نظرت بعين الرأفة والرحمة إلى ضعف المرأة الطبعى وتميز الرجل عليها بالقوى والقدرة على العمل، فقضت عليه بأشق الحقوق وأعظمها : وهو إيتاء النفقة والقيام بحاجات المرأة . ولم تكلفها عمل شيء حتى إرضاع ولدها، وقضت عليه بحفظها من مواقع الآفات، وألزمته صداقا يؤدّيه قبل البناء بها إلا إذا اتفقا على تأخيره . وفى ذلك يقول صلى الله عليه وسلم : « أَيُّمَا رَجُلٍ تَزَوَّجَ امْرَأَةً عَلَى مَا قَلَّ مِنَ الْمَهْرِ أَوْ كَثُرَ لَيْسَ فِي نَفْسِهِ أَنْ يُؤَدِّيَ إِلَيْهَا حَقَّهَا خَدَعَهَا فَمَاتَ وَلَمْ يُؤَدِّ إِلَيْهَا حَقَّهَا لَقِيَ اللهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ زَانٍ » .

ومن تمام عطف الشريعة الإسلامية على المرأة أنها لم توجب عليها مقابل ذلك من الحقوق إلا شيئا يسيرا، فقضت عليها بألا تأذن فى بيت الرجل لمن لم يرضه، ولا تخرج من المنزل بغير إذنه إلا لضرورة شرعية . فكل ما وجب عليها للزوج فهو ترك ليس فيه عناء، بل فيه صون شرفها ورفعة منزلتها .

ومن فضل الشريعة الإسلامية على الزوجة أنه إذا ولد للزوجين أولاد فنفقتهم واجبة على أبيهم دون أمهم ولو كانت فائقة فى اليسار . وجلى أن النفقة على الأولاد واجب شاق وبخاصة فى مثل هذا الزمان الذى تضاعفت فيه النفقات المنوعة .

ومن عناية الشريعة بالزوجة المسلمة أنها لا تفقد شخصيتها من جراء قرانها، بل تظل متمتعة بجميع الحقوق التى يتمتع بها كل حر مستقل الإرادة : فهى صاحبة السلطان على ثروتها تتصرف فيها كما تشاء فى حدود القانون : فإن كانت تاجرة فربحها

لنفسها من غير أن يكون لزوجها أقل نصيب فيــه أو دخل فى مكسبها ، و إذا مات الزوج أخذت نصيبا فى تركته : ﴿ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ ﴾ .

وكذلك أثبتت الشريعة السمحة للمرأة الحق المطلق فى القيام بحضانة أولادها خلال مدّة معينــة دون توقف على رأى القضاء ، وسوّغت لها حق النفقة وطلب الطلاق إذا كان زوجها مصابا بأمراض خبيثة ، وأن لهـا مهر المثل إذا لم يقدر لها مهر عند عقد الزواج .

ثالثـا ـــ المرأة بوصفها أما

(أ) قال صلى الله عليه وسلم : « الْجَنَّةُ تَحْتَ أَقْدَامِ الْأُمَّهَاتِ » . وروى أنس رضى الله عنه أن شابا كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمى علقمة . فمرض واشتــد مرضه ، فقيل له : قل لا إله إلا الله . فلم ينطلق لسانه ، فأخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : هل له أبوان ؟ فقيل : مات أبوه ، وله أم كبيرة . فأرسل إليها الرسول ، فجاءت ، فسألها عن حال ابنها ، فقالت : كان يصلى كذا وكذا ، وكان يصوم كذا وكذا ، وكان يتصدّق بجملة دراهم ماندرى ما وزنها ولا عددها . قال : فما حالك وحاله ؟ قالت : أنا عليه ساخطة واجدة . قال لها ولم ذلك؟ قالت : كان يؤثر علىّ امرأته ، ويطيعها فى الأشياء ، فقال الرسول صلى الله عليه وســلم : سخط أمه حجب لسانه عن شهادة أن لا إله إلا الله ، ثم قال لبلال : انطلق واجمع حطبا كثـيرا حتى أحرقه بالنـار ، فقالت : يارسول الله : ابنى وثمرة فؤادى تحرقه بالنـار بين يدى ! وكيف يحتمل قلبي ذلك؟ فقال الرسول : يسرك أن يغفر الله له فأرضى عنه . فوالذى نفسى بيده لا ينتفع بصلاته ولا بصدقته ولا بصومه مادمت عليه ساخطة . فرفعت يدها وقالت : أشهد الله تعالى فى سمائه ، وأنت يارسول الله ، ومن حضر أنى قد رضيت عنه . فقال الرسول : انطلق يا بلال فانظر : هل يستطيع علقمة أن يقول : لا إله إلا الله ؟ فلعل أمه تكلمت بمـا ليس

فى قلبها حياء من رسول الله صلى الله عليـه وسلم . فانطلق بلال، فلما انتهى إلى الباب سمع علقمة يقول : لا إله إلا الله . ومات من يومه . وفى هذا تبجيل أى تبجيل للأم بين أفراد الأسرة .

(ب) قررت لها الشريعـة الإسلاميـة أنه إذا مات ولدها فلها نصيب معين من ميراثه لتأمن شر الحاجة فى شيخوختها إذا كانت تعتمد فى حيـاة ولدها على مساعدته إياها . وفى ذلك يقول القرآن الكريم : ﴿ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِـدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّـا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ﴾ .

رابعـا — المرأة بوصفها عضوا فى المجتمع الإنسانى

(أ) نظر الإسـلام إلى المرأة كالرجل، فمنحها حقوقا، وكلفها واجبات : قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْـمَلْ مِنَ الصَّالِحَـاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ . وقال الله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًـا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ . وقال تعـالى : ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾ .

(ب) ساوت الشريعة الإسلامية بين الرجل والمرأة فى المعاملات المـالية والعقوبات وفى طلب العـلم أو الندب إليـه ، وفى كل ما فيه صلاح النفوس والعقول والأبدان وسلامة الدين . وأباحت لها طلب الرزق الحلال إذا لم يكن لها من يعولها : دفعا لحاجتها وصونا لشرفها . ولم تفرضه عليها عند وجود العائل . وصفوة القول أن الشريعة الإسلامية منحتها ما منحت غيرها من الأفراد : فأعطتها مطلق الحرية فى التصرف فى ثروتهـا كما يتصرف أخوها وزوجها وأبوها ، وجعلتها سـيدة تملك وتعتق ولها حق التعاقد والتعاهد مع من تشاء دون تدخل زوجها أو أبيها وأن تكون وكيلة عن غيرها فى الخصومات .

خامسا — موازنة بين الرجل والمرأة

مميزات الرجل عن المرأة :

(أ) جعلت الشريعة الإسلامية الإمامة العظمى من حق الرجل وحده لوفرة أعبائها بما فيها من وجوب النظر فى شئون الرعية وسن النظم السياسية والإدارية وسوق الجيوش الجرارة إلى ساحة الحروب . وإن قيل : إن بعض النساء قمن بأعباء الإمارة و إن منهنّ من كنّ أحسن من بعض الرجال رأيا وتدبيرا وحسن نظر فالجواب أنهنّ قليلات والمعوّل عليه فى التشريع الكثير الغالب .

(ب) وجعلت الشريعة الطلاق بيد الرجل دون المرأة : لأنه هو الذى يلزم دفع المهر وما يصحبه من النفقات والهدايا . وليس من الإنصاف أن يكون عليه الغرم وليس له الغنم ، ولأن المرأة فى طبيعتها سريعة الانفعال والاستسلام للعاطفة وليس من الحكمة أن تعطى فى يدها عقدة الزوجية تحلها متى انفعلت أو تأثرت بأى مؤثر .

(ح) وجعلت الشريعة المرأتين بمنزلة رجل واحد فى الشهادة لقول الله تعالى : ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ . وقد أثبت العلم معجزة للقرآن ومن نزل عليه أن المرأة كما وصفها القرآن . ومع هذا فقد قبل الإسلام عند الضرورة شهادة المرأة فيما لا يطلع عليه الرجال كالولادة والبكارة ، وفيما يقع بين النساء فى مجتمعاتهن التى لا يحضرها الرجال .

حقا إن الشريعة الإسلامية لما نظرت فى الشهادة جعلت أهميتها فى الحياة الاجتماعية هى المقياس الذى يرجع إليه : فإن كان لها أثر ظاهر كالأموال والحقوق حسبت شهادة الرجل بشهادة امرأتين : لأن المرأة بطبيعتها ضعيفة الذاكرة ويغلب عليها النسيان فاستكثر الله منهن حتى يجبر الضعف . ولم تنفرد الشريعة الإسلامية بالحكم على ضعف المرأة ، ففى القوانين الوضعية ما يؤيده :

فمن ذلك ما جاء فى القانون الرومانى: من أن المرأة ليست أهلا للتصرف مدة حياتها كالطفل ويجب أن يوكل أمرها لرب الأسرة .

وجاء فى القانون الفرنسى : أن المرأة ليست أهــلا للتعاقد بدون رضا زوجها وإجازته .

ومن ذلك يتبين أن المرأة فى القوانين الوضعية لا تملك التصرف لنفسها والذى لا يملك التصرف لنفســه لا يملكه لغيره . ومعلوم أن الشهادة حجة يبنى عليها حكم وانتهاء خصومة فلا يصح عدلا أن تكون شهادة المرأة كالرجل سواء بسواء :

تأمل ما قاله العلامة بلينول فى حق المرأة :

المتوفى عنها زوجها لها حق تأديب أولادها تحت مراقبــة قريبين من العصبة خلاف الأب، وإن الأب له حق إقامة أجنبي وصيا على أولاده وحرمان الأم هذا الحق، وإن السند التجارى الموقع من المرأة غير التاجرة لا يساوى إلا وعدا مجردا، ولا ينتج ما يترتب عليه لو صدر من رجل .

سادسا — ما اختصت به المرأة دون الرجل

(ا) فرض الإسلام على الرجل الجهاد دون المرأة إلا إذا دهم العدو بلاد المسلمين فإن الدفاع يصبح مفروضا على المرأة ولو بغير إذن زوجها .

(ب) لا جزية على المرأة إذا غلب المســلمون على بلاد من بلاد أعدائهم، وفرضوا عليهم الجزية .

(حـ) لا ترى الشريعة الإسلامية قتل المرأة المرتدة وإنما تقتل الرجل .

(د) ليس على المرأة شىء من الدية إذا وجبت على العاقلة إلا إذا اشتركت المرأة فى القتل الموجب للدية .

(هـ) لا قسامة على المرأة إذا وجبت القسامة على أهل محله .

(و) لا تجب صلاة الجمعة والعيدين على المرأة، بل على الرجل فقط .

(ز) إذا كانت المرأة زوجة فنفقتها ومطالب معيشتها الزوجية على الزوج وحده ولو كانت ميسورة، وإذا كانت أما ولها أولاد فقراء فنفقتهم على أبيهم ومن ذلك أجرة الرضاع والحضانة، وإذا كانت بنتا فنفقتها على أبيها وعلى غيره من أقاربها ما دامت خالية من الزوجية مهما كانت سنها، وليس لأحد أن يجبرها على طلب المعيشة .

مما تقدّم يتبين أن الشريعة الإسلامية تكفلت بالمرأة بنتا وزوجا وأما، وحاطتها بكثير من العدل والعطف والرحمة .

إباحة تعدّد الزوجات

خليق بخصوم الإسلام الجاهلين حكمه وأسراره الذين نقموا منه إباحة تعدّد الزوجات ورموه بالقسوة أن يجيلوا نظرهم فى الأسباب الآتية التى تكاد تكون موجبة للتعدّد لا مجيزة له فقط، وفيما استوجبه نفى التعدّد فى الأمم غير الإسلامية من الانغماس فى حمأة الرذائل .

أما الأسباب فهى ما يلى :

(ا) قد تصاب المرأة بمرض مزمن أو معد فيضطر الرجل إلى اقتراف ما ينافى الشرف .

(ب) عدد النساء يربو غالبا على عدد الرجال : لأن الرجال يعانون الأعمال الشديدة التى تستوجب إنهاك القوى وإضواء الأجسام بل إزهاق الأرواح لا سيما الحروب الطاحنة . فإذا امتنع التعدّد وربا عدد النساء على الرجال لا يجد بعضهن أزواجا يحصنونهن، ويقومون بإصلاح شئونهن، ولا غنى لهن عن الرجال لضرورة الإحصان والتكفل بما لا بدّ منه للحياة، وإن لم يتم لهن الإحصان كثر الفساد، ولحق العار الأسر، وتمكنت منها عوادى الدهر وغوائل الحياة .

(ح) كثرة النسل ونمو العدد : وبهما تقوى شوكة الأمم الإسلامية، وتعلو سطوتها وتنفذ كلمتها، فترهبها الأعداء، وتتقيها الأمم . ومنع التعدّد مفض إلى تناقص

عدد الأمة بقلة النسل . ومتى تناقص عددها لانت قناتها، وطمع فيها أعداؤها، وامتدّت إليها الأيدى والألسنة بالسوء وسارت فى طريق الاضمحلال والاندثار . ولا أدل على ذلك من أن عقلاء بعض الأمم الغربية فى أسف شديد و إشفاق عظيم من سوء المنقلب بما عراها من نقص النسل : لمنع أبنائها من تعدّد الزوجات فى حدود المعقول ، وما انضم إليه من إعراض كثير منهم عن الزواج بتاتا والاجتزاء بالسفاح فرارا من حقوق الأهل وأعباء الأولاد .

ألم تر أنّ الدول الغربية يسعون السعى الحثيث فى ارتباط بعضهم ببعض بالمحالفات، و يؤثرون رق الارتباط بالعهود والمواثيق على حرية العزلة والانفراد: طلبا لنيل فائدة التكاثر، وليحرزوا قصب السبق فى مضمار المجد والقوّة ، وينالوا أوفر قسط من السيادة الدولية ؟

من ذلك يتبين أن الإسلام بإباحته تعدّد الزوجات سهل للمسلمين سبل التكاثر، ودلهم على أن القصد به إرشادهم إلى أن القوّة طريق العز والسيادة ووقاية من الذل والعبودية .

(د) دل الإحصاء فى غير الأقطار الإسلامية على أن خطر تعدّد الزوجات أدّى إلى وفرة الأولاد غير الشرعيين — مما حدا ببعض المفكرين إلى النظر فى توريثهم — وإلى انتشار الأمراض الفتاكة التى أصابت الرجال والنساء والأطفال، ولا قبل للطب بمكافحتها .

سابعا — أسباب تعدّد زوجاته صلى الله عليه وسلم

أسباب تعدّد أزواجه صلى الله عليه وسلم صنفان : عامة، وخاصة .

الأسباب العامة

(١) أن النبى صلى الله عليه وسلم مرسل للرجال والنساء، ومن الأحكام التى يبلغها ما هو مشترك بين الرجل والمرأة ومنها ما هو خاص بأحدهما ، وكل يتطلب

لتلقينه عددا ليس بالقليل : لتفرق المرسل إليهم وكثرتهم ، ولقصر زمن الرسول ، ووفرة الأحكام . و إلا لم يحصل التبليغ على الوجه الأتم . على أن من أحكام النساء ما تستحى المرأة من الاستفهام عنه من الرجل و يستحى الرجل من قوله للمرأة : فمن ذلك : « ما روى عن عائشة رضى الله عنها أن أسماء بنت يزيد الأنصارية قالت للنبي صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله : كيف أغتسل من الحيض؟ قال : "خذى فرصة ممسكة (يعنى قطعة قطن)، فتوضئى ثلاثا" . ثم إن النبي استحيا، فأعرض بوجهه ، فأخذتها عائشة بجذبتها، فأخبرتها بما يريد النبي » .

من أجل ذلك وجب أن يتلقى أحكام النساء من الرسول عدد كبير منهن ، وهن يبلغن الأحكام إلى النساء ، ولا يصلح للتلقى عن الرسول إلا أزواجه لأن لهن خصائص تمكنهن من معرفة غرض المصطفى عليه السلام دون تأفف واستحياء : يشير إلى ذلك قول المصطفى عليه الصلاة والسلام : « خُذُوا نِصْفَ دِينِكُمْ عَنْ هَذِهِ الْحُمَيْرَاءِ » يريد الصديقية المبرأة .

(ب) أن المصطفى عليه الصلاة والسلام مرسل لاستجلاب الأفئدة واجتذاب القبائل والأمم ، ولا ريب أن المصاهرة أمتن سبب وأقوى داع للتآلف والمناصرة . ودعوة الدين فى أول أمرها كانت فى حاجة إلى الإكثار من العشائر : ليكونوا أعضادا وأنصارا يؤازرون المصطفى صلى الله عليه وسلم فى تبليغ الرسالة ، ويذودون عنه عوادىَ المضلين ويفلون حدّ عنادهم ، ويكفون عنه أذاهم :

تأمل ما كان من عتق بنى المصطلق و إسلامهم بتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بابنة سيدهم (كما سيأتى بيانه)، وما روى من قوله عليه الصلاة والسلام فى حق ولده إبراهيم : « لَوْ عَاشَ لَوَضَعْتُ الْجِزْيَةَ عَنْ كُلِّ قِبْطِيٍّ » ومعنى هذا : لأسلم أخواله فرحا به و إكراما له ، فوضعت الجزية عنهم .

ومما يؤيد أن من أسباب تعدد أزواج النبي الانتفاع بنتيجة المصاهرة أن أكثر أزواجه كن من قريش سيدة العرب .

أضف إلى ذلك أن المؤمنين كانوا يرون أعظم شرف وأمتن قربة إلى الله تعالى انتسابهم لنبيه وتقربهم منه : فمن ظفر بالمصاهرة فقد أدرك غاية مايرجو وخير ما يؤمل .

ألم تر أن عمر رضى الله عنه أسف جد الأسف حين فارق رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته وقال : لا يعبأ الله بعدها بعمر . ولم يتكشف عنه الهم حتى روجعت ؟ وأن عليا كرم الله وجهه على اتصاله برسول الله صلى الله عليه وسلم من طريق النسب وشرف اقترانه بالزهراء رضى الله عنها رغب فى أن يزوج النبي أخته أم هانئ بنت أبى طالب : ليتضاعف شرفه وينمو سؤدده . ولم يمنعها من ذلك إلا خوفها أن تقصر فى القيام بحقوق الرسول مع خدمة أبنائها ؟

الأسباب الخاصة

أما سبب زواجه صلى الله عليه وسلم بالسيدة جويرية رضى الله عنها فهو أن أباها الحرث بن ضرار سيد بنى المصطلق من خزاعة جمع قبل إسلامه لمحاربة الرسول جموعا كثيرة ولما التقى الجمعان سألهم الإسلام فأبوه وقاتلوا حتى هزموا ووقعت جويرية — وكانت تدعى برة — فى سهم ثابت بن قيس فكاتبها على سبع أواق من الذهب ، فلم تر معينا لها غير المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فجاءت إليه مبينة نسبها طالبة حريتها ، فتذكر النبي ما كان لأهلها من العز والسؤدد والقوة وما صاروا إليه لسوء تدبيرهم وعنادهم من الاستعباد ، فأحسن إليها وإلى قومها بأداء ما عليها ، ثم تزوجها ، فقال المسلمون بعد أن اقتسموا بنى المصطلق : إن أصهار الرسول لا يسترقون ، وأعتقوا من بأيديهم من سبيهم ، وعلى إثر ذلك أسلم بنو المصطلق شكرا لله على الحرية بعد ذل الكفر والأسر .

وأما زواجه بالمبرأة بنت الصديق رضى الله عنها فلأن أباها الصديق كان شديد التمسك برسول الله صلى الله عليه وسلم مغرما بالتقرب منه . فكان هذا التزوج قرة عين

لها ولأبويها وفخرا لأقاربها، وكان عبد الله بن الزبير — وهى خالته — يفاخر بها حتى بنى هاشم .

وأما زواجه بالسيدة حفصة بنت الفاروق رضى الله عنها فإن زوجها توفى مجروحا فى موقعة بدر، وكانت السيدة رقية بنت الرسول وزوج عثمان توفيت حينئذ، فعرض عمر ابنته على عثمان، فأعرض عنها رغبة فى أم كلثوم بضعة الرسول ليستديم له بذلك الشرف وليكون ذا النورين، فعز هذا الإعراض على عمر لخفاء سببه، وأنفت نفسه من ذلك الإعراض، فشكاه إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، فأراد الله أن يعطى عثمان خيرا من ابنة عمر، وابنة عمر خيرا من عثمان .

وأما زواجه بالسيدة صفية رضى الله عنها فلأنها كانت بنت حيي بن أخطب سيد بنى النضير، ووقعت ضمن عشيرتها فى السبى، وأجاز الرسول لدحية الكلبى أن يأخذ من السبى جارية، فوقع اختياره عليها، فقيل للرسول صلى الله عليه وسلم: إنها سيدة قومها ولا ينبغى أن تكون لسواك ، وهو عظيم الرأفة خصوصا بمن ذل بعد عزة . فأمر دحية بأخذ سواها ، ثم تزوجها رأفة بها وتحقيقا لأمل راجيه من المؤمنين .

وأما زواجه بالسيدة زينب بنت جحش الأسدية رضى الله عنها فلم يكن له سبب سوى التشريع والتأسى بأفعال المصطفى . وإليك البيان :

(١) قضت حكمة الله فى شريعته السمحة بأن يجعل لما يريد تغييره من عادات الجاهلية المتأصلة فى العرب الفاشية بينهم توطئة وتمهيدا ليسهل عليهم تركها، أو يجعل للمسلمين من رسول الله صلى الله عليه وسلم وآل بيته الطاهرين أسوة حسنة فيحصل التأسى، ويكون الاقتداء :

فمن ذلك أن الرسول عليه الصلاة والسلام بعد أن تم الكتاب بينه وبين كفار مكة فى غزوة الحديبية أمر المسلمين بالنحر والحلق ثلاث مرات، فلم يفعل ذلك أحد منهم، فغضب المصطفى، ودخل على زوجه أم سلمة وهو غاضب، فسألته، فلم يجبها، ثم قال : هلك المسلمون : أمرتهم بالنحر والحلق، فلم يفعلوا، فأشارت

عليه بأن ينحر بدنة ويحلق رأسه، ففعل، فلما رأى المسلمون ذلك بادروا إلى النحر والحلق : تأسيا، واقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن ذلك ما كان فى وضع ربا الجاهلية ودمائها : فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى خطبة الوداع : وإن ربا الجاهلية موضوع، وإن أول ربا أضعه ربا عمى العباس بن عبد المطلب، وإن دماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب . كل ذلك : لأن دلالة الفعل فى التشريع أقوى من دلالة القول .

(٢) ومن العادات التى كانت متأصلة فى العرب التبنى وتنزيل الدعى منزلة الابن الحقيق . وكانوا لذلك يرون تحريم زوج الدعى على من ادعاه، فأراد الله إبطال هذا الاعتقاد، بجعل رسوله المصطفى أسوة حسنة فى هذا الأمر، فسعى الرسول فى تزويج زيد مولاه بعد أن أعتقه، ولم يكن من حيث النعرة العربية كفئا لعربية بله قرشية كزينب الأسدية ذات الحسب البارع والمجد الأثيل، فتأففت هى وأخوها عبد الله، وأبت أن تكون زوجة لدعى غير كفء، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ فرضيا بقضاء الله ورسوله فرارا من العصيان والمخالفة — غير أنها ظلت فى نفسها نافرة من هذا الاقتران، مترفعة عن زيد، ضائقة به ذرعا . ولما رأى زيد منها نفورها وترفعها وعدم انقيادها لنصيحة الرسول لها بالبقاء مع زوجها، آثر فراقها، فسأل الرسول الإذن به، فقال له : أمسك عليك زوجك واتق الله . وأخفى فى نفسه ما الله مبديه من تزوجه بها بعد زيد، وخشى مع الله الناس أن يقولوا : تزوج محمد زوجة ابنه، فأمر الله بالاقتصار على خشيته، إذ يقول له : ﴿ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ ولما لم يبق لزيد فيها شىء من الرغبة طلقها، فتزوجها الرسول حفظا لشرفها أن يضيع بعد زواجها بمولى : ﴿ لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ . وكان أمر الله بهذا التزويج مفعولا (مقصودا) .

هذا ما قضى به الرحمن ونطق به القرآن وليس بعد بيان الإله بيان .

مما تقدم يتبين بطلان ما تقوله غير المنصفين من أهل الغرب : من أن المصطفى عليه الصلاة والسلام قد خوّل نفسه دون أتباعه امتيازا لا يسمح به الشرع فتزوج بأكثر من أربع ، وأنه بذلك قد اتصف (حاشاه) بما لا يليق بجلال النبوة . وهم فى ذلك يفترون الكذب وهم يعلمون . ولو أنصفوا أنفسهم ورجعوا إلى التاريخ لأدركوا الحقيقة ولعلموا الوجهة الإنسانية الاجتماعية التى حدت بالنبى الكريم إلى تعدد زوجاته .

إنهم يعلمون أنه صلى الله عليه وسلم تزوج بالسيدة خديجة وهو فى مقتبل العمر وسنه إذ ذاك نحو خمس وعشرين سنة، وكانت أكبر منه سنا ، وعاش معها خمسا وعشرين سنة عيشة هنية مرضية شعارها الإخلاص والوفاء . وكانت السيدة خديجة رضى الله عنها من أكبر أنصاره على الكفار الذين سخروا منه ، وألحقوا به ضروبا شتى من الأذى . قضى معها تلك المدة الطويلة وهو مثال الاستقامة والشرف كما أقر بذلك خصومه ، ولم يشأ التزوج بغيرها مع أن العرف عند قومه كان يخوّل له حق الزواج بغيرها إن شاء ، بل ظل وفيا لها حتى توفيت ، فحزن عليها حزنا شديدا ، وسمى عام وفاتها عام الحزن ، ولم ينقطع عن ذكراها طول حياته ، ثم تزوج بعدها سودة بنت زمعة أرملة السكران بن عمرو الذى اعتنق الإسلام واضطر إلى الهجرة إلى بلاد الحبشة هربا من اضطهاد الكفار . ولما مات صارت زوجته بلا معين ولا نصير ، وأصبح زواج هذه السيدة الوسيلة الفذة لحمايتها ومعونتها — وهى أرمل رجل مات فى سبيل الدفاع عن الحق — فتزوجها المصطفى صلى الله عليه وسلم — وهو المثل الأعلى للهمة والنجدة والمروءة — : وفاء لرجل فقد حياته بعد أن غادر الأهل والأوطان احتفاظا بعقيدته وشاركته هذه الزوجة أهوال النفى والتغريب ، وتفاديا من سخطها على الإسلام الذى أفقدها زوجها ، وحماية لها من أهلها أن يفتنوها لأنها هاجرت مع زوجها على غير رغبتهم .

ومما هو أبلغ فى الدلالة على أن المصطفى كان يتزوج للتوصل إلى إعلاء شأن الدين أنه تزوج بميمونة وعمرها زهاء خمسين عاما ، فكان زواجه بها سببا فى دخول خالد بن الوليد فى دين الله . وهو الغازى الكبير والبطل العظيم ، وهو الذى غلب الروم على أمرهم فيما بعد .

هذا إلى أن زواجها بالمصطفى أوجد لذوى قرباها وسيلة للعيش : فأطعموا من جوع، وأومنوا من خوف .

يقول فريق من غير المنصفين : لم تكن هناك ضرورة تقضى على المصطفى بأن يجعل نفسه مثالا وأسوة فى تعدّد الزوجات ، أو يسمح بإبقاء هذه العادة، بل كان يجب عليه استئصالها بتاتا : لأن السيد المسيح عليه السلام أهملها كل الإهمال . ونسى هؤلاء المتعنتون ما اتفقت عليه كلمة علماء الاجتماع قديما وحديثا : من أن عادات الأمم وأحوالها تتغير بتغير الأفكار وعلى حسب مقتضيات الزمان والمكان، وأن ما كان يلائم زمن المسيح عليه السلام ليس بمحتوم أن يلائم زمن محمد عليه السلام : لتدرّج الإنسان وارتقائه .

ألم تر أن السيد المسيح عليه السلام وجه العقول والأنظار إلى مملكة السماء حيث لا أنساب ولا علاقات اجتماعية ؟ فظهرت المسيحية فى أوّل نشأتها بمقاومة الزواج واعتداده أمرا غير مستحسن، ورسخ فى الأذهان أن ارتباط الرجل بالمرأة مهما كان مقدّسا أمر غير محمود، وأصبح الرجل الذى لم يتزوّج أرقى بكثير ممن حط من قدر نفسه بالزواج .

ومما هو شبيه بهذا ما ذهب إليه علماء الهند الأقدمون ومشترعوهم من أن الإنسان لا يستطيع تحصيل العلوم والمعارف دون أن يترك جميع روابطه الأسرية : لأنها تحول دون تحقيق غرض العزلة والتوحد . فانتقل هذا الرأى من أهل الأديان القديمة إلى من بعدهم .

والحق أن القول بأن الامتناع عن الزواج يجعل الرجل من عظماء المفكرين خطأ صريح : لأنه لو صح لكان المشعوذون ومن شاكلهم من أهل الكمال، وكانت الحياة

الكاملة معناها الانفصام التام من جميع الروابط والأواصر البشرية . وهذا رأى مناف بديهة للفطرة، ومفض إلى فناء بنى الإنسان .

فالحق أن لكل عصر ما يلائمه من العادات والأخلاق، وما يصلح لزمن ليس لزاما أن يصلح لغيره ، وليس من الإنصاف الحكم على الزمن الماضى بمقياس زمننا الحاضر، وأن العمل بمقتضى ضرورات الزمان والمكان لا يصلح أن يكون سببا للحط من عظمة الأفكار وجلالها : أليس من الخطل والضلال أن تقول : إن عيسى عليه السلام كان رجلا ذا أحلام لا يمكن تحقيقها ؟

أليس من فساد الرأى أن تقول : إن حياة موسى وعيسى عليهما السلام كانت شاذة إذا قيست بما يستحسن اليوم ؟ بل : إن حياة هؤلاء الرسل الكرام كانت ملأى بالعظات والعبر ، وهى أسوة حسنة لأقوامهم . ومن أجل ذلك يتبين صدق قولنا : إن محمدا صلى الله عليه وسلم مرسل إلى بنى البشر طرا، وإنه مثل فى شخصه الكريم نمو الإنسانية ورقيها،ولم يكن من الحكمة أن يغير الحالة الاجتماعية التى كانت وقت بعثته مرة واحدة ، وأن يقضى القضاء المبرم على العادات القومية والنظم السياسية والاجتماعية، بل كانت سنته — وهى أحكم سنة — القضاء على الفاسد منها وتهذيب ما يقضى النظام العمرانى ببقائه .

ومما هو جدير بالذكر أن الآية (١) التى حظرت على المصطفى زيادة عدد الزوجات وطلاقهن نزلت بعد أن انتشر الإسلام ، وتم له ما أراد من حكمة الإكثار من الأزواج، مع أن أصحابه ظلوا أحرارا لايمنعهم شىء من ذلك فى حدود الشريعة السمحة .

ثامنا — إباحة الطلاق

(١) دلت التجارب على أن الطلاق فرصة صالحة للتخلص من ضرر أشد منه عند استفحال أسباب الشقاق، وقام الدليل القاطع على أن ما جاءت به الشريعة

(١) قال تعالى : (لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن) .

الإسلامية فى شأن الطلاق أقرب إلى الإنسانية وأوفى بالعدالة مما جاء فى غيرها من الأديان والشرائع ... : ذلك بأن الأمم القديمة حرمت على المرأة أن تطلب الطلاق بحال من الأحوال، وظل الحال كذلك إلى عهد الدولة الرومانية حيث ضعفت روابط الزواج وفشا الطلاق ، ولقد جرت على ذلك القوانين العبرية القديمة والأثينية .

(٢) ومن العجب أن بعض قصار النظر من الباحثين يقولون : إن الدولة الرومانية فى أوّل أمرها لم تلجأ إلى الطلاق مع أن قانونها أباح ذلك، وفى هذا دلالة على أنها كانت أرفع خلقا من غيرها من الأمم . وهذا قول باطل : لأن الزوج فى عهد هذه الدولة كان له الحق فى قتل زوجته إذا أتت أمرا إدّا كشرب الخمر وما ماثله، ولم يكن لها مع ذلك حق طلب الطلاق . فإذا حاولته عدّ عملها موجبا للقصاص . وبالرغم من هذا كله فإن الطلاق شاع فى عهد الجمهورية الأخيرة شيوعا كبيرا ، فكان سببا فى انحطاط مستوى الأخلاق بسرعة عظيمة .

(٣) لم يكن العرب فى الجاهلية يرجعون إلى عدل أو إنسانية فى معاملة زوجاتهم، فجاءت الشريعة الإسلامية مستهجنة عاداتهم متقوّضة أركانها : قال تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ﴾ الآية .

أضف إلى ذلك أن الشريعة الإسلامية أعلنت بلسان الحديث الشريف أن أبغض الحلال إلى الله الطلاق .

وقد كان من حكمة الإسلام وتمام ملاءمته للسنن الاجتماعية عدم تحريم الطلاق بتاتا : لأنه ليس شرا على الإطلاق ، بل هناك ضرورات تقتضيه . ولذلك أبيح بشروط، وفى أحوال معينة : تأمل قوله تعالى : ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ تجد الحكمة فى جعل الطلاق مرتين إيجاد فرصة للصلح والتفاهم، والصلح خيرٌ . دع عنك أن الشريعة رأت إجراء التحكيم قبل الطلاق : ليتروى كل من الزوجين فيه قبل الإقدام عليه والقطع فيه .

هل ترى إنصافا أكثر من أن الشارع الإسلامى يعلن أن أبغض الحلال إلى الله الطلاق، وأن الطلاق مرتان ، وأن التحكيم يسبق إنفاذ الطلاق، وأن للمرأة حق طلب الطلاق لأسباب شرعية ؟ كل ذلك : لأن الإقدام عليه دون استيفاء شروطه مقوض لسعادة الأسرة ، وله أثر سيئ جدا فى تربية الأبناء .

ومع أن بعض الفقهاء يرون أن إقدام الرجل على الطلاق تعسفا واقتدارا عمل باطل إلا فى الضرورة القصوى ، فإن جمهرة الفقهاء من الحنفية والمالكية والشافعية — وهم الذين يعتد برأيهم — يرون إباحة الطلاق ، و يعدون الطلاق الذى لا يستوفى الشروط الشرعية عملا بغيضا .

من العجب أنك ترى مع هذا أن خصوم الإسلام تجاهلوا القيود التى قيد الشارع الإسلامى بها هذه الرخصة تمشيا مع ضرورة الاجتماع، وتغاضوا عما قرر أولئك الفقهاء الذين فاقوا فى أحكامهم السديدة فقهاء الأمم الغربية عدالة و إنسانية : فقد رأى فقهاء المسلمين فى قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ﴾ تحذيرا لكل من الزوجين مغبة الطلاق والإقدام عليه دون ترو وتأمل .

ومن الخطل : أن (السيرموير) فى كتابه (سيرة محمد عليه السلام) يستنكر ذلك، وفاته أن اشتراط زوج آخر قبل الرجوع إلى الأول أكبر مانع من إيقاع الطلاق

عند قوم كالعرب عرفوا بشدّة الغيرة والحمية، وأقوى رادع لهم عن ممارسة هذه العادة التى كانت شائعة عند اليهود وعرب الجاهلية والنصارى ، فجاء القرآن بأكبر زجر لأمة من أقوى أمم الأرض شعورا، فمس منها مكان العزة والشرف ... .

ولا جرم أن الناس فى جملتهم متشابهون . فلا نعرف أحدا — إلا من فقد الغيرة الإنسانية — يرتاح إلى أن يتزوج غيره بامرأته بعدطلاقها بدافع الغيرة والأثرة.

ومن هذا الباب شدّة تقبيح التحليل : قال عليه الصلاة والسلام : (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالتَّيْسِ الْمُسْتَعَارِ؟) قالوا : ماهو يارسول الله؟ قال : (هُوَ الْمُحَلِّلُ. لَعَنَ اللهُ الْمُحَلِّلَ وَالْمُحَلَّلَ لَهُ) ومماهو جدير بالذكر القصة الآتية التى أوردتها صحيفة الضياء فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٣٠ م بعنوان (يبيع زوجته) وهى :

من أغرب القضايا التى نظرت فى محاكم لندن فى الشهر الماضى قضية رجل يدعى (إلن واتهام) كان شديد التعس فى حياته الزوجية ، فانتهى به الأمر إلى أن يبيع زوجته بمبلغ خمسمائة جنيه إنجليزى لتاجر يدعى (فيلبس) .

وقد قرر المستر (إلن واتهام) أن حياته الزوجية لم تكن تطاق : لأن أخلاق زوجته لم تكن تتفق مع أخلاقه مع حبها لهذا التاجر وموافقتها على البيع .

وقال المحامى عن المتهم : إنه لا وجه لإقامة الدعوى على موكله . وقد ذكر فى دفاعه فقرة يستدل منها على أن القانون الإنجليزى قبل مائة سنة كان يبيح بيع الزوجات، وأنه فى سنة ١٨٠١ م كان ثمن الزوجة محدودا بمبلغ (ستة بنسات) (أى نحو ٢٤ مليما تقريبا) بشرط أن يتم البيع بموافقة الزوجة ومحض اختيارها .

فردت عليه المحكمة بأن هذه الفقرة صحيحة ، وأن القانون الذى ذكره كان موجودا حقا — غير أن الحكومة أصدرت أمرا فى سنة ١٨٠٥ م بعدم بيع الزوجات ، أو التنازل عنهن .

وبعد المداولة حكمت المحكمة على بائع زوجته بالسجن عشرة أشهر .

تاسعا — الحجاب

لما جاء الإسلام كانت المرأة فى درك انحطاط الخلق، ولذا كان من الحكمة نهى النساء عن التبرج تبرج الجاهلية الأولى وأمرهن بالاستقرار فى منازلهن . وليس فى نص القرآن ولا فى صحيح السنة ما يفيد تشددا على المرأة فى الحجاب كما نراه اليوم فى البلاد التى ليس للإسلام فيها نفوذ والتى لم تصل إليها نظم الإصلاحات الغربية :

تأمل قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ... ﴾ إلى ﴿ تُفْلِحُونَ ﴾ . يسهل فهم هذه الآيات وإدراك ما تنطوى عليه : من مقاصد الإصلاح للذين درسوا الحالة الاجتماعية فى العصور القديمة، وفوضى الأخلاق التى أراد الله بإرسال نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن ينقذ العالم من شرورها حتى تنتظم أحواله بإصلاح حال المرأة وترقيتها فى ملبسها وسلوكها وسيرها، فلا تصبح بعد ذلك مضغة فى أفواه السفلة والرعاع .

وقد قال أحد المنصفين من كتاب الغرب (هملتن) : إن أحكام الإسلام فى شأن المرأة صريحة فى وفرة العناية بوقايتها من كل ما يؤذيها ويشين سمعتها ، ولم يضيق الإسلام فى الحجاب كما يزعم بعض الكتاب ، بل إنه تمشى مع مقتضيات الغيرة والمروءة .

وقال أحد الرحالة الغربيين فى سفراته : إن العرب المقيمين فى جاوة لم يلتزموا عادة الحجاب مطلقا، وإن نساء جاوة متمتعات بالحرية التى لأخواتهن فى (هولاندة) .

إن التاريخ يحدثنا أن نساء النبى بعد أمرهن بالاستقرار فى منازلهن ونهيهن عن التبرج لم يكن منعكفات عن العالم كما يزعم بعض كتاب الغرب : فإن السيدة عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم اشتركت فى قتال على كرم الله وجهه ، وقامت السيدة فاطمة الزهراء بنصيب وافر فى الدعوى إلى إسناد الخلافة إلى على ،

وأنقذت السيدة زينب بنت الحسين ابن أخيها اليتيم الصغير من الأمويين بعد مذبحة (كربلاء) .

وسير فضليات النساء مملوءة بما يدل على أثر الإسلام فيهن و إعدادهن للاشتراك فى الحياة العامة .

بلغ انحطاط الأخلاق كما قدمنا عند عرب الجاهلية واليهود والنصارى مبلغا استوجب إسعافه بالعلاج . وقد كان لأمر القرآن الكريم لنساء النبي صلى الله عليه وسلم بالاستقرار فى منازلهن واجتناب تبرج الجاهلية أثر حسن فى رفع المستوى الخلق : لأنهن كن خير أسوة .

ومما هو جدير بالذكر ما قاله الأستاذ (فون همر) الحجاب فى نظر الإسلام وتحريم اختلاط النساء بالأجنبي منهن ليس معناه انتزاع الثقة بهن ، وإنما هو وسيلة إلى الاحتفاظ بما يجب لهن من الاحترام وعدم التبذل، فالحق أن مكانة المرأة فى الإسلام قمينة بالاغتباط .

تأمل هذا، ووازن بينه وبين ما يأتى :

(ا) قرر (ترتليان) فى كتابه (وصف المرأة) : أنها باب الشيطان : لأنها أفسدت آدم — وهو مظهر من مظاهر الله — بحمله على الأكل من الشجرة .

(ب) قال (لوفى) : إن المرأة شر لا بدّ منه ، ونكبة تنساق إليها النفوس، وبلاء لا مهرب منه، وبرق خلب، ومرض عضال .

(حـ) قضت الأوامر الكنسية الأرثوذكسية بحرمان المرأة حقها فى المجتمع : فحظرت عليها حضور المآدب والحفلات، وألزمت النساء الحجاب صامتات صابرات ،لا شأن لهن إلا طاعة أزواجهن، والقيام بالغزل والنسج والطهى، و إذا خرجن من دورهن سترن أجسامهن من قمة الرأس إلى أخمص القدم .

ومما يجب ذكره أن نصيب المرأة من الحرية فى الجاهلية عند العرب كان أكثر منه عند اليونان . وفى ذلك يقول (بيرن) : لم تكن النساء فى الجاهلية تعسات :

فكن يرافقن المحاربين إلى ميدان القتال، و يثرن فيهم الحمية والبطولة، وكان الفرسان يتزاولون ميدان الوغى وهم يتغنون بذكر أخواتهم و زوجاتهم ومحبوباتهم ، وكان إعجاب محبوباتهم بهم خير مكافأة يطمعون فيها، وكان كرم الخلق والشجاعة من أسمى مكارم الرجل كما كان العفاف أحسن حلية تتزين بها المرأة ، وطالما اشتعلت نار الحروب بين القبائل فى أنحاء صحراء العرب من جراء إهانة تصيب المرأة من غير قبيلتها .

كان العرب يجلون المرأة بما غلب على طباعهم من خلق الفروسية والشهامة، فشجع الإسلام هذا الخلق العظيم ، وأتى بأحكام ضاعفت احترام المرأة و إعلاء منزلتها ؛ فتمت فى المسلمين خليقة إنقاذ الضعيف ، ودفع الضيم عن المظلوم، وتلبية نداء الإنسانية فى أى بقعة كانت : من مواساة البائسين، وتفريج كرب المكروبين . وانتقل هذا الخلق من الخيام إلى القصور الشاهقة :

ألم تقرأ ما رواه المؤرخون من أن عبد الملك بن مروان كان جالسا على المائدة، فعلم أن فتاة عربية تشكو ذل الأسر عند الرومان، وتقول : النجدة يا عبد الملك . فأقسم ألا يقرب لذائذ الحياة حتى ينقذ الفتاة من أسرها . وقد بر بيمينه ؟

يقول بعض المنصفين من كتاب الغرب : كان عنترة أبا الفروسية، وكان على كرم الله وجهه شعارها : فهو مثال الإقدام والشجاعة والحزم ولين الجانب والعلم ، وكان شديد البأس وافر الشفقة ، وكان للعرب فى جملتهم الفضل فى انتشار الفروسية فى أوربة : لأنها سرت من بلاد الأندلس إلى الأقطار المسيحية المجاورة لها ، فتعلم أبطال إيطاليا وفرنسا وألمانيا أناشيد الشرف والحب فى الحروب من أساتذتهم فى قرطبة وغرناطة وملقة، ولم تكن آراء (بتراس) و (تاسو) و (شوسر) إلا ترديدا لصدى الفضائل الإسلامية وقبسا من نورها . ومع هذا فإن ما كان مركوزا من الغلظة والصلف فى طبائع القبائل الأوربية الهمجية جعل فى بطولة أبطالها ضربا من الخشونة لا نظير له فى البطولة الإسلامية .

ظلت المرأة فى القرون الأولى فى الإسلام إلى أن سقطت دولة العرب فى الشرق رفيعة الدرجة سامية المكانة أرقى مما عليه المرأة اليوم فى الدول الغربية .

وإليك بعض البراهين :

(أ) شغلت زبيدة زوج هارون الرشيد مكانة عظيمة فى عصرها بفضل أعمالها الجليلة، وفضائلها الكثيرة، وأخلاقها السامية .

(ب) كانت السيدة سكينة بنت الحسين الدرة اليتيمة بين أترابها . وفى شأنها يقول بيرن : كانت سيدة عصرها : إذ كانت موفورة الجمال كاملة الخصال . ولا غرو : فقد رغبت فى العلم والمتعلمين ، وجالست العلماء والأتقياء ، وشاركتهم فى كثير من العلوم والفنون .

(ح) كانت شهدة الملقبة بفخر النساء فى القرن الخامس للهجرة تلقى الدروس على الجمهور فى جامع بغداد فى الأدب والتاريخ ، وكان يحضر درسها عدد غفير من أهل الفضل والعرفان، ولها فى تاريخ الإسلام ما لأعظم العلماء من سمو المنزلة والاحترام ، ولو ظهرت شهدة هذه فى أوربة قبل اقتباس المدنية الإسلامية لأحرقوها بحجة أنها ساحرة .

أفبعد هذا كله يظل بعض المستشرقين يفترى على الدين الإسلامى الكذب والبهتان، وعلى النبيّ العربىّ الكريم الذى يقول : « مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالنِّسَاءِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُحَرِّمُ طَلَاقَهُنَّ » ؟

من المسلم به أن المرأة قد وصلت بعد تسعة عشر قرنا إلى مقام نالت فيه نصيبها من الاحترام ، لكن هل حصلت على مكانة شرعية كما كانت المرأة فى الإسلام؟ كلا : إن المرأة المسلمة أعطيت من الحقوق مالم تعطه أختها المفتونة بحضارة أمتها ومدنيتها .

حسب الإسلام أنه جعل البنت ما دامت غير رشيدة فى كفالة والدها أو من يقوم مقامه، وأنها متى بلغت سن الرشد خولها جميع الحقوق التى يحق لها التمتع بها

بوصفها شخصا مستقلا عن غيره ، وجعل لها الحق فى تركة والديها ، وأن أحدا لايستطيع أن يزوجها بغير رضاها متى كانت بالغة ، وإذا تزوجت لاتفقد شخصيتها بوصفها عضوا قائما بذاته فى المجتمع الإنسانى ، وأوجب على الزوج القيام بتدبير شئون زوجته جميعها إذا أرادت ، ولم تبح الشريعة للزوج التدخل فى أموالها ومكاسبها بغير إذنها ، ومنحتها الحق فى أن تقاضى من تشاء دون الاضطرار إلى الاستعانة بزوجها أو والدها أو أخيها ، وأنها بوصفها أما لها حقوق ثابتة لاتتوقف على قضاء .

ومما تقدم يتبين أن الشريعة الإسلامية أعطت المرأة مكانة خيرا مما أعطيته المرأة الغربية . وليس هناك من سبب لتأخر المرأة المسلمة عن المرأة الغربية إلا قلة انتشار العلوم والمعارف بين الأمم الإسلامية كما تقتضيه شريعتهم الغراء .

* * *

وخليق بنا أن نورد المقال الآتى نقلا عن (جريدة) المساء المؤرخة ٢٦ من فبراير سنة ١٩٣١ م : وهو بحروفه :

النساء فى الإسلام

من مقال قيم لجريدة الإسلام فى باريس

فى العاصمة الفرنسية جريدة تصدر بلغة تلك البلاد اسمها الإسلام . أسسها أربعة من المسلمين : مصرى ، ومراكشى ، واثنان من الجزائريين . وقد اطلعنا فيها على فصل قيم فى النساء المسلمات رأينا أن ننقله لقارئاتنا فيما يأتى :

من الأمور المعروفة أن النساء لهن الحظ الوافر فى تطور الشعوب وتقدم الأمم . لهذا عمد الرجال من تلقاء أنفسهم إلى التمشى رويدا رويدا ناحية المساواة ما بين جنسهم وذلك الجنس اللطيف مسوقين على توالى القرون بحكم التطور الأدبى والمادى .

ولم يبد التطور الأدبى الخلق على أشده إلا فى تاريخ الأمة العربية : فالمعلوم أن العرب عند ما بلغوا أوج عظمتهم وملكوا دولتى السيف والقلم كانت المرأة

عندهم عدل الرجل سواء بسواء: فلها حرمة وكرامة، ولكن حدث بعد ذلك أن ساءت العادات من جراء طغيان الحكام وتدخل الأجنبي ، فزالت تلك المرأة العربية الحرّة الشريفة ذات العزة والاحترام ، وحلت محلها السرية والمحظية من الطبقات الدنيا الغريبة عن العنصر العربي : كخسيسات البيزنطيات والفارسيات والجوارى من الروم والصقالبة، وبنى على هذا أن اختل حتى نظام الحياة والأسرة : فكانت عيشة الكسل واللذة والإسراف والتبذير في النفقة والتبرج .

كانت للمرأة العربية منزلة ذات شأن خطير : فهى فى المدينة الآمرة الناهية فى المنزل والأسرة ، بل الخائضة بعقل وحصافة فى القضاء والسياسة .

ومن منا لا يذكر امرأة الحارث بن عوف التى أصلحت ما بين القبيلتين بعد أن نذرت كل منهما لأختها الدماء والفناء ؟ ثم من منا لا يأسى ولا يأسف بعد ذلك على طى ذلك العهد وما خلفه من عهد التسرى الذى أشبه ما كان فى أثينا و إسبرطة ؟

ولقد وضع النبي العربى الكريم من الأقوال والأحكام ما سوّى به بين المرأة والرجل فى حرية التصرف والكرامة، فلبث العالم العربى ستة قرون أولى ولا حجاب بين النساء والرجال : فكان بعض الفضليات العظيمات يعقدن مجالس العلم والأدب والمناظرة والمساجلة، ويحكمن بين العلماء والأدباء، فإذا ما شبت الحرب خرجن يشحذن من همم الرجال ، ويذكين من نخوتهم ، و يواسين الجرحى ، و يثنين على الشجعان .

ولولا المرأة المسلمة ما تمشى الإسلام من فوز إلى فوز : فالسيدة خديجة كانت أوّل من شجع النبي صلى الله عليه وسلم بعد روعة الوحى ، وكانت أوّل من قاسمه فى جهوده ، وأعانه بالعطف والرأى والمال .

و إذا عظم المسيحيون السيدة مريم فالمسلمون على بكرة أبيهم يعظمون فاطمة الزهراء بنت المصطفى : فقد فقد أولاده الذكور — رضوان الله عليهم — فى حياته، فمال بعطفه وحنانه جميعا إلى السيدة فاطمة : فأدبها فأحسن تأديبها ،

فكانت آية فى الفضيلة والعرفان، وتزوجت وهى فى السادسة عشرة من عمرها بعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه، فكان منها الحسن والحسين. وهما سيدا شباب العرب.

وعرفت فاطمة — رضوان الله عليها — بأنها كانت لا تقصر فى شئون بيتها، فإذا ما فرغت منه وأدّت الفرائض جمعت الصحابة وأخذت تنثر فيهم الغوالى من الحكم والنصائح والحض على الفضائل. وجاءنا كثير من قولها فى المرأة ووجوب تعظيمها.

وهناك سكينة ابنة الحسين — رضى الله عنهما — وكانت آية زمانها فى العلم والأدب، وكانت دارها مثابة للعلماء والأدباء، وبلغ من تأثيرها حتى فى النساء أنهن كن يقلدنها فى الملبس والحركة والإشارة.

واشتهرت سكينة بالنقد الصائب فى الشعر وفى الكرم والفضل على الشعراء.

وفى العربيات البارزات بعد ذلك الخيزران امرأة المهدى الثالث من بنى العباس. وكانت هى الآمرة الناهية فى البلاط وفى الدولة، وكانت من العجائب فى العقل والشجاعة والكياسة، يقف ببابها الوزراء والعلماء والشعراء. وبفضل هذه السيدة البارة رد المهدى إلى الأمويين ما صادره العباسيون لهم من الأملاك.

وهناك زبيدة زوجة الرشيد. وليس فى مسلمى الأرض كافة من يجهلها: فهى التى أمدت مكة بالماء الصالح للشرب من العين التى عرفت باسمها (عين زبيدة)، وهى التى أمرت ببناء إسكندرونة بعد أن دمرها البيزنطيون. وكانت تقرض الشعر الجيد، وتشير بالآراء الصائبة فى السياسة والحروب.

وبوران امرأة المأمون المشهور لم تقعد بها فارسيتها: فهى المسلمة التى جمعت ما بين الكياسة الفارسية والكرامة الإسلامية، وعرفت بالذكاء، وأقامت فى بغداد المدارس والمستشفيات.

ومن المشهورات فى الإسلام قطر الندى امرأة المعتضد بالله وأم المكتفى. وكانت من العليمات الخبيرات بالشرع والقضاء: فقامت بالوصاية على ابنها قبل بلوغ

الرشد، وأدارت الأحكام، وقضت بنفسها بين الناس، وأحاط بها كثير وكثيرات من الشعراء والشواعر والأدباء والأديبات .

وشجرة الدر امرأة نجم الدين أيوب . وقد أدارت بنفسها رحى الحرب على ملك الفرنسيس سان لويس، واعترف لها الناس بأنها مليكة مصر .

وإذا التفتنا إلى الأندلس وجدنا المرأة المسلمة بلغت هناك الأوج ، وحلت الذروة : قال فون كريمر المشهور فى تواليفه : إن العرب كانوا مفطورين على احترام النساء فى قرطبة، ومنها تعلم الأوربيون احترام السيدات .

وأقام عبد الرحمن على باب قصره تمثال امرأته الزهراء، وشيد قصرا لتخليد ذكرها وكثيرا من دور البر والاحسان .

وكثر فى الأندلس عدد المسلمات المتعلمات ،وكن يصلين بجانب الرجال فى جوامع قرطبة وغرناطة و إشبيلية وملقة ومرسية وغيرها .

ورقى الأمير سليم بعد وفاة والده السلطان محمد أحمد الأكبر عرش فارس، فتزوج بالسيدة مهر النساء، وكانت تتقن العربية والفارسية وآدابهما، ولها علم واسع بالموسيقى ،وكان زوجها يدعوها (نور محل) (نور القصر)،ودعاها الشعب(نور جهان) (نور الدنيا)، وتعاطت الأحكام حكيمة موفقة، وكانت تعرض الجند وتستقبل الأمراء والحكام، وكانت السكة فى الدولة باسم الشاه وباسمها، وكانت تتعاطى حتى الصيد على ظهور الجياد ومعها الوصيفات .

وحدث مرة أن زوجها وقع أسيرا فى بعض الحروب ، فقامت على رأس الجنود، فاستخلصته من قبضة الأعداء ، ولها فوق هذا فى البر آيات : فكانت تربى اليتامى واليتيمات وتزوجهن ، وكانت موئل المظلوم وملاذ المعدم، وقلما خلت مدينة حتى فى الهند من مكان باسمها .

ويتدبر المؤرخون جميعا حركة التقدم عند العرب ، فيجدونها مرتبطة برقى المرأة : ففى عهد انحطاطها وقف ذلك التقدم، وكانت العودة إلى القهقرى .

فإذا أراد المسلمون الآن استرداد ما كان لهم من تاريخ مجيد فما عليهم إلا أن يعملوا على إنهاض المرأة المسلمة إلى المستوى الذى كان لها فى صدر الإسلام .

هذا هو المقال البديع الذى نشرته فى العاصمة الفرنسية جريدة الإسلام لأولئك الإخوان الأمجاد الذين تصدّرهم مصرى لإصدار هذه الجريدة المحمودة .

السبيل الآخر لإصلاح المجتمع
الإكثار من وسائل إبطال الرق

تمهيد

ينبغى لنا قبل الخوض فى هذا الموضوع أن نوضح معنى الرق ، وأن نتكلم بإيجاز فى الاسترقاق عند الأمم المختلفة ومنشئه :

معنى الرق :

الرق فى اللغة الضعف ، ومنه رقة القلب . وعند الفقهاء عجز حكمى يصيب بعض الناس .

أما عند الفرنجة فهو حرمان الشخص حريته الطبعية وصيرورته ملكا لغيره .

منشأ الاسترقاق :

ظهر الاسترقاق منذ كان حجاب الجهالة مسدولا على المجتمع الإنسانى .

أسبابه :

(١) لما كان العمل من أصعب الضرورات وأضناها للجسم بحث الإنسان عما يخلصه من عنائه وشقائه ، فوجد طلبته بين يديه ، وسخر القوىّ الضعيف فى القيام بأعماله ، ومن ذلك نشأ الاسترقاق .

(٢) ثم تولدت الأطماع ، وجاءت الحروب فنشرت الاسترقاق عند معظم الأمم ، وصار الناس لايقتلون العدوّ إذا غلب ، بل يبقون عليه ليعمل لهم .

(٣) لطبيعة الأقاليم — وهي من أقوى العوامل في تكوين الجماعات البشرية — أثر عظيم في زيادة الاسترقاق واتساع نطاقه حتى بلغ عند الأمم التي على الفطرة في جميع بلاد المشرق مبلغا عظيما : لأن ثمن الرقيق كان زهيدا ، وعمله مفيد في الصناعات والتجارة .

غير أنه في الشمال كان الاسترقاق أقل انتشارا منه في الجهات الجنوبية من المعمورة : لأن تغذية الرقيق عندهم كانت تكلفهم نفقات جسيمة ، ولم يكن لعمله فائدة كبيرة .

وهذا يدل على أن الاسترقاق من الأمور الاقتصادية المترتبة على العمل والاشتغال .

الاسترقاق في الأزمنة القديمة

الرق عند قدماء المصريين

كان الرقيق عند قدماء المصريين آلة مسخرة للعمل ومن مشاهد الزينة ومظاهر الأبهة : فكان الأرقاء في قصور الملوك وبيوت الكهان والمقاتلين ، وكان الأسارى أرقاء للدولة يقومون بالأعمال التي تستدعيها حاجات القطر ، أو تتطلبها موجبات زخرفته وتحسين هيئته ، وفي غير الحالات التي تستدعيها المصلحة العامة كانت الأخلاق والعادات تقضي بمعاملة الرقيق بالشفقة والرحمة والدفاع عنه ، بل إن الشريعة تحميه من البغي والأذى : فقد نصت على أن من قتل الرقيق يقتل فيه ، وكان يجوز رفع الأمة إلى مقام الزوجية .

الاسترقاق عند الهنود

قد جعلت شريعة مانو[1] الناس طبقتين ممتازتين :

(١) الدُّوِيْداس : وهم الذين تتألف منهم الطبقات العالية : البراهمة ومن إليهم .

(١) هو مشرع هندي ينسب إليه الكتاب المسمى (مانا فاذا رماساسترا) وهو كتاب واف في علم الأخلاق والشريعة .

(٢) السُّودْرا : وهم الطبقة الدنيا المستخدمة .

ثم حدّدت درجتهم بالقياس إلى البراهمة وغيرهم ، وجعلتهم فى أحط منزلة ، ووضعت لهم القوانين الصارمة . ومن أمثلة ذلك ما يأتى :

(١) يجوز للبرهمى أن يجبر السودرا على الخدمة سواء اشتراه أو لم يشتره : لأنه رقيق ، ولأنه ما خلق إلا ليخدم البراهمة .

(٢) بل إذا أطلق سيده سراحه لا تفارقه صفة الخدمة : لأن هذه حالة طبعية مرتبطة بوجوده .

(٣) إذا مس السودرا أحد البراهمة بأذى فلا مندوحة عن قتله .

(٤) إذا وجه رجل من هذه الطبقة الدنيا سبا فاحشا إلى أحد الدويداس فجزاؤه سل لسانه .

(٥) وإذا ذكر أحدهم باسمه وبطبقته على سبيل الازدراء فجزاؤه أن يوضع فى فمه خنجر طوله عشر أصابع بعد إحمائه بالنار إحماء شديدا .

(٦) إذا اجترأ على إسداء النصح والمواعظ للبراهمة فيما يتعلق بواجباتهم فعلى الملك أن يأمر بوضع الزيت المغلى فى فيه وفى أذنه .

(٧) إذا سرق البرهمى من السودرا عوقب بالغرامة ، وأما إذا سرق السودرا فجزاؤه الحرق .

(٨) إذا تجاسر السودرا على ضرب أحد القضاة فليعلق بسفود وليُشْوَ حيا ، وإذا ارتكب البرهمى مثل هذه الجريمة فليغرم .

والمقرر فى الشرائع البرهمية تقسيم جميع الأشخاص الملزمين الخدمة قسمين : الخادمين ، والأرقاء . فالأعمال الطاهرة من خصائص الخادمين ، والأعمال النجسة على عواتق الأرقاء .

الاسترقاق عند الآشوريين والإيرانيين

يدل تاريخ مملكة آشور على أن الاسترقاق كان عريقا بها متأصلا فيها ، فقد كانت القصور تغص بالنساء والأرقاء المخصصين للجمال والزينة .

أما مملكة الفرس التى امتد سلطانها إلى حدود آسيا القديمة فقد استجمعت جميع أنواع الاستخدام المعروفة عند كثير من الأمم المختلفة : فقد كان فيها الأرقاء الرعاة، والأرقاء المختصون بحاجات الزينة والثروة .

وقد أجاز العرف والاصطلاح فى بعض البلاد أن يكون للأرقاء أوقات راحة كما اجتهد واضعو الشرائع فى إنصاف الموالى وتخفيف وطأة الظلم عنهم .

قال هيرودت : "لايجوز لأى فارسى أن يعاقب عبده على ذنب واحد اقترفه بعقاب بالغ فى الشدّة والصرامة ، لكن إذا عاد العبد لارتكاب الذنب فلمولاه أن يعدمه الحياة، أو أن يعاقبه بجميع ما يتصوّر من أنواع العذاب" .

الاسترقاق عند الصينيين

كان الاستخدام للمنفعة العامة شائعا فى الصين قبل التاريخ المسيحى بأجيال، يقوم به المحكوم عليهم والأسارى . ثم نشأ الاسترقاق ، وكانوا يجلبون الأرقاء من الخارج بالحروب ، أو يأخذونهم من ذات الصين كما كانت تفعل الدولة نفسها : لأن الفقير كان يضطر لبيع أولاده بسبب الفاقة والاحتياج ، وكانت هنالك أسر مستعبدة بسبب الشدّة، وكان للمولى التصرف المطلق بالرقيق يبيعه و يبيع أولاده .

إلا أن الاسترقاق فى بلاد الصين كان قليل الشدّة : فإن الشرائع والعرف والأخلاق كانت تساعد على تلطيف حاله :

فقد أصدر الإمبراطور كوانجون — وكان عائشا بعد المسيح عليه السلام بخمس وثلاثين سنة — أمرين اثنين بوقاية حياة الرقيق وشخصه ضمنها عبارات تشف عن كمال المروءة : فقد قيل فيهما :

"إن الإنسان هو أفضل وأشرف المخلوقات التى فى السماء والأرض . فمن قتل رقيقه فليس له من سبيل فى إخفاء جرمه، ومن أخذت به الجراءة فكوى رقيقه بالنار حوكم على ذلك بمقتضى الشريعة، ومن كواه سيده بالنار دخل فى عداد الوطنيين الأحرار" .

ولقد كان بعض الأرقاء يصادفه الحظ، فترتفع به المناصب، وينال ثقة مولاه، ويجد فى بعض المكاسب طريقة ينال بها حريته، ويتخلص من ربقة الرق . ولهذا كان الاسترقاق قليلا عند أمة الصين التى امتازت بجودة الفكر وأصالة الرأى .

الاسترقاق عند العبرانيين

كان الاسترقاق قديما عند هذه الأمة، وكان الأرقاء فى بنى إسرائيل من أصول الثروة وأسباب الغنى عند أولئك الرؤساء الذين كان دأبهم الحل والترحال إلا أنه كان للأرقاء عندهم بعض الحقوق : كاستراحة سبعة أسابيع فى السنة، وعدم جواز ضربهم ضربا مبرحا . ومن فعل ذلك أوخذ بعقاب فيه بعض الشدة، وكذلك من بتر الرقيق أو كسر له عضوا أو سنا . ولهذا يصح القول بأن العبرانيين كانوا يعاملون الأرقاء معاملتهم أنفسهم، وكثيرا ما كان يتفق للولى أن يميز إحدى إمائه : فيتخذها حليلة ، بل أغرب من ذلك أن العبد كان يتاح له فى بعض الأحيان أن يتزوج ببنت مولاه حينما لا يكون للولى أولاد ذكور ، وكان العبرانيون يتسرون غالبا جواريهم .

والخلاصة : أن الاسترقاق عند العبرانيين وعند غيرهم من سائر أمم الشرق كان مقرونا باللطف والعطف اللذين لا يرى لهما مثيل فى اليونان والرومان، وفضلا عن ذلك فقد ورد فى شريعة سيدنا موسى عليه السلام : أن العبد إذا استحق القصاص فلا يصدر الحكم عليه إلا من القاضى : حماية له ورحمة به من قسوة الموالى وانتقامهم .

الاسترقاق عند الإغريق

كان الاسترقاق قديما وشائعا فى جميع بلاد اليونان ، وأثبت مشروعيته وصحته رأس فلاسفتهم أرسطو الذى عرف الرقيق بأنه : (آلة ذات روح ، أو متاع قائمة به الحياة) .

ثم قسم الجنس البشرى قسمين، وهما : «الأحرار، والأرقاء بالطبع» .

وقد قسم اليونان الرقيق صنفين متباينين :

(١) سكان الأقطار المفتوحة المغلوبة على أمرها : وهؤلاء تابعون لأرضهم بجزء منها .

(٢) أرقاء البيع والشراء : وهؤلاء كان للموالى عليهم السيادة المطلقة . وأغلب الأرقاء من الصنف الثانى .

وكان سبيل الاسترقاق التلصص فى البحار وخطف سكان السواحل ، وكانت المستعمرات اليونانيــة واثينا وقبرس وساموس وصاقس أســواقا عظيمة ومراكز لبيع الأرقاء ، ويعمل العبيد لمواليهم أو لأنفسهم بشرط أن يدفعوا لأسيادهم مبلغا معينا كل يوم . وكثير من اليونان من اشتروا العبدان ، وخصصوهم للإجارة ، وكان هذا من أفضل الوجوه فى استثمار المـال ، ولم يخل بيت فى أثينا من عبد قائم بخدمته مهما كان صاحبه فقيرا ، وكان المولى مطلق التصرف فى عبده وإن لم تبلغ الشدّة فى معاملته عند اليونان ما بلغته لدى الرومان .

وعقاب العبد الجلد بالسوط وبالطحن على الرحى ، وكان يكوى الآبق أو الوارد من البلاد المتبربرة بالحديد المحمى على جبهته . على أن حيـاة الرقيق وشخصـه كانا مكفولين بالقانون : فما كان يعدم إلا بعد صدور حكم القانون عليه . .

وكان فى أثينـا أناس من العتـق ملزمون الولاء لمواليهم مدى الحيـاة وعليهن واجبات مفروضة ، ولكنهم لم يكتسبوا الحقوق الوطنية ، بل مقامهم كالغرباء .

كما كان هناك أرقاء تستخدمهم الدولة لحفظ المدن وحراستها والاستعانة بهم على استتباب الأمن وتوطيد دعائم الراحة فى الاجتماعات العامة .

الرق عند الرومان

كان العمل برومة موكولا إلى العمال الأحرار ، ولذلك انبثت روح الشهامة والرجولة فى جميع سكان هذه المدينة التاريخية ، ولكن لمـا كثرت الحروب وتوسعت رومة فى الفتوح وعم الترف اتكل الأغنياء على العبيد ، واستعملوهم فى حراسة الأرض ، وأسندت إليهم الصناعات والفنون .

وجوه الاسترقاق

كانت وجوه الاسترقاق برومة متعدّدة :

(١) الحروب وهى أعظم موارده .

(٢) العبيد بالولادة (المولودون من الأرقاء) .

(٣) أحرار قضى عليهم بعض نصوص القوانين بالوقوع تحت نير العبودية : كمدين لم يتيسر له وفاء دينه .

وكثيرا ما كان يرافق النخاسون الجيوش ، ويبيعون آلاف الأسرى بأثمان بخسة : كما كانوا يسرقون الأطفال للبيع ، والنساء لاتخاذهن فيما ينافى الآداب .

وكانت العادة فى رومة بيع الرقيق بالمزايدة : يوقف على حجر ليراه كل أحد . كما كانت العادة أن المشترى يطلب رؤية الأرقاء عراة للوقوف على عيوبهم .

وكانت أثمان العبيد المتعلمين والمعدّين لتمثيل الروايات والجوارى البارعات فى الجمال غالية جدّا . ولما عم الفساد واختلت قواعد الآداب صار بيع الحسان من أسباب الثروة والغنى .

أقسام الرقيق

كانت رومة شبيهة ببلاد اليونان فى تقسيم الأرقاء إلى :

(١) أرقاء يؤدّون منفعة عامة : وهم أحسن حالا من غيرهم ، ويقومون بحفظ المبانى ومساعدة القضاة والكهان ، ويستخدمون سجانين وجلادين .

(٢) أرقاء خصوصيين : وهؤلاء يقومون بخدمة مواليهم وقضاء مصالحهم .

قيمة الرقيق

ولم يكن الرقيق فى نظر القانون شيئا : فليس له ملكية ولا أسرة ولا شخصية ، وهو تابع لأمه حرية ورقا حين الوضع لا حين الحمل .

ولا حدّ لسلطان الموالى على أرقائهم : فيعاقب الرقيق على الهفوة بما يشبع شهوة المولى : من مشاق الحراثة والزراعة مكبلا بالحديد ، إلى الجلد بالسياط الذى قد

ينتهى بالهلاك، إلى تعليقه من يديه وربط الأثقال برجليه ، إلى مقاتلة الوحوش والحيوانات الكاسرة .

ثم نظر إليهم بعين الرأفة والرحمة، وسن لهم أول قانون : وهو قانون (پترونيا)، وفيه أنه يحرّم على الموالى إلزام أرقائهم مقاتلة الوحوش . على أن هذا الجزاء قد يصح أن يقع بإذن من القاضى.

ثم جاء «أنطونان وكلوديوس» ، فنهيا عن سوء معاملة الأرقاء، وشرعا أن السيد إذا قتل عبده عد مرتكبا لجناية القتل .

الاسترقاق فى القرون الوسطى

قوانين الأمم المتبربرة[١] تشبه قوانين الرومانيين فى كونها تجعل الرقيق كالحيوان : يتصرف سيده فيه كما يشاء ، ويجوز له قتله : لأنه شىء من الأشياء التى يملكها . وهذه الأمم فروع :

(١) الفرع الأول : الغاليون . كان الأرقاء مكلفين حراثة الأرض والزرع والحصد : لأن هذه الأعمال كانت فى عهد شيشرون[٣] من موجبات الاحتقار والهوان لا ينبغى أن يزاولها الأحرار .

(٢) الفرع الثانى : الجرمانيون[٤] . يخصر الاستعباد عند الجرمانيين فى أن يؤدّى الأرقاء لمواليهم مقادير من القمح أو الماشية أو الملابس كمؤاجرين . ولكل منهم مسكن يديره كيف يشاء : لأن مواليهم كانوا مولعين بالقمار .

---

(١) هى أمم أغارت على المملكة الرومانية غير مرة لأسباب متنوعة ، وهى تتألف من ثلاثة أجناس كبيرة : الجنس الرومانى، والصقلى، والسيتى .

(٢) هم سكان تلك البلاد القديمة المعروفة باسم غاليا وهى غاليا الحقيقية : (فرنسا)، وغاليا التى أمام جبال الألب : (إيطاليا الشمالية) ثم أقاليم الغاليا : (الجزائر البريطانية وفرنسا وإسبانيا القديمة) .

(٣) شيشرون أفصح خطباء الرومان ولد سنة ١٠٦ ق م ، ثم درس البلاغة والفلسفة على أشهر أساتذة عصره .

(٤) هم سكان جرمانيا التى هى الآن ألمانيا .

(٣) الفرع الثالث[1] : الفرنج . وصل الاسترقاق عندهم إلى نهاية الشدّة : فإن القانون السالى جعل سدا منيعا بين الأحرار والعبيد ، حتى إنه إذا تزوج أحد برقيقة أجنبية وقع فى الرق والاستعباد ، والمرأة الحرة التى تتزوج برقيق تفقد حريتها .

(٤) الفرع الرابع : الويزيقوط[2] . بلغت الشدّة غايتها فى معاملة الرقيق عند هذه الأمة ، حتى إن الحرّة إذا تزوجت برقيقها حرقت معه وهما على قيد الحياة ، ويجلد كل منهما ويفسخ العقد إذا لم تكن تمتلك العبد .

(٥) الفرع الخامس : الاستروقوط[3] واللبرديون . وضعت أحكام صارمة عند هاتين الأمتين ، حتى إن المرأة الحرة التى تتزوج برقيق تعاقب بالإعدام .

(٦) الفرع السادس : الإنجلوسكسون[4] . كانوا يقسمون الرقيق صنفين عظيمين :

(١) الأرقاء المشبهون بالمتاع ، وهؤلاء يجوز بيعهم .

(٢) الأرقاء المشبهون بالعقار ، وهؤلاء لا ينفكون عن الأرض : يقومون بحراثتها وزرعها . ثم يسمح لهم بجمع رأس مال يتمكنون به من نيل حريتهم .

الاسترقاق فى الأزمنة الحديثة

إن استرقاق الزنوج فى الأزمنة الحديثة يشبه استعباد الرومانيين من حيث الشخص المستخدم ، لكن يخالفه مخالفة جوهرية من حيث أن فتوح المستعمرات

(١) الفرنج أمة حرة مؤلفة من جملة أسر جرمانية سكنت بطائح نهر الرين الأسفل ، وهى من أشهر الأمم التى ظهرت فى القرنين الثانى والثالث بعد المسيح عليه السلام ، وكانوا على جانب عظيم من المكر والدهاء والغدر لا يرعون إلا ولا ذمة .

(٢) هم فرع من أمة القوط : وهى أمة قديمة بجرمانيا جاءت الأندلس .

(٣) الاستروقوط فرع من الأمة المتقدمة ملك إيطاليا مدة من الزمن ، واللبروديون سكان لمبردية من القرن السادس إلى الثامن بعد المسيح .

(٤) هو اسم جنس أطلق على الأمم الجرمانيـة التى أغارت على بريطانيا العظمى فى القرن الخامس للميلاد . ومنهم تناسل الإنجليز .

لم يأت بامتلاك الأراضى مع العامل الذى يحرثها، بل إن كشف الأرض تبعه إبادة الأهالى فاحتيج إلى جلب الزنوج .

القانون الأسود

يطلق هذا الاسم فى جميع البلدان على مجموع القواعد والأصول المدونة بشأن الاسترقاق : فقد صدر فى ١٧ من مارس سنة ١٦٨٥ م مرسوم فى فرنسا بتنظيم احوال الأرقاء والعتق فى المستعمرات الفرنسية، ولكنْ صادفته معارضات قوية عند التطبيق أضاعت خيره، وأبقت شره، وقضى على الرقيق بأنه لا نفس له ولا روح ولا إرادة . وهذه بعض مصائبه :

(١) إذا اعتدى الزنوج بأقل إكراه على ساداتهم أو على الأحرار أو ارتكبوا أخف السرقات فالجزاء القتل .

(٢) وعقاب الإباق فى المرة الأولى والثانية صلم الآذان وكى بالحديد المحمى، وفى المرة الثالثة القتل .

(٣) إذا ارتكب المالك أو الرئيس أية جناية على الرقيق ولو القتل يكون للقضاة الحق فى الحكم بالبراءة .

(٤) تحريم غير البيض من الحضور إلى فرنسا للتغذى بألبان العلوم والمعارف. هذا فى فرنسا .

وفى أمريكا أشدّ وأقسى :

(١) فللمولى حق مطلق فى بيع العبد وكرائه و رهنه والمقامرة عليه، وعليه الطاعة .

(٢) ليس للعبد حق فى الذهاب والمجىء وما كان له أن يخرج من الزرع إلا بإذن السيد .

(٣) إذا اجتمع فى الطريق العام أكثر من سبعة يعتبرون مخالفين .

(٤) لايجوز أن يشهدوا فى قضية إلا على الأرقاء أمثالهم، ولا ينبغى تحليفهم اليمين صونا للقسم . أما فيما يتعلق بالواجبات المفروضة عليهم فهم يعتبرون أحرارا متى كانت الحرية وسيلة إلى الجلد أو الإعدام .

(٥) ومن اجترأ على دفع الأبيض عن نفسه وقتل المعتدى عليه عدّ مرتكبا لجريمة القتل .

(٦) تحريم السفر عليه وحظر إعطائه الجواز .

(٧) وكل من أشار على أحد الأرقاء أو على جماعة منهم بخلع الطاعة أو نشر كراسة أو رسالة فى تحريض الأرقاء على عدم الامتثال أو أدخل بقلمه فى أرض الحكومة صحفا أو كراسات أو كتبا مؤلفة فى الطعن على الاسترقاق، يجازى أشدّ جزاء .

هذه أخص الأحكام المدونة فى القانون الأسود قبل أن تثور الحرب المدنية التى خربت الولايات المتحدة، وانتهت بفوز الزنوج بحريتهم .

الاسترقاق فى الديانة المسيحية

لا تجد فى الديانة المسيحية نصا صريحا ضدالاسترقاق، ولم يأت به الحواريون، ولا قالت طائفة من الطوائف النصرانية فى الكنائس المختلفة بتحريم الاسترقاق إلا ما جاء فى الإنجيل : من أن الناس كلهم يعتبرون إخوانا، وأنه يجب عليهم أن يحب بعضهم بعضا .

بل أوصى بولس(١) الأرقاء فى رسالته التى بعث بها إلى الأفسسيين(٢) أن يطيعوا مواليهم مع الخوف والرعب كما يطيعون المسيح عليه السلام : كما أوصاهم الحوارى بطرس(٣) أيضا بأن يكونوا خاضعين لمواليهم وأن يخشوهم .

---

(١) القدّيس بولس : ولد فى السنة الثانية للميلاد من أبوين يهوديين فى مدينة طرسوس .

(٢) هم سكان مدينة أفسس القديمة فى آسيا الصغرى وهى شهيرة بهيكل ديانا الذى يعدّ من عجائب الدنيا السبع .

(٣) أحد الحواريين الاثنى عشر ولد فى بيت صيدا .

وعلى إثرهما سار آباء الكنيسة ، فأباحوا الاسترقاق وأقروه : أفتى بذلك (سيبريانوس)[1] و (توماس)[2] الذى يقول : « إن الطبيعة خصصت بعض الناس ليكونوا أرقاء » وقال بابى : بصحة الاسترقاق معتمدا على ما ورد فى الإصحاح الحادى عشر من سفر الخروج، وفى الإصحاح الخامس عشر من سفر الأحبار .

وأقر بوفييه أسقف ألمان — عاصمة مقاطعة السار فى فرنسا — الاسترقاق، واعتبر النخاسة تجارة محللة. وأثبت الأب فوردينييه — رئيس دير الروح القدس — أن الاسترقاق من جملة النظام المسيحى .

وقال باتريس لاروك فى كتابه (الاسترقاق عند الأمم النصرانية) :

إن الديانة المسيحية لم تحرم الاسترقاق نصا ، ولم تلغه عملا .

ثم قال بيير لاروس (من كبار الأدباء فى فرنسا) : « لا يعجب الإنسان من بقاء الاسترقاق واستمراره بين المسيحيين إلى اليوم : فإن نواب الديانة الرسميين يقرون صحته ، ويسلمون بمشروعيته » .

والخلاصة : أن الديانة المسيحية ارتضت الاسترقاق ارتضاء تاما إلى يومنا هذا، ويتعذر على الإنسان إثبات أنها سعت فى إبطاله ، حتى جاءت الثورة الفرنسية التى نادت بأن جميع الناس متساوون أمام القانون .

الرق فى الإسلام

مما تقدم يتبين أن الإسلام جاء والاسترقاق منتشر فى العالم جميعه مع تشعب سبل الاسترقاق وفقد طرق التحرير ووجود التشديد القانونى على الأرقاء والانفصال التام بينهم وبين مواليهم ، فلم يكن من الحكمة مفاجأة العالم بإبطاله جملة واحدة : لأنه أمر تأصل فى العالم بتقرير الشرائع السماوية والأرضية السابقة ، وتمسك الناس به أحقابا وقرونا، واتخذوه أصلا من أصول مدنياتهم . ولو فاجأهم الشرع

---

(١) ولد بقرطاجنة من أبوين وثنيين فى أول القرن الثالث للميلاد ثم تنصر .

(٢) من مشاهير اللاهوتيين .

الإسلامى بذلك لأحرج صدورهم وألجأهم إلى الاحتجاج بقواعد الشرائع الإلهيـة والوضعية، ووقوفهم موقف المدافع المعاند .

بيد أن الإســلام جعل سبيل الرق فذا : وهو المحاربة الشرعية المنظمة لقوم كافرين بعــد عرض الإسلام أولا ، ثم الجزية : فإن أجاب الأعداء إلى أحدهما عصموا أنفسهم وأموالهم وصار لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، و إن أبوا ودارت عليهم الدائرة صاروا أرقاء للغالبين بعد إذن من الإمام .

على أن ذلك لا يحرمهم نعمة الرجوع إلى الحرية إذا افتــدوا أنفسهم بمـال، كما أن للحاكم أن يطلق سراحهم لوجه الله تعـالى . قال تعالى : ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ .

ســـبل التحـــرير

أما سبل التحرير فكثيرة أهمها ما يلى :

(١) تحرير النفس وســيلة لغفران الذنوب العامة : تأمل قوله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه أعرابى فقال : يا رسول الله : دلنى على عمل يدخلنى الجنة، فقال : ﴿عِتْقُ النَّسَمَةِ، وَفَكُّ الرَّقَبَةِ﴾ قال الأعرابى : يارسول الله : أو ليسا واحدا؟ قال : لا : عتق النسمة أن تنفرد بعتقها، وفك الرقبة أن تعين فى ثمنها .

(٢) قررت الشريعة أن يتبع غير الحر من الأجزاء الحر منها : فمن أعتق بعض عبده سرى العتق إلى باقيــه ، وكذا لو أعتق بعض الشركاء نصيبه فإن العتق يسرى إلى الكل ، ويقوم على المعتق نصيب شركائه إن كان له مال و إلا سعى العبد لأداء نصيبهم، فيخلص من الرق .

(٣) جعلت الشريعة العتق كفارة للقتل الخطأ : ﴿ وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ ﴾ :

وسر ذلك أن القتل إعدام للحياة الجسمية والتحرير بالكفارة إيجاد للحياة المعنوية .

(٤) التحرير أفضل سبيل لغفران الحنث فى الحلف بالله أو بصفة من صفاته .

(٥) إذا ظاهر الرجل من زوجه ثم عاد لما قال وأمسكها فى عصمته وجب عليه أن يسلك سبيل التحرير لا غير متى كان مستطاعا ، فيحرر رقبة من قبل أن يتماسا .

(٦) من علم فى مولاه الخير فكاتبه على قدر معين يؤديه فى نجمين أو أكثر لزمه العقد ، وندب الحط من مال الكتابة ، ويصبح المولى حرا بأداء النجوم أو الإبراء أو الاعتياض ، وتسرى الكتابة إلى ولد المكاتبة بعد الكتابة ، فيعتق بعتقها .

(٧) من نذر تحرير رقبة إن نال ما يرجوه أو سلم مما يخشاه لزمه الوفاء بما نذر إن تم له مراده .

(٨) أباحت الشريعة الزواج بأرقاء ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ ثم جعلت الأولاد من هذا الزواج أحرارا يرثون آباءهم . وقد كان المتبع عند الوزيقوط — فرع من القوط أمة قديمة بجرمانيا — إحراق الحرة مع زوجها إذا تزوجت برقيق .

مميزات الرقيق

نظر الشرع الإسلامى نظرة عطف ورحمة إلى المستضعفين بالرق الذين لم تتم نعمة الله عليهم بالحرية الكاملة : فلم يجعل جرائمهم المشابهة لجرائم الأحرار متماثلة فى القبح والاستنكار ، بل جعل جريمة الرقيق لضعفه ونقص نعمة الحرية عنده أقل من جريمة الحر لقوته وتمام نعمته : بأن صير عقوبة الرقيق نصف عقوبة الحر إن لم يمنع من ذلك مانع : فعليه نصف ما على المحصن الحر من الجلد بالقذف مثلا . ولتعذر التنصيف فى عقوبة قطع اليد فى السرقة أبقيت كاملة خصوصا أن فيها حفظا للأموال وردعا للنفس الشريرة .

مزايا العتق الاجتماعية

(١) وصلت الشريعة الإسلامية المولى بسيده بعد فصله عنه بالعتق فأوجدت بينهما ولاء جل فوائده للمولى لا للسيد : لأن هذا الولاء يصونه عن ضعف العزلة والانفراد، وعما يحدثه عدم العصبية من الخذلان والإذلال : فالرقيق يؤتى به عادة من بلاد قاصية فلا يكون له عضد سوى مولاه . فإذا انفصل عن سيده انفصالا تاما آلمه انقطاعه عن جميع الناس، ولحقه ضرر كثير .

(٢) هذا الولاء يوجب على السيد القيام بحاجة المولى إذا عجز عن تحصيلها : تأمل قصة زنباع مع غلامه : ذلك بأن غلامه اقترف إثما ، فجدع زنباع أنفه، فجاء الغلام إلى المصطفى صلى الله عليه وسلم يشكو زنباعا ، فقال الرسول لزنباع : ما حملك على هذا ؟ قال : كان من أمره كذا وكذا ، فقال الرسول للغلام : اذهب فأنت حر، فقال : يارسول الله : فمولى من أنا؟ فقال : مولى الله ورسوله . ولما قبض صلى الله عليه وسلم جاء هذا الغلام إلى أبي بكر، فقال : وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : نعم : تجرى النفقة عليك وعلى عيالك، ثم قال : مثل ذلك لعمر بن الخطاب حين خلافته فقال : نعم : أين تريد؟ قال : مصر، فكتب إلى عامله بها أن يعطيه أرضا يأكل من ثمرها .

(٣) هذا الولاء يكسب المعتقة الرغبة فيها : فإن من الناس من يأبى الاقتران بمن لا ولى لها من الأهل أو من يكونون بمنزلتهم . أضف إلى ذلك أن الولى قد يعرف الصالح لها دونها .

معاملة الرقيق

ما جعل الإسلام الاسترقاق موجبا للهوان ولا مسقطا للكرامة ، ولم يكن عند المسلمين ذلك الفرق الجسيم بين الرقيق وسيده ، بل عاملوا الموالى كأفراد من الأسرة ، وخلطوهم بأنفسهم ، وأوجبت الشريعة معاملتهم بالرفق واللين ، قال تعالى : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ

وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ ، وروى على كرم الله وجهه عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : « اتَّقُوا اللهَ فِيمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » وروى ابن عمر عنه صلى الله عليه وسلم : « اتَّقُوا اللهَ فِي الضَّعِيفَيْنِ : الْمَمْلُوكِ وَالْمَرْأَةِ » وروى أنه قال : « إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ وَيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ » وقال ابن عمر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مَنْ لَطَمَ مَمْلُوكَهُ أَوْ ضَرَبَهُ فَكَفَّارَتُهُ عِتْقُهُ » . وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تحقير العبد وتذكيره ما هو فيه من الاستعباد ، فقد جاء عن أبى هريرة أنه قال : قال عليه الصلاة والسلام : « لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ : عَبْدِى . أَمَتِى . وَلْيَقُلْ : فَتَاىَ وَفَتَاتِى وَغُلَامِى » .

هذا إلى أن الإسلام حث على تعليم الرقيق وتهذيبه : فقد قال عليه الصلاة والسلام : « مَنْ كَانَتْ لَهُ جَارِيَةٌ فَعَلَّمَهَا وَأَحْسَنَ إِلَيْهَا وَتَزَوَّجَهَا كَانَ لَهُ أَجْرَانِ فِى الْحَيَاةِ وَالْأُخْرَى : أَجْرٌ بِالنِّكَاحِ وَالتَّعْلِيمِ ، وَأَجْرٌ بِالْعِتْقِ » .

وفى التاريخ مُثُل سامية لما وصل إليه الموالى من المنزلة : فقد أمَّر صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد على جيش فيه سيدنا أبو بكر وعمر رضى الله عنهما .

الخلاصة

اتضح من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال الأئمة وشواهد التاريخ أن الدين الإسلامى ضيق حدود الاسترقاق ، وبين وسائل الخلاص لمن وقع فى شراكه ، وبسط له جناح رعايته ولواء حمايته ، وأوصى بالرفق به ومعاملته بالحسنى ، وتأديبه وتهذيبه ، وعدم احتقاره ، وأن يُزَوَّج الأرقاء : تعجيلا لتخليصهم من ربقة الاستعباد .

ولا يضير الإسلام ما كان يشاهد فى كثير من بلاد المسلمين من خطف الزنوج وبيعهم واسترقاقهم : فما كان عمل الجاهلين حجة على الأديان فى أى عصر من العصور .

المقصد الرابع

مقت البطالة ووجوب العمل لكسب المال من الوجوه المشروعة

خلق الله تعالى هذا العالم الأرضى، وجعل أعيانه كلها مسخرة للإنسان الذى زانه بالعقل، وحلاه بالفكر، وسخره بالإرادة : ليعمر الأرض تعميرا يوافق السنن الإلهى المطلوب فى تنظيم العالم وتنسيق أشيائه واستخراج مواد معاشه على الوجه الأكمل. ولقد نطق الكتاب العزيز بذلك فى كثير من المواضع : منه ما هو على سبيل الاستنارة، ومنه ما هو على سبيل الحث لتجويد الأعمال :

قال تعالى فى خطاب بنى إسراءيل : ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ ، وقال فى خطاب المسلمين : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ ﴾، وجاء فى تذليل الأرض وتسخيرها لبنى آدم: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِى الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾، وجاء فى تحرى أحسن العمل فى الأرض : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ ، وقال تعالى فى السعى وطلب الرزق : ﴿ فَانْتَشِرُوا فِى الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ ، وقال فى تقسيم الأعمال والمساعى : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ إلى غير ذلك من الآيات البينات والحجج القاطعات موردة فى معرض الأمثال تارة والحث على السعى فى طلب الرزق أخرى حتى يتم عمار هذا العالم وصلاح هذه الدار التى هى مزرعة الآخرة : قال عليه الصلاة والسلام : «احْرِثْ لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا وَاحْرِثْ لِآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ تَمُوتُ غَدًا » .

فالدنيا نعمة، واستصلاحها واجب، والشكر عليها واجب : قال عليه الصلاة والسلام فى معرض الحث على العمل والسعى على الرزق : « إِنَّ مِنَ الذُّنُوبِ ذُنُوبًا لَا يُكَفِّرُهَا إِلَّا الْهَمُّ فِى طَلَبِ الْمَعِيشَةِ» ، وقال صلى الله عليه وسلم : «مَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا

حَلَالًا وَتَعَفُّفًا عَنِ الْمَسْأَلَةِ وَسَعْيًا عَلَى عِيَالِهِ وَتَعَطُّفًا عَلَى جَارِهِ لَقِيَ اللهَ وَوَجْهُهُ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ» . وقال عليه الصلاة والسلام : «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ يَتَّخِذُ الْمِهْنَةَ لِيَسْتَغْنِيَ بِهَا عَنِ النَّاسِ» ، وقال « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُؤْمِنَ الْمُحْتَرِفَ » .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى الحث على العمل : « لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول : اللهم ارزقنى فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة» ، والآثار والأقوال فى باب فضل العمل والسعى وا كتساب المال الحلال يضيق عنها الحصر .

لاحتياج النـاس بعضهم إلى بعض سخر الله كل واحد منهم بصناعة يتعاطاها ينشرح بهـا صدره و يؤثرها على غيرها من الحرف . ولولا التسخير الإلهى لاختـار النـاس بأجمعهم صناعة واحدة، فتبطل الأقوات والمعاشات . فحكمة الله تعـالى سخرت الناس فى أعمال منوعة : فمن الناس من هو راض بصنعته لا يريد عنها حولا : كالحائك الذى يرضى بصنعته و يعيب الحجام، والحجام الذى يرضى بصناعته و يعيب الحائك . ومنهم من هو كاره لها يكابدها مع الكراهية كأنه لا يجد لها بدلا . وعلى هذا دل قوله عليه السلام : « كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ »، وقوله تعـالى : ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ، وقال ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ ، وقال عليـه السلام : « لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا تَبَايَنُوا فَإِنْ تَسَاوَوْا هَلَكُوا » والتفرقة والاختلاف فى نحو هذا الموضوع سبب الائتلام والاجتماع والاتفاق كاختلاف صور الكتابة وتباينها وتفرقها التى لولاها ما حصل لها نظام .

ومن ذلك يتبين أن الانقطاع عن العمل والتفرغ للعبادة جملة ليس من المبادئ الإسلامية ألبتة : فالإسلام يكره الكسل، ويحرم البطالة ، و يمقت صاحبها، و يفضل رجل العمل : وعظ لقمان الحكيم ابنه فقال : «يابنى : استغن بالكسب الحلال عن الفقر : فإنه ما افتقر أحد قط إلا أصابه ثلاث خصال : رقة فى دينـه ، وضعف فى عقله ، وذهاب مروءته . وأعظم من هذه الثلاث استخفاف الناس به» فالعمل

والسعي واجبان إنسانيان، والإسلام يحث عليهما، ومن تعطل أو تبطل لأي سبب وبأية حجة فقد انسلخ عن الإنسانية وصار في حكم الموتى .

ولقد كان للسلف الإسلامي عناية بالصناعات التي اشتغلوا بها ، واعتمدوا عليها في رقيهم بقدر ما وسعه مبلغ تقدمهم ، وتحروا فيها الكمال والإتقان الذي ندب إليه الشارع الحكيم عليه السلام : «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الصَّانِعَ الحَاذِقَ» .

ولا معنى لهذا وأشباهه سوى حث الهمم على تحرى الاستجادة وإتقان الأعمال لنيل المزيد في الربح والرواج فضلا عن بلوغها الكمال العمراني الذي هو أسمى ما يطلب من الإنسان بمقتضى فطرته ووظيفته في الأرض .

والصناعات البشرية التي يعتمد عليها أكثر الناس في تحصيل العيش والكسب كثيرة لكثرة فروع الأعمال المتداولة بين البشر على حسب بيئات بلدانهم وأقطارهم المختلفة في أشيائها ومنتجاتها وأحوال ارتقائها . فلكسب العيش وتحصيل الأرزاق ولنيل العز والسعادة والغبطة في هذا العالم لا بد للمرء في شريعة الإسلام من عمل يعمل فيه وحرفة يحترفها وصناعة يمارسها .

وخلاصة القول : أن العمل واكتساب المال على أنواعه من وجوهه المشروعة مع أداء الحقوق المفروضة على المرء فيه والاعتدال في الإنفاق وادخار المال للأيام وكبار الأعمال هو القطب الذي تدور عليه رحى هذه الدنيا في عمارها ، والغاية التي يقصدها الإسلام في آدابه العالية وتعاليمه السامية .

المقصد الخامس

حسن المعاملة

قالت الحكماء : «الإنسان مدني بالطبع» : فلا بد له من الاجتماع ببني جنسه ليأنس بهم ويأنسوا به متكافلين في الأعمال متضافرين في المساعي . وقد يشارك كثير من أنواع الحيوان الإنسان على نوع ما في فضيلة العيش جماعات — غير أنها

تختلف فى الكيفيات والترتيبات المبنية على قوة الفكر والعلم والعمل المحكم : كالقردة والفيلة وبقر الوحش والقط والنمل والنحل .

ولقد نبه القرآن المجيد على هذا الاجتماع الإنسانى وآدابه فى كثير من المواضع : قال تعالى فى تفاضل الشعوب : ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ ، وقال تعالى فى التعاون الصحيح : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ وبين كذلك حال العشرة القريبة فى النسب والمصاهرات والقرابة .

وقال عليه السلام فى أدب الاجتماع وحقيقة مبدئه فى التكافل والتعاون بين أبناء المجتمع الواحد : « الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا » ، وقال جل شأنه : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ ، وقال عليه السلام : « مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِى تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى عُضْوٌ مِنْهُ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُهُ بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ » .

وأول رباط فى العشرة الزواج . وقد جعله رسول الله صلى الله عليه وسلم من سنته : فقال : « النِّكَاحُ مِنْ سُنَّتِى وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ سُنَّتِى فَقَدْ رَغِبَ عَنِّى » . والزواج أفضل ما يحفظ قوام المجتمع : فقد جاء فى الحديث : « مَنْ تَزَوَّجَ فَقَدْ أَحْرَزَ شَطْرَ دِينِهِ فَلْيَتَّقِ اللهَ فِى الشَّطْرِ الثَّانِى » .

وفوائد الزواج فى المجتمع خمس :

(١) إيجاد الولد بقاء للنسل وحفظا للجنس : وهو الأصل فى حكمة الزواج حتى لا يخلو العالم من جنس الإنس : قال عليه السلام : « تَنَاكَحُوا تَنَاسَلُوا » ، وقال تعالى : ﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ .

ولمراعاة هذا السنن الإلهى والواجب الطبيعى لم يرد فى أحوال المسلمين ولا فى شريعتهم أمر الرهبانية أو العزوبة الدائمة إلا للعذر الشرعى .

(٢) الحاجة الطبيعية : حتى تكسر الشهوات ، وتحصن النفوس ، وتلزم العفة المطلوبة شرعا : ففى الزواج قهر غائلة النفوس ، وصيانتها من الوقوع فى فساد الأخلاق والموبقات المفسدة لحال الاجتماع .

(٣) إدخال الراحة على النفس والهناءة والسعادة وترويح القلب : حتى لا تتصرف حواسه عن غير حلاله ، وحتى ينشط ويتفرغ لعمله المعاشى فى نهاره والقيام بتكاليف الحياة المطلوبة : جاء فى الخبر : « لَا يَكُونُ الْعَاقِلُ طَامِعًا إِلَّا فِي ثَلَاثٍ : تَزَوُّدٍ لِمَعَادٍ وَحِرْفَةٍ لِمَعَاشٍ وَلَذَّةٍ فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ » ، وقال الإمام على كرم الله وجهه : « روحوا القلوب ساعة فإنها إذا أكرهت عميت » .

(٤) تدبير المنزل من الطبخ واللباس والفرش والكنس وتنظيف الأوانى وتهيئة كل مطالب البيت . ولذلك يجب تربية الفتيات تربية منزلية صحيحة تعلمهن القيام بواجباتهن المنزلية عند ما يصرن نساء لرجال الأمة : قال عليه السلام : «مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ فَأَنْفَقَ عَلَيْهِنَّ وَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ حَتَّى يُغْنِيَهُنَّ اللهُ عَنْهُ أَوْجَبَ اللهُ لَهُ الْجَنَّةَ أَلْبَتَّةَ أَلْبَتَّةَ» : ومن الإحسان إليهن حسن تربيتهن .

(٥) مجاهدة النفس وحثها على زيادة التنشط فى السعى على الأرزاق والكسب الحلال . وفى الحديث : « كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ» .

والآداب المطلوبة من الزوجين كثيرة : فمنها :

(١) تحسين الخلق بين الزوجين : لتصفو لهما المودة وتحسن بينهما العشرة : قال الله تعالى : ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ ، وقال عليه السلام : « أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا وَأَلْطَفُهُمْ بِأَهْلِهِ » .

(٢) الاعتدال فى الإنفاق : وهو مطلوب فى كل شىء من الرجل والمرأة .

(٣) الغيرة : وهى ألا يتغافل عن مبادئ الأمور التى تخشى غوائلها مع عدم المبالغة فى إساءة الظن : ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ .

(٤) تعليم الزوجة المعارف الضرورية الدينية والدنيوية .

(٥) تأديب الأولاد وتربيتهم تربية أسرية كريمة .

(٦) إصلاح ذات البين فيما يشجر بين الزوجين من الخلاف بتحكيم الأهل في ذلك : قال تعالى : ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾ . وإصلاح ذات البين بين الناس عموما وبين الأزواج خصوصا من أعظم ماحث عليه الشارع الحكيم وندب إليه .

(٧) العدل بين الزوجات إذا كان للمرء أكثر من زوجة إلى أربع كما ورد به الجواز بشروطه — غير أن مسألة العدل بين الزوجات من أصعب الأمور. ولذلك كان الاقتصار على الزوجة الواحدة من أحكم ما يأتي امرؤ في حياته الاجتماعية إلا إذا ألجأته الضرورة الشرعية إلى التعدّد .

أما حسن معاملة الوالدين والإخوة وسائر القرابة فمما حث عليه الشارع ، وجاء به أدب الإسلام الشرعي : إذ قد جاءت الآيات القرآنية حاثة على ذلك آمرة به ، وكذا الأحاديث النبوية الكثيرة الواردة في بر الوالدين وحسن القيام بحقوقهما والأدب معهما وصلة الأرحام والتحبب إليهما تودّدا وتعطفا : قال عليه السلام في حديث فضل صلة الأرحام : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ وَيُوَسَّعَ عَلَيْهِ فِي رِزْقِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ» . أما عقوق الوالدين وجفاء ذوى القرابة فمن أمقت الخصال وشر الرذائل والسخائم التي ورد النهي الشديد عنها .

أما معاشرة الإخوان خاصة وبني الإنسان عامة فلها حقوق وآداب جمة يجدر بكل إنسان أن يتحلى بها : «فالمرء قليل بنفسه كثير بإخوانه» . وأعظم مؤثر في الألفة الاجتماعية على الإطلاق حسن الخلق . وقد حث عليه الدين كثيرا : لأنه موجب للتحاب والتآلف والتوافق . ولقد مدح الله نبيه بحسن الخلق فقال : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ ، وفي الحديث الشريف : « أَكْثَرُ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ تَقْوَى اللهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ» ، وجاء في الحديث : « أَحْسَنُ الْحُسْنِ الْخُلُقُ الْحَسَنُ » .

لحسن الخلق من التقوى النفسية الملابسة للنفس والأذواق الكريمة التى تحصل بالاتصاف بأجمل الأحوال التعاملية: إما من طريق الدين، وإما من طريق الآداب الاجتماعية : قال تعالى : ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ ، وقال عليه السلام فى مدح أصحاب الأخلاق الفاضلة : « أَقْرَبُكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا الْمُوَطَّئُونَ أَكْنَافًا الَّذِينَ يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ » ، وقال أيضا : « الْمُؤْمِنُ إِلْفٌ مَأْلُوفٌ وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَأْلَفُ وَلَا يُؤْلَفُ » .

هذا هو الشأن فى الإخاء القومى والمعاشرة الاجتماعية بالمعنى الأعم .

أما الصداقة بالمعنى الأخص فى المجتمع الإنسانى فقد تكون أدق وأمتن ما يكون فى الباب من حيث اتحاد المشارب والأذواق تبعا لتلك الخاصية أو الجاذبية فى النفوس المعبر عنها بالمناسبة والمشاكلة : لأن الناس أشكال وأمثال : "وشبه الشيء منجذب إليه" .

وللصحبة حقوق وآداب يجب الوفاء بها قياما بحق الصداقة، ويمكن حصرها فيما يلى :

(١) الحق فى المال : قال عليه السلام : « مَثَلُ الْأَخَوَيْنِ مَثَلُ الْيَدَيْنِ تَغْسِلُ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى » : يريد المعاونة فى الشئون المالية بالإقراض ومد يد المساعدة ولو وصلت الحال إلى الإيثار على النفس كما بلغت إليه حال المروءة الإسلامية فى عهد النبي عليه السلام : قال الله تعالى : ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ .

(٢) الإعانة بالنفس فى قضاء حاجات الإخوان .

(٣) السكوت باللسان عن القدح فى الأصحاب فيما يعد تنقيصا لشأنهم وحطا من كرامتهم أو اغتيابهم بما يكرهون فى نفس أو عرض أو مال : قال تعالى : ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ ، وقال عليه السلام : « وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا تَحَسَّسُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا » .

(٤) النطق بحلو الكلام، وتعوذ محاضرة الإخوان بما يذيع المحامد والمحاسن، وينشر بين الأصدقاء لطائف الحديث والسمر بأدب وحشمة مع ترك هجر القول وبذاء اللسان .

(٥) الإغضاء عن صغير الهفوات، واغتفار تافه الزلات : مما لا يخلو منه إنسان، ولا يوجب قطيعة ولا يقتضى هجرا :

ولست بمستبق أخا لا تلمه * على شعث أى الرجال المهذب

(٦) الإخلاص والوفاء : وهما من أقوى العوامل فى دوام الصحبة . ومن الإخلاص ألا يصرم حبال الصحبة وإن بعدت الشقة، ومن الوفاء الثبات على الحب حال الحياة وبعد الممات : قال عليه السلام : « قَلِيلُ الْوَفَاءِ بَعْدَ الْمَمَاتِ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرِهِ حَالَ الْحَيَاةِ » .

(٧) التخفيف وترك التكليف من أجمل الاداب وأعظم الأصول : قال بعض الحكماء : " من جعل نفسه عند الإخوان فوق قدره فقد أثم وأثموا، ومن جعل نفسه فى قدره تعب وأتعبهم، ومن جعلها دون قدره سلم وسلموا " . ولن يتم التخفيف إلا باطراح التكليف .

ومما يزيد الألفة بين الناس إفشاء السلام، ولين الكلام، وتجنب الأذى باللسان والأفعال مصداقا للحديث الشريف : « الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ »، والتجاوز عن بعض السقطات، وتوقير ذوى المقامات والأعمار، والبر، والشفقة بالضعفاء والمساكين، وإغاثة الملهوفين، وإصلاح ذات البين، وإزالة المنكر .

أما المعاملات فى مطلق الشئون التعاملية فيجب فيها الصدق، والأمانة، والعدل فى الأخذ والعطاء، والوفاء بالعهود والوعود، والإنصاف من النفس، وأن يصحب المرء الناس بما يحب أن يصحبوه به : قال عليه السلام لأبى الدرداء : « يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ أَحْسِنْ مُجَامَلَةَ مَنْ جَاوَرَكَ تَكُنْ مُوَافِقًا وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُسْلِمًا » .

أما حقوق الجوار فهى من أشرف الحقوق وأجل الآداب الإسلامية : وفى الحديث الشريف : ﴿مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ﴾، ولقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا بالجار حتى كاد يورثه : كما أوجد أصل الشفعة فى الشريعة مراعاة لراحته عند بعض الأئمة، وقال عليه السلام فى حقوق الجار : ﴿أَتَدْرُونَ مَا حَقُّ الْجَارِ؟ إِذَا اسْتَعَانَ بِكَ أَعَنْتَهُ، وَإِنِ اسْتَنْصَرَكَ نَصَرْتَهُ، وَإِنِ اسْتَقْرَضَكَ أَقْرَضْتَهُ، وَإِنْ مَرِضَ عُدْتَهُ، وَإِنْ مَاتَ شَيَّعْتَ جَنَازَتَهُ، وَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ هَنَّأْتَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ عَزَّيْتَهُ، وَلَا تَسْتَطِلْ عَلَيْهِ بِالْبِنَاءِ فَتَحْجُبَ عَنْهُ الرِّيحَ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَلَا تُؤْذِهِ، وَإِذَا اشْتَرَيْتَ فَاكِهَةً فَأَهْدِ لَهُ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَأَدْخِلْهَا سِرًّا وَلَا يَخْرُجْ بِهَا وَلَدُكَ لِيَغِيظَ بِهَا وَلَدَهُ، وَلَا تُؤْذِهِ بِقُتَارِ[1] قِدْرِكَ إِلَّا أَنْ تَغْرِفَ لَهُ مِنْهَا﴾ ثم قال : ﴿أَتَدْرُونَ مَا حَقُّ الْجَارِ؟ وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَا يَبْلُغُ حَقَّ الْجَارِ إِلَّا مَنْ رَحِمَهُ اللهُ﴾ .

المقصد السادس

إقامة العدل ومحق الظلم والحكم فى الناس بما يصون حقوقهم

كل ما فى هذا الكون المحكم بعوالمه يقوم على نظام محكم وترتيب عجيب : ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ فيجدر بالإنسان أن تكون كل أحواله وأعماله العامة جارية أيضا على نظام يدبر شئونه ويسوس أموره . ومن أجل ذلك اقتضت إرادة الله سبحانه وتعالى إيجاد السلطان الوازع والشرع النافذ فى خلقه منذ القدم وفى كل الشعوب والأمم : ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا﴾ ولهذا قيل : " السلطان ظل الله فى الأرض " .

بالعدل والنظام قامت السموات والأرض . ومبدأ القرآن فيما يتعلق بالنظام الاجتماعى دائر على محور إقامة العدل وحسن تدبير الشئون فى سياسة الخلق .

(١) رائحة الطعام .

فسياسة المصالح وتدبير الأمور على حسب المقتضيات مادة وأدبا مطلوب من الراعى لرعيته، وتقرير النظام وبسط رواق الأمن وتمهيد سبل استغلال الثروة فى المجتمع، ونصب ميزان القضاء العادل بالشرع والقانون والذود عن حياض المملكة والدفاع عنها وتشجيع العلم والعلماء وتسهيل أمر نشر المعارف والأمر بالمعروف بين الرعية — حقوق واجبة على الحكومة فى نظر الإسلام حث عليها الشارع، ونزل بها الكتاب، وجرى بها العرف الصحيح .

فتوطيد دعائم الأمن وتأسيس المنافع وتسهيل سبل المرافق من أجل ما حث عليه الشرع الإسلامى وأوجبته المبادئ الإسلامية فى آداب الحكومة .

وبالعدل تنتظم أحوال الرعية . ولقد نص الله تعالى فى غير آية من كتابه العزيز على إقامة قسطاس العدل فى الشئون المختلفة فيما يشجر بين الناس من الخصام فى الحقوق وسائر المعاملات .

ولذلك وجب فى نظام المجتمع الإسلامى وآدابه السامية اختيار القضاة والحكام وسائر العمال من أهل العلم والتقوى والنزاهة : ولقد ورد فى الحديث الشريف ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْبَصَرَ النَّاقِدَ عِنْدَ وُرُودِ الشُّبُهَاتِ وَيُحِبُّ الْعَقْلَ الْكَامِلَ عِنْدَ حُلُولِ الشَّهَوَاتِ ﴾ .

والرشوة وما فى حكمها هى السحت والربا المحرم وأكل أموال الناس بالباطل، وهى إذا أخذت لإحقاق باطل كانت من أشأم الظلم والجور الذى لا يفلت صاحبه من عقاب الله، وإذا تنوولت لتيسير مصلحة بحق كانت من أعظم أكل أموال الناس بالباطل .

ومن الكذب على الله والافتراء على الناس ما يقدمه المحكوم للحاكم باسم الهدية وهو الرشوة بعينها :

جاء فى صحيح البخارى ومسلم عن أبى حميد الساعدى قال : "استعمل النبى صلى الله عليه وسلم رجلا من الأزد اسمه ابن اللتبية على الصدقة، فلما قدم قال :

هذا لكم، وهذا أهدى إلىّ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿مَا بَالُ الرَّجُلِ نَسْتَعْمِلُهُ عَلَى عَمَلٍ مِمَّا وَلَّانَا اللهُ فَيَقُولَ : هَذَا لَكُمْ وَهَـذَا أُهْدِىَ إِلَىَّ ؟ فَهَلَّا جَلَسَ فِى بَيْتِ أَبِيـهِ أَوْ بَيْتِ أُمِّهِ فَنظَرَ أَيُهْدَى إِلَيْهِ أَمْ لَا ؟ وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَا يَأْخُذُ مِنْـهُ شَيْئًا إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى رَقَبَتِهِ : إِنْ كَانَ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ بَقَرَةً لَهَـا خُوَارٌ، أَوْ شَاةً تَيْعَرُ(١)﴾ . ثم رفع يديه حتى رأينا عفر إبطه، وقال : ﴿اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ﴾ .

فتمادى عمال السوء فى أخذ الرشوة وخيانة الدولة من أعظم ما يفسد المصالح القضائيـة والإدارية فى المملكة . فاختيار العمال واجب، وتقييدهم بالنظام لازم، وانتقاؤهم من ذوى الاستقامة المشهورين بالصدق والإخلاص والعفـة والحزم ضربة لازب .

ومن أصول دعائم قيام المملكة تنظيم الجنـد للحراسة والذود عن حياض الدولة والأمة داخلا وخارجا . وهذا أمر مطلوب ومرغوب فيـه وداخل فى حكم الآية الشريفـة : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْـلِ﴾ فيجدر بالأمم الإسلامية أخذ الحـذر والسهر والمداومة على انتقاء أحسن التدابير العسكرية الفنية والعملية مما له أصل فى الترغيب فى القرآن : ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَـانٌ مَرْصُوصٌ﴾ . وكل ذلك يقتضى إغداق الأرزاق على الجنود واختيار أجود العدد والسلاح واللباس لاستعمال الأبهة والزينة العسكرية :

قال الإمام الطرطوشى فى كتابه سراج الملوك فى فضل الجندية والحث على القيام بشأنها : الجند عدد الملك وحصونه ومعاقله وأوتاده، وهم حماة البسيطة والذابون عن الحـرمة والدافعون عن العورة، وهم جُنَن الثغور وحراس الأبواب والعـدّة للحوادث .

---

(١) تصيح .

المقصد السابع

تعميم الوحدة الأخوية بين جميع أفراد هذا الدين الحنيف

ذلك أن الله جل شأنه علم أن النفوس لا تتم ولا تعتز جامعتها إلا إذا كانت القلوب مطمئنة بعضها إلى بعض مرتبطة برابط حقيق محكم الأساس . وليس أشرف من رابطة الإسلام ووصلته : تلك هي الأخوة المقدسة . ولا يوجد أمتن من حبلها : فهي أقوى من البنوة الصلبية : لأنها لا تصل الإنسان إلا إذا كانت مشفوعة بالبنوة الشرعية . وهي تنقطع بالكفر: فإذا كفر الولد انقطع عن أبويه، وإذا كفر الوالدان انقطع عنهما الولد : فلا يرثانه ولا يرثهما — مع ثبوت البنوة الصلبية فى كلتا الحالتين .

ومن هذا وجب أن نجزم بأن مرتبة الرابطة بالحكم الإلهى دونها مراتب ذوى القربى والأخوة . ثم إن الله تعالى أوجد الأخوة الشرعية بين عموم المسلمين على اختلاف أجناسهم وتباين مواطنهم وتعدد قبائلهم : فقال : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ وقد عبر بلفظ الإخوة الذى لا يقال إلا لإخوة النسب دون (الإخوان) الذى يشمل إخوة الصحبة والصداقة .

وقد أحكم الله بين المؤمنين هذه الوصلة الأخوية بما لا مزيد عليه : فقال : ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ . فهذا نسب مشروع بحكم إلهى لا تنقطع وصلته ولا تنفصم عروته : فقد حكم ببنوة المؤمنين لأزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين . وقد كان حقا على المؤمنين أن يعتقدوا ذلك ومنكره جاحد . وقد أيد ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : «إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ بِمَنْزِلَةِ الْوَالِدِ أُعَلِّمُكُمْ» وقوله : «أَنَا جَدُّ كُلِّ تَقِيٍّ» . وقد أيد ذلك ما فعله النبى من إيجاب المؤاخاة حين الهجرة : فإنه آخى بين كل اثنين من المهاجرين: بين كل غنى وفقير منهم حتى يتعاونوا على السراء والضراء، وكذلك أمر بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار .

ولما كان التعالى والتكبر بالنسب إلى القبائل والعشائر من أكبر موانع التآخى لأن النفس مهما كان صاحبها تطمح إلى المعالى وتأنف التسفل أمر الله جل شأنه بترك المنابزة بالألقاب : فقال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ فاللام للتعليل أى جعلهم كذلك ليتعارفوا لا ليتعالى بعضهم على بعض : فإن الكل ينتهى إلى أصل واحد ، وهم أفراد أسرة واحدة نحا كل قسم منها منحى بحكم الحاجة والعمران . ثم قصر الله وجهة الفخر والكرامة : فقال : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ فلا يكرم الله إلا الأتقياء . وهذا ما يصح أن يفخر به ، وغير ذلك ممقوت مهان : ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ . وقد أيد الله ذلك فى الآخرة : فقال : ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ . وقال : ﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ .

وقد ورد فى هذا المعنى من الأحاديث النبوية كثير : فقال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا بِالْآبَاءِ . مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ » ، « لَيَدَعَنَّ رِجَالٌ فَخْرَهُمْ بِأَقْوَامٍ إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجُعْلَانِ الَّتِي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتَنَ » ، وقوله « لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَى عَصَبِيَّةٍ وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ مَاتَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ » .

ومن ذلك ما حدث به حصين بن عبد الرحمن بن عقبة عن أبيه وهو مولى فارسى حضر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حرب أُحد المشهورة وضرب رجلا من المشركين وقال : خذها وأنا الغلام الفارسى . يريد أن يعتز بقومه . فالتفت إليه النبى صلى الله عليه وسلم وقال : « فهلا قلت : خذها منى وأنا الغلام الأنصارى » . يشير بذلك إلى الوحدة الجامعة الدينية ، وينهاه عن الاعتزاز بالعصبية والجنسية . ويصدق هذه الرواية ما روى عن عائشة رضى الله عنها قالت : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خطبته المعلومة فى حجة الوداع أنه قال : ﴿وَلَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ

عَلَى عَجَمِيٍّ وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ إِلَّا بِالتَّقْوَى ﴾ . وذلك لأن جمهور السامعين كانوا من العرب فنبههم، واكتفى عن التصريح بعدم فضلهم على غيرهم إلا بالتقوى .

وحسبك أنه عليه الصلاة والسلام قد وفد عليه وفد بنى عامر، فقال أحدهم . أنت سيدنا، فقال صلى الله عليه وسلم : « السيد الله تبارك وتعالى » . فقالوا : أفضلنا وأعظمنا طولا ، فقال : «قولوا بقولكم أو بعض قولكم ولا يستجرينكم الشيطان » .

ولقد نهى حتى عن التعبير عن العبد والأمة بلفظ العبد، ونهى الموالى عن القول : بربى وربتى : فقال : ﴿ لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ عَبْدِى وَأَمَتِي وَلَا يَقُولَنَّ الْمَمْلُوكُ رَبِّى وَرَبَّتِي وَلْيَقُلِ الْمَالِكُ فَتَاىَ وَفَتَاتِى وَلْيَقُلِ الْمَمْلُوكُ سَيِّدِى وَسَيِّدَتِى فَإِنَّكُمْ الْمَمْلُوكُونَ وَالرَّبُّ اللهُ ﴾ ، وأنه عليه الصلاة والسلام شد عرا الأخوة حتى بين الموالى والعبيد : فقال : ﴿ إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ ﴾ .

وشدد كل التشديد على كل من يحاول تحقير أخيه المسلم، فقال : ﴿ كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ مَالِهِ وعِرْضِهِ وَدَمِهِ حَسْبُ آمْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ ﴾ وقال : ﴿ مَا مِنِ آمْرِئٍ يَخْذُلُ امْرَأً مُسْلِمًا فِى مَوْضِعٍ تُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ وَيُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ إِلَّا خَذَلَهُ اللهُ فِى مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ . وَمَا مِنْ مُسْلِمٍ يَنْصُرُ مُسْلِمًا فِى مَوْضِعٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ إِلَّا نَصَرَهُ اللهُ فِى مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ ﴾ . وقال : ﴿ الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ مَنْ كَانَ فِى حَاجَةِ أَخِيهِ فَإِنَّ اللهَ فِى حَاجَتِهِ وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ . قال تعالى : ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ﴾ الآية . ولقد أوضح النبي صلى الله عليه وسلم معنى الغيبة ، فقال : ﴿ ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ ﴾ . قيل : وإن كان فى أخى ما أقول . قال : ﴿ إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهَتَّهُ ﴾ . وزاد

فى التشديد والوعيد فى هذا الأمر حتى قال عليه الصلاة والسلام : « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَزْنِى فَيَتُوبُ فَيَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِ وَإِنَّ صَاحِبَ الْغِيبَةِ لَا يُغْفَرُ لَهُ حَتَّى يَغْفِرَ لَهُ صَاحِبُهُ » . وقال : « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ » . وفى حديث آخر يقول : « وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ » الخ .

فثبت بنص الكتاب العزيز والسنة الغراء أن الإخاء فى الإسلام مقصد عظيم .

المقصد الثامن

وحدة الرياسة الإسلامية

وهى الانضواء تحت لواء رئيس واحد انضواء حقيقيا قلبا ولسانا ونية بحسب الاستطاعة والاعتصام به وحبه وطاعته وخدمته بما يقوى شوكته ويوقر سلطانه لقوله تعالى : « وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا » . وقوله : « أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الْأَمْرِ مِنْكُمْ » . ومعنى هذا أن الدين الإسلامى ليس دين عبادة فحسب ، بل دين نظام دنيوى وأخروى . فكان من الواجب أن تقوم بأعبائه الكبرى الأئمة العظام . يتقلدون الوكالة العليا عن سيد الكونين وإمام الثقلين الذى أوجب على الأمة وحدة الوجهة فى كل زمان وعلى أى حال فى كثير من العبادات : كالجمعة والزكاة والحج والجهاد وأمثالها ، وفى الأمور الدنيوية مثل إعداد الجيوش ومقاتلة الأعداء والسعى فى ترقى الصولة ودوام ارتقاء عز الدولة وإعلاء كلمة الله وقطع كل خلاف يقع بين المؤمنين : لأن كل ذلك يحتاج إلى إمام قوى عزيز جليل الشأن مطاع الأمر مسموع الكلمة .

ومن يتدبر المقاصد الإسلامية الحقيقية يصل إلى إدراك أهمية الحكمة الإلهية فى توحيد الرياسة الدينية العظمى ، ويفهم ضرورة ارتباط الأمة المحمدية وبخاصة إذا كان الأعداء محدقين بها من كل جانب ، ينتظرون لها الذلة ، فلا يقيلونها من عثرة ، ولا يغفرون لها هفوة ، بل يتلمسون لها الباطل من الحق ، والضلال من الهدى .

المقصد التاسع

طلب الخير العام لكل الأنام على اختلاف المذاهب والأديان

الدين الإسلامى دين سمح سهل لا يأمر إلا بخفض الجناح ولين الجانب : فهو يحتم على المؤمنين أن يحبوا لغيرهم ما يحبون لأنفسهم، وأن يدعوا الناس إليه على شرط التزام العدالة وعدم الشطط، ويبلغوا الحق بأوضح بيان وأسهل طريق : لأن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها ولا يأمر بما لا يستطاع . ولا يستطيع الإنسان أن يعتقد أو يعمل ما جهل حتى يعلم، ولا يلزمه الجزم بمجرد الخبر حتى يطمئن إليه ويزول الشك فيه . وعليهم أن يلتزموا خطة النبي فى ذلك : فإنه كان يدعو إلى الله بالبينات والذكر الحكيم، ويلاطف ويباحث الذين يعرض عليهم الدين : فيتألفهم إذا نفروا، ويمهل عليهم إذا عجلوا، ولا تأخذه بهم حدة إذا شددوا، ولا يغضبه تهورهم قبل أن يتحققوا، ولا يرهقهم حتى تزول شكوكهم بالبراهين التى تناسب عقولهم وتقبلها أذهانهم .

هذا ما يجب على أهل الدين أن يتبعوه ولا يضمروا لأحد سوءا : فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعذر من جهل وشك وارتاب، ويزيل ريبه وشكوكه بالبيان الشافى والدليل الواضح . كذلك الشأن فينا معشر المسلمين : فلندع الناس إلى ديننا بالتى هى أحسن : فإن وجدنا منهم شكا عذرناهم ورأفنا بهم وأحسنا النصح لهم فلا نزال نوضح ما أشكل ونبين ما أبهم حتى يظهر الحق جليا : فإن رفضوه علوا واستكبارا جارينا أفكارهم وآراءهم لا ذواتهم وأشخاصهم، وثابرنا على إرجاعهم إلى طريق الصواب دون تعد وانتقام :

ألم تر أن المشركين لما استشهد سيد الشهداء حمزة رضى الله عنه فى غزوة أحد مثلوا به تمثيلا فظيعا، فلما أراد المسلمون أن يمثلوا كذلك بقتلى المشركين منعهم النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك؟ إذ ليس المقصود من الجهاد عداوة لذات الأشخاص المحاربين، وإنما كان لإزالة تلك الغشاوة التى كانت تعمى أبصارهم

عن رؤية النور الساطع والحق الأبلج والخير العميم ، ولم يقع القتل إلا لأن هؤلاء الأشخاص كانوا مظهر العداوة للحق .

وأدل من هـذا : أن وحشيا الحبشى الذى قتل حمزة رضى الله عنه لما آمن لم يؤاخذه النبى، بل صار من أصحابه الكرام رضوان الله عليهم .

وما وقع من هند التى فعلت بجسد حمزة مالا حاجة لذكره من التمثيل الفظيع حتى أخرجت كبده ولاكته تريد أكله حقدا وعداوة، فأهدر النبى دمها يوم غزوة الفتح، فلما ضاقت عليها الأرض تنكرت وأتت النبى فبايعته على الإسلام، فلما أسلمت كشفت عن وجهها فعرفها، فلم يجد عليها ولا عاتبها على ما فعلت بعمه .

كل هذا كاف للدلالة على أن الدين لا يؤاخذ أحدا إلا بعد أن يتضح له الحق بأجلى بيان .

من ذلك يتبين أن مقاصد الإسلام طلب الخير لكل الأنام ودفع الشر عنهم بكل ما تصل إليه يد الإمكان مع إطلاق حرية الضمير بشرط الإذعان إلى الحق إن ظهر وعدم التعند . ولا يصح ترك المسترشد فإنه كالمريض : دواؤه الإرشاد والبيان، و إهماله ضرر عليه . ولا يجب على العالم أن يتخلى عن تعليم الجاهل الذى يتردى بجهالته إلى حيث يضره ، ولا يصح للمدنى الحقيق أن يحرم أحدا مشاركته فى نعمة تلك المدنية، بل الواجب أن يشارك الكل بعضهم بعضا .

المقصد العاشر

التنويه بمكارم الأخلاق

لما كان من مقاصد دين الإسلام تعميم الخير ودفع الشر والهداية إلى الحق — وذلك بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر — كان حقا على من تصبو أنفسهم لهذا الأمر الشاق المحفوف بالمخاطر أن يتجافوا عن الدنايا، وينأوا عن مهاوى الشرور، ولا تدنوا إلى حضيض الفجور، وأن يتصفوا بالأخلاق الفاضلة حتى تصفو

نفوسهم بلزوم العدل المحض والاعتدال البحت . فإذا صلحت الأنفس وتعودت المبادئ الحقة القيمة وصارت لها ملكة كان أصحابها قدوة لمن يسمع قولهم ويطيع أمرهم .

وقد كان الأنبياء فى مقدمة المتصفين بها ، وقد حث القرآن على ذلك فى آيات كثيرة تتجاوز المئات ، وقد صرح النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فى قوله : « بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ» ، وقوله : ﴿ إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ﴾ ، وقوله : ﴿ إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَخْلَاقًا ﴾ ، وقوله : ﴿أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ أَخْلَاقًا ﴾ ، ﴿مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ﴾ ، وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم إذا نظر فى المرآة أن يقول : « اللهم كما حسنت خَلْقِى فحسن خُلُقِى » ، وكان يستعيذ من سوء الأخلاق : فيقول : « اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشِّقَاقِ والنِّفَاقِ وَسُوءِ الْأَخْلَاقِ » .

هذا إلى أنه إذا حسنت الأخلاق طهرت الأذواق وكانت آداب الأنس والمعاشرة ولَاقَ بالمرشد أن يوصل دعوته الدينية إلى من أراد الله به خيرا من أفراد المجتمع . فإن نأى عن هذه الفضائل نفر الناس منه ، ولا يجد إلا صدا وردا . قال الله تعالى لنبيه : ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ .

فواجب المؤمن الداعى أن يكون هينا لينا حليما كريما :

فهناك يسمع ما يقول ويشتفى * بالقول منه وينفع التعليم

المقصد الحادى عشر

إقرار أن الناس طبقات ومنازل

قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ . ولكن جعلهم مراتب ، ولكل مرتبة خاصة ومنزلة وضع فيها . وقد كان النبي — وهو الإمام الذى يقتدى بفعله — لا يخاطب أميرا أو سيدا أوْ ذا وجاهة فى قومه بما يخاطب

به من دونه ولا من فوقه : فلم يضع أحدا عما يستحقه من الكرامة، ولا رفعه عن استحقاقه ، وإن كان الجميع فى الأوامر الإلهية والنواهى والحدود سواء : مؤمنهم ، وكافرهم . ولم يكن صلى الله عليه وسلم فاحشا ولا لعانا ولا محقرا منتهكا للحرمات . فعلينا أن نحذو حذوه ونسير على سنته : فالعالم عندنا سواء فى المعاملة : لكلٍّ حق لا يحرمه، وحدّ لا يتعدّاه، وعليه واجب لا يهمله ، والفضل فيما بينهم بالتقــوى .

والله جل جلاله لم يسقط المزايا الخاصة بما أوجب الوصلة الإخائية : فقال تعالى : ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ و﴿ يَا بَنِي إِسْرَاءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾، وقال فى تفضيل الرجال على النساء ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ، وقال فى تفضيل الرسل الكرام بعضهم على بعض : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ ﴾ الآية ، وقال فى الاصطفاء : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ و ﴿ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾، وفى تفضيل نسائه صلى الله عليه وسلم : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ ﴾، وفى تفضيل الأمة المحمدية : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ الآية، وقال فى أهل الكتاب : ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ﴾ الآية، وقال: ﴿ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ ، وفى تمييز الطيب من الخبيث : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾، وقال: ﴿ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴾، وفى منع تمنى ما فضل الله بعض الأمة على بعض : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾، وقال فى تفضيل المجاهدين : ﴿ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ

دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى﴾ الآية، وقال : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِير أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾، وقال : ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ﴾ الآية ، وقال فى تفضيل المؤمنين على غيرهم : ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى﴾ الآية . والقرآن الكريم مشحون بمثل هذه الآيات .

وقال صلى الله عليه وسلم «أَنْزِلُوا النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ»، وقال : «إِذَا أَتَاكُمْ كَرِيمُ قَوْمٍ فَأَكْرِمُوهُ»، وقال : «النَّاسُ مَعَادِنُ خِيَارُهُمْ فِى الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِى الْإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا»، وقال : «ارْحَمُوا عَزِيزَ قَوْمٍ ذَلَّ وَغَنِيَّ قَوْمٍ افْتَقَرَ»، وقال فى الحض على تخير الأنساب : « تَخَيَّرُوا لِنُطَفِكُمْ فَإِنَّ الْعِرْقَ دَسَّاسٌ »، وقال فى ذلك أيضا : « إِيَّاكُمْ وَخَضْرَاءَ الدِّمَنِ »، قيل : من خضراء الدمن يارسول الله؟ قال : « الْمَرْأَةُ الْحَسْنَاءُ فِى الْمَنْبَتِ السُّوءِ»، وقال فى حفظ المقادير : «مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيَعْرِفْ حَقَّ كَبِيرِنَا فَلَيْسَ مِنَّا »، وقال فى توقير العلماء : « وَقِّرُوا عُلَمَاءَ أُمَّتِى فَإِنَّهُمْ نُجُومُ الْأَرْضِ»، وقال فى إكرام الشيوخ : «مِنْ إِجْلَالِ اللهِ إِكْرَامُ ذِى الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ»، وقال فى تفضيل الصحابة : « لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِى فَلَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ . مَنْ سَبَّ أَصْحَابِى فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ لَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا »، وقال : « إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُلْتَمَسَ الْعِلْمُ عِنْدَ الْأَصَاغِرِ» .

ومما يؤيد ذلك من أفعاله صلى الله عليه وسلم أنه بسط رداءه لوفد نجران حين زاروه وهم نصارى، وأكرم عامر بن الطفيل وهو كافر : لأن الوافدين كانوا أعزاء قومهم، وعامرا كان سيد قومه .

مما تقدم تعلم أن الناس سواء أمام القانون الإلهى، والفضل فيما بينهم بالتقوى، ولكن تختلف مراتبهم من حيث الصفات الخاصة . فهم بذلك ينقسمون قسمين عظيمين : مسلمين وغير مسلمين :

أما المسلمون فقد ربطت بينهم الأخوة المشفوعة بالأبوة العامة والبنوة الممتدة إلى ما شاء الله أن تمتد، وينقسمون أسرا خاصة . ومن أخص الأسر ذريته صلى الله عليه وسلم : وهم أولاد السبطين رضى الله عنهما فإن لهما بنوة خاصة مع تلك البنوة العامة . والمسلمون مهما اختلفوا فى المنزلة وتباينوا فى المرتبة أمام الأوامر السماوية سواء : فالتفاوت لا يحط عن أحد واجبا دينيا ولا حدا من حدود الله : فإن النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعَ مُحَمَّدٌ يَدَهَا » .

أما القسم الثانى وهو غير المسلمين فإنهم ينقسمون خمسة أقسام :

(الأول) أهل الذمة : وهم الذين يخضعون للسلطة الإسلامية ولا يدينون بدينها : فإن لهم الذمة، ولهم ما للمسلمين من العدل والحقوق، وعدم التعدّى على أموالهم وأعراضهم وأنفسهم . ومن يفعل ذلك يجازكما لو كان المتعدَّى عليه مسلما .

(الثانى) المعاهد : وهو الذى يكون بين الإمامة الكبرى وقومه عهد وميثاق مبرم، فهو عند عهده وأحكام ميثاقه : له من الحقوق والحدود والواجبات ما هو مدون فى العهد، ولا يزال كذلك حتى ينقض العهد : فإن كان النقض عمدا انسلخ عن الأحكام المذكورة، وبقى محفوظ النفس والعرض والمال حتى يتعدّى إلى مضرة غيره، وهنالك يحكم عليه كما لو كان مسلما .

(الثالث) المهادن : وهو الذى بين جماعة المسلمين وقومه هدنة، فهو عند شروطها .

(الرابع) المؤمن الذى لا عهد له ولا هدنة ولا حرب ولا ذمة بين قومه والإمامة الكبرى : فإن جاء إلى بلاد المسلمين لحاجة فله حق المؤمن على نفسه وعرضه وماله ودينه، لا يضارّ فى شىء من ذلك، ويكلف عدم التعرض لمضارة المجتمع، ويخضع لأحكام المسلمين مادام بينهم .

(الخامس) المحارب : فإن أحكامه تختلف باختلاف الحروب وأسبابها : فهو تابع بمقتضى الحال حتى تضع الحرب أوزارها . وإذ ذاك يكون من أحد

الأقسام الأربعـة المتقدمة، وإن أصبح أسـيرا فعليه حكم الأسر بشروطه المقررة فى مواضعها .

كل ذلك يرينا بأجلى بيان أن من أسمى مقاصد الدين الإسلامى تعميم الأمن والسـلم وقصد الخير لجميع الطبقات، وأنه يوجب على أهله جلب كل خير للمجتمع الإنسانى ودفع كل شر عنـه . والجهاد الذى فرض على المسلمين ورغبهم الله فيـه بقوله : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ إنما كان لأمرين :

أحدهما : الدفاع عن الجمعية المحمدية التى تحمل هـذه الدعوة المباركة : دعوة تعميم الخير والوحدة فى الأرض .

والآخر : إزالة العوائق التى تقف فى سبيل نشر هذه الدعوة .

والإسلام لم يدخل فى حرب إلا بعد ما أعيته الحيل فلم يجد مفرا منها، والمسالمة ديدن المسلمين فى كل شىء منقادين لقـوله تعالى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ . وقد روى عن عائشة رضى الله عنها : (ما خير رسول الله صـلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما فإن كان إثما كان أبعد الناس عنه) ، وقال صلى الله عليه وسـلم : « يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا » ، وقد أوضح الله سبحانه وتعالى ذلك فى قوله : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا ﴾، وقال تعالى : ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ .

ممـا تقدم يتبين أن مقاصد الدين الإسلامى اعتقاد الحق، وإقامة البرهان على المعتقد حتى لا يحوم حول الحقيقة شـك ولا ريب ، وتعميم المعاملات والإخاء، وتخويل عموم الأفراد حرية محضة محدودة بحدود الحكمة بحيث تكفل حفظ الحياة الاجتماعية ما دام فى الوجود موجود ،وهى مانعة من الإفراط والتفريط . وهـذه هى أقصى درجات المدنيـة . ثم أوجب حفظ المراتب والدرجات بين النـاس ورعايتها، ورفع بعضهم فوق بعض درجات بقدر ما يؤدونه من جليل الأعمـال،

وأباح لهم اشتراك غيرهم معهم فى هذه المدنية العظمى والمنهج القويم : فقد كان سيد الخلق يعامل يهوديا ، وتوفى ودرعه مرهونة عند يهودى ، فاستخلصها منه سيدنا أبو بكر رضى الله عنه . فهل يتخيل متخيل حسن معاملة أجل وأعظم من هذه المعاملة ؟

وما كان أغناه عن معاملة ذلك اليهودى ، وقد كان أصحابه يفدونه بالمهج بله الأموال . فما عامل اليهودى ولا خص اليهودى بذلك إلا لأن هذه المعاملة تحوطها الأمانة وتحرسها التسوية فى المعاملة التى هى من شعائر الدين الحنيف . فما أسماه ، وما أحكم مقاصده !

ولم تقتصر تعاليمه على الأمر بالعبادة بل أردف ذلك بالاهتمام بأمر الزراعة ، فقال : «اطْلُبُوا الرِّزْقَ مِنْ خَبَايَا الْأَرْضِ» وفى هذا الأمرُ ضمنا بالبحث عن المعادن فى الأرض والكنوز المطوية فى باطنها ، وكذلك الصناعة فإنه أمر بتعلمها ، وبتعلم العلوم أين وجدت . وقد رأى نفع بعض أعمال كفار الفرس فعمل مثلها : كعمل الخندق بإشارة سلمان الفارسى رضى الله عنه ، و إنارة المسجد الشريف من قبل تميم الدارى حين أوقد قنديلا وأحضره معه . وقد كان يضاء قبلا بحرق الخشب . وقد أمر أيضا بنشر العلوم والمعارف والإخاء وتقدير الرجال وترتيب الجنود وتنظيم القوى الدفاعية ، وقرر وجوب حفظ الأبدان وأنواع الحكمة الطبعية وتميم مكارم الأخلاق ، وأوجب علم التاريخ و (الجغرافيا) والسباحة ، ولم يدع شيئا حتى علم النجم والحساب والقصص وآداب المحاضرات والمسامرات و وظائف الأعمال الإدارية والاقتصاد الإدارى والمالى وكل ما يمكن أن يكون فى الأمم المتمدينة .

أما التجارة فقد استعملها هو بذاته الشريفة . هذا فى الأمور الداخلية . أما الأمور الخارجية فقد دعا بالبلاغ المبين ، وقرر أصول الحقوق الدولية والحقوق الملية ، وفرق بين طبقات العالم ، وأوجب أصول الحروب والهدنة والمسالمة والمعاهدة والمراسلة والمكاتبة ورعاية الموازنة السياسية والحقوق المتبادلة وحقوق الجوار

والمعاهدات على اختلاف ضروبها ومعاملات رعايا الأجانب وأهل الذمة وتخويل كل فرقة حقا محدودا بالحكمة محوطا بالصواب ، ولم يفرط فى شىء ، ولم يغفل أمرا من الأمور، بل رغب فيه إذا كان نافعا ، ونهى عنه إن كان ضارا .

لاجرم أن الدين الإسلامى دين برهانى كفيل بإصلاح المعاش والمعاد . ولذلك أوجب الله فيه لزوم الحكمة والحرية المشروعة ، ولم يجعل القهر والغلبة والاستعباد منه فى شىء، ومنع سلطة الحكام واستعبادهم لعباده، و ربط معاملات الجميع بأحكامه الإلهية : فبين الحدود والحقوق والواجبات، وقرر أصول الحرية والمساواة والأخوة المشروعة بين المسلمين ، وقام فيهم النبى صلى الله عليه وسلم بالرسالة العامة والأبوة الشاملة ولما كان لا بد لتنفيذ الأحكام الربانية من قوة قاهرة مقتدرة على إجراء العدل الإلهى أوجب الدين نصب إمام عام يقوم بتنفيذ الأحكام وينوب عنه عليه السلام فى الأبوة العامة .

وعلى هذا الأساس قام الخلفاء العظام فى المسلمين : فكل واحد منهم ولىّ من لاولى له ، وقيم من لا قيم عليه ، ووارث من لا وارث له . وألقيت إليهم مقاليد الأحكام طبق الأوامر الإلهية .

لهذا وجبت معرفتهم، وطاعتهم طاعة قلبية وعملية بحيث تطيعهم القلوب قبل الأبدان، والإخلاص لهم فى النصح لمعاونتهم على المصالح : لأنهم أكثر الناس شغلا، وأثقلهم أعباء .

وحبذا لو تمسك المسلمون بأهداب شريعتهم، وعملوا بما أمرتهم به، وانتهوا عما عنه نهتهم ، وتوادوا وتحابوا ، وطرحوا من قلوبهم الحقد والبغضاء والحسد ، وطهروا سرائرهم، وأخذ كل منهم بيد أخيه، ونبذوا التواكل والتدابر، وأحلوا محله الحب الخالص من قلب مملوء بالإيمان : لو فعلوا ذلك لعزوا بعد الذل، واجتمع شملهم بعد أن تفرق، وهابهم الغير، ودانت لهم الرقاب .

المقصد الثانى عشر

إصلاح المجتمع إصلاحا شاملا

قرر الإسلام أن المجتمع الإنسانى لا يصلح إلا إذا اجتمعت فيه أمور ستة :

الأول : دين متبع

لأن الدين هو الذى يصون النفوس عن ميولها ، ويصرفها عن إرادتها السيئة ، ويقهر السرائر ، ويزجر الضمائر ، وهو الرقيب على النفوس فى خلواتها ، والناصح لها فى ملماتها : قال بعض الحكماء : الأدب أدبان : أدب شريعة ، وأدب سياسة : فأدب الشريعة ما أدّى الفرض ، وأدب السياسة ما عمر الأرض ، وكلاهما يرجع إلى العدل الذى به سلامة السلطان وعمارة البلدان : لأن من ترك الفرض فقد ظلم نفسه ، ومن خرب الأرض فقد ظلم نفسه وغيره .

قال سعيد بن حميد : ما صحة أبداننا بنافعة حتى يصح الدين والخلق .

الثانى : حكومة رشيدة

ذلك بأن الحكومة تتألف برهبتها الأهواء المختلفة ، وتجتمع بهيبتها القلوب المتفرقة ، وتنقمع من خوفها النفوس المتعادية : لأن فى طباع الناس من حب المغالبة على ما آثروه والقهر لمن عاندوه ما لا ينكفون عنه إلا بمانع قوىّ ورادع تنفيذى : وأنواع الرادع أربعة :

العقل الزاجر ، والدين الحاجز ، والحاكم الرادع ، والعجز الصاد :

ورهبة الحاكم أبلغها وأشدها زجرا وأقواها ردعا : فقد جاء فى الحديث الشريف : « إِنَّ اللهَ لَيَزَعُ بِالسُّلْطَانِ أَكْثَرَ مِمَّا يَزَعُ بِالْقُرْآنِ » . وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ لِلّهِ حُرَّاسًا فِى السَّمَاءِ وَحُرَّاسًا فِى الْأَرْضِ فَحُرَّاسُهُ فِى السَّمَاءِ الْمَلَائِكَةُ وَحُرَّاسُهُ فِى الْأَرْضِ الَّذِينَ يَقْبِضُونَ أَرْزَاقَهُمْ وَيَذُبُّونَ عَنِ النَّاسِ » . وقال صلى الله عليه وسلم : « الْإِمَامُ الْجَائِرُ خَيْرٌ مِنَ الْفِتْنَةِ وَكُلٌّ لَا خَيْرَ فِيهِ وَفِى بَعْضِ الشَّرِّ خِيَارٌ » .

وقال بعض البلغاء : الحاكم فى نفسه إمام متبوع ، وفى سيرته دين مشروع : فإن ظلم لم يعدل أحد فى حكم ، وإن عدل لم يجسر أحد على ظلم .

الحاكم : هو الذى يحرس الدين ، ويحث على العمل به من غير إهمال له . ويدفع الأهواء منه ، ويحفظه من التبديل فيه ، ويزجر من شذ عنه بارتداد ، أو بغى فيه بعناد ، أو سعى فيه بفساد .

وهو الذى يذب عن الأمة عدوا فى دينها أو معتديا على أموالها وأرضها وأنفسها ، وهو الذى يعمر البلدان باعتماد مصالحها وتهذيب سبلها ومسالكها ، وهو الذى يجرى فى أموالها جباية وإنفاقا على سنن الشريعة العادلة ، وهو الذى ينظر فى مظالم أهلها ، ويسوى فى الحكومة بينهم ، ويعتمد النصفة فى فصل أحكامهم .

وهو الذى يقيم الحدود على مستحقيها من غير تجاوز فيها ولا تقصير عنها ، وهو الذى يختار أعوانه ورجاله من أهل الكفاية فيها والأمانة عليها .

من استقل بهذه الشئون حقا من الحكام فهو مستوجب لطاعة رعيته ومناصحتهم ، مستحق لصدق ميلهم ومحبتهم . ومن قصر عنها ولم يقم بحقها وواجبها كان بها مؤاخذا وعليها معاقبا ، ثم هو من الرعية على استبطان معصية ومقت ، يتربصون الفرص لإظهارها ، ويتوقعون الدوائر لإعلانها :

روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : (خَيْرُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ وَشَرُّ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ) : وهذا صحيح : لأن الإمام أو الحاكم إذا كان ذا خير أحب رعيته وأحبوه ، وإذا كان ذا شر أبغض رعيته وأبغضوه .

وقد كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه : (إن الله تعالى إذا أحب عبدا حببه إلى خلقه : فاعرف منزلتك من الله تعالى بمنزلتك من الناس) .

وسبب هذا أن خشية الله تبعث على طاعته فى خالقه، وطاعته فى خلقه تبعث على محبته ، فلذلك كانت محبتهم دليلا على خيره وخشيته ، و بغضهم دليلا على شره وقلة مراقبته .

و روى أن عمر بن الخطاب قال لأبى مريم السلولى — وكان هو الذى قتل أخاه زيد بن الخطاب — : والله إنى لا أحبك حتى تحب الأرضُ الدمَ . قال : أفيمنعنى ذلك حقًّا ؟ قال : لا . قال : فلا ضير : إنما يأسى على الحب النساء .

الثالث : عدل شامل

عنى الإسلام بإقامة العدل عناية عظيمة : فقال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾، وقال تعالى : ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا﴾، ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾، ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ :

وسر ذلك أن العدل الشامل يدعو إلى الألفة ، و يبعث على الطاعة، وتعمر به البلاد، وتنمو به الأموال . وليس شيء أسرع فى خراب الأرض، ولا أفسد لضمائر الخلق من الجور : لأنه لا يقف عند حد، ولا ينتهى إلى غاية ، ولكل جزء منه قسط من الفساد حتى يستكمل : تأمل قوله صلى الله عليه وسلم : «ثَلَاثٌ مُنْجِيَاتٌ وَثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ : فَأَمَّا الْمُنْجِيَاتُ فَالْعَدْلُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا، وَخَشْيَةُ اللهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، وَالْقَصْدُ فِي الْغِنَى وَالْفَقْرِ . وَأَمَّا الْمُهْلِكَاتُ فَشُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ» .

وانظر قول الإسكندر لحكماء الهند وقد رأى قلة الشرائع بها : لمَ صارت سنن بلادكم قليلة؟ قالوا : لإعطائنا الحق من أنفسنا ولعدل ملوكنا فينا، فقال لهم : أيما أفضل : العدل أم الشجاعة؟ قالوا : إذا استعمل العدل أغنى عن الشجاعة .

وتدبر قول بعض البلغاء : إن العدل ميزان الله الذى وضعه للخلق ، ونصبه للحق : فلا تخالفه فى ميزانه ، ولا تعارضه فى سلطانه ، واستعن على العدل بخلتين : قلة الطمع ، وكثرة الورع .

ضروب العـــدل

للعدل ضروب شتى :

منها عدل الإنسان فى نفسه : وذلك بحملها على المصالح ، وكفها عن الفضائح ، ثم بالوقوف فى أحوالها على أعدل الأمرين من تجاوز أو تقصير : فإن التجاوز فيها جور ، والتقصير فيها ظلم . ومن ظلم نفسه فهو لغيره أظلم ، ومن جار عليها فهو على غيره أجور .

انظر إلى قول بعض الحكماء : من توانى فى نفسه ضاع .

ومنها عدل الإنسان فيمن دونه : كالحاكم فى رعيته : والرئيس مع مرءوسيه . وعدله فيهم يتحقق بأمور أربعة : اتبـاع الميسور ، وحذف المعسور ، وترك التسلط بالقوة ، وابتغاء الحق فى السيرة : لأن اتباع الميسور أدوم ، وحذف المعسور أسلم ، وترك التسـلط أوجب للمحبـة ، وابتغاء الحق أبعث على النصرة . ومن لم تجتمع له هذه الأمور من الحكام أو الرؤساء كان الفساد بنظره أكثر ، والاختلاف بتـدبيره أظهـــر :

تأمل قوله صلى الله عليه وسلم : « أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ أَشْرَكَهُ اللهُ فِى سُلْطَانِهِ فَجَارَ فِى حُكْمِهِ » ، وتأمل قول بعض الحكماء : أقرب الأشياء صرعة الظلوم ، وأنفذ السهام دعوة المظلوم . وقول أزدشير بن بابك : إذا رغب الملك عن العدل رغبت الرعية عن طاعته ، وقول أنو شروان لمـا عوتب على ترك عقاب المذنبين : هم المرضى ونحن الأطباء : فإذا لم نداوهم بالعفو عنهم فمن لهم ؟

ومنها عدل الإنسان مع من فوقه : كعدل المحكومين مع الحكام ، والمرءوسين مع الرؤساء : وقوام ذلك إخلاص الطاعة ، وبذل النصرة ، وصـدق الولاء : فإن

إخلاص الطاعة أجمع للشمل، وبذل النصرة أدفع للوهن، وصدق الولاء أنفى لسوء الظن. ومن لم تتم له هذه الأمور من المرءوسين تسلط عليه من كان يدافع عنه، واضطر إلى اتقاء من كان يقيه. وفى هذا يقول البحترى :

متى أحرجت ذا كرم تخطى * إليك ببعض أخلاق اللئام

وما أبدع قول بعض الحكماء : إن الله لا يرضى عن خلقه إلا بتأدية حقه. وحقه شكر النعمة، ونصح الأمة، وحسن الصنيعة، ولزوم الشريعة.

ومنها عدل الإنسان مع إخوانه ونظرائه : وآية ذلك : ترك الاستطالة، واجتناب الإدلال وكف الأذى : فترك الاستطالة أدعى إلى الألفة، ومجانبة الإدلال أبقى للعطف والرحمة، وكف الأذى مروءة ونصفة :

تأمل بديع قوله صلى الله عليه وسلم : «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِشِرَارِ النَّاسِ؟» قالوا : بلى . يا رسول الله . قال : «مَنْ نَزَلَ وَحْدَهُ، وَمَنَعَ رِفْدَهُ، وَجَلَدَ عَبْدَهُ» . ثم قال : «أَفَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ» ؟ قالوا : بلى . يارسول الله . قال : «مَنْ لَا يُرْجَى خَيْرُهُ، وَلَا يُؤْمَنُ شَرُّهُ» . ثم قال : «أَفَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ؟» قالوا : بلى . يارسول الله . قال «مَنْ يُبْغِضُ النَّاسَ وَيُبْغِضُونَهُ» .

وانظر إلى قول بعض الحكماء فى بيان قبح الظلم فى صوره المختلفة : الحاكم السوء يخيف البرىء ويصطنع الدنىء، والبلد السوء يجمع السفل ويورث العلل، والولد السوء يشين السلف ويهدم الشرف، والجار السوء يفشى السر ويهتك الستر. فما أنفع العدل، وما أضر الجور !

الرابع : الأمن العام

فى ظل الأمن العام تطمئن النفوس، وتتيسر الهمم، ويسكن البرىء ويأنس الضعيف : فلا راحة لخائف، ولا طمأنينة لحاذر : لأن الخوف يقبض الناس عن مصالحهم، ويحجزهم عن تصرفهم، ويحول بينهم وبين المواد التى بها قوام أودهم وانتظام حالهم.

والخوف ضروب : فمنه الخوف على النفس ، ومنه الخوف على الأهل، ومنه الخوف على المال . وقد يستوعب جميع الأحوال . ولكل واحد من ضرو به حظ من الوهن، ونصيب من الحزن .

الخامس : توفير أسباب اليسر

فبه تتسع النفوس فى مختلف أحوالها، ويشترك فيه ذو الإكثار والإقلال، فيقل فى الناس الحسد، وينتفى عنهم تباغض الفقر، وتجنح النفوس إلى التوسع، وتكثر المواساة والتواصل، فتفشو الأمانة، ويكثر السخاء :

تأمل ما كتبه عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى : إذ يقول : لا تستقضين إلا ذا حسب أو مال : فإن ذا الحسب يخاف العواقب، وذا المال لا يرغب فى مال غيره .

من أجل ذلك لا يتسنى لمصلح أن يتم إصلاحه فى أمة إلا إذا وفر لها أسباب الثراء، ودرأ عنها دواعى الضيق والفقر : لأن ثراء الأمة من قواعد صلاحها، ودواعى استقامتها .

السادس : غرس الآمال فى نفوس الناس

لأن الأمل الفسيح يبعث على اقتناء ما يقصر العمر عن استيعابه، ويدعو إلى اقتناء ما ليس يؤمل فى دركه بحياة أربابه . ولولا أن الخلف ينتفع بما أنشأ السلف حتى يصير به مستغنيا لافتقر أهل كل عصر إلى إنشاء ما يحتاجون إليه من منازل السكنى وأراضى الحرث . وفى ذلك من الإعواز وتعذر الإمكان ما لا خفاء فيه .

الأمل الفسيح هو الذى حدا بالخلق إلى عمار الدنيا و إتمام صلاحها، فأصبحت تنتقل بعمرانها إلى قرن بعد قرن، فيتم الثانى ما أبقاه الأول من عمارتها، و يرم الثالث ما أحدثه الثانى من شعثها : لتكون أحوالها على الأعصار ملتئمة ، وأمورها على ممر الدهور منتظمة . ولو قصرت الآمال ما تجاوز الواحد حاجة يومه، ولا تعدى

ضرورة وقته، ولكانت تنتقل إلى من بعده خرابا لا يدرك منها حاجة، ثم تنتقل إلى من بعدُ بأسوأ من ذلك حالا حتى لا يُنَمَّى بها نبت ولا يمكن فيها لبث : تأمل قوله صلى الله عليه وسلم : « الْأَمَلُ رَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ لِأُمَّتِي » ، وتأمل قول الشاعر :

للنفوس و إن كانت على وجل * من المنية آمال تقويها

فالصبر يبسطها والدهر يقبضها * والنفس تنشرها والموت يطويها

هذه هي الأمور الستة التي تصلح بها أحوال الأمم ، وتنتظم أمور جملتها . و بحسب ما اختل من قواعدها يكون اختلالها وفسادها .

ولا غرو : فقد جاء محمد صلى الله عليه وسلم بشريعة أحاطت بجميع ما يكفل خير البشر : فما كان منه أمس حاجة وأشد لزوما فصلته وشرحته على أكمل بيان، وما كان أقل في الاحتياج إليه وليس من الضروريات المعيشية أو التهذيبية رمزت إليه، وأشارت إلى طرق تعلمه من أهله ، وسهلت السبيل إليه . ولهذا ظلت شريعته وستظل محفوظة الموارد، مطردة القواعد : لم تختل منها قاعدة، ولم يبطل منها حكم . ولو كانت من وضع البشر لاختلت وفسد نظامها كما تختل نظم البشر على اختلاف الأحقاب والدهور .

دين ظهر للنصفين من المؤرخين والباحثين أنه لم ينتشر بالسيف كما يرجف المرجفون: لأن محمدا عليه الصلاة والسلام لما قام بدعوى الرسالة كان وحيدا فريدا : ليس صاحب سلطان، ولا متمكنا بعصبية عشيرة قادرة، بل إنه عند قيامه بتلك الدعوى بين جماهير الأمم كان من عشيرته أول من كذبه في دعواه وعاداه أشد المعاداة ، وسلط عليه أشرارها بالأذى وتسفيه الرأى . ومع ذلك ظل عليه الصلاة والسلام صابرا على أذى من آذاه : يدعو الخلق إلى الحق ، ويقيم لهم الأدلة ، ويظهر لهم محاسن دينه، ويوضح لهم معايب ماهم عليه حتى وضح الحق لمن أراد الله تعالى هدايته ، فأخذت العقول السليمة تقبل دينه وتستحسن شريعته، وهو حينئذ لم يُرق ولم يأمر بإراقة قطرة من دم أحد، بل كان يقول بلسان القرآن : ﴿لَا إِكْرَاهَ

فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ . ﴿ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ .

أنبأنا التاريخ على لسان المنصفين أن دين محمد عليه السلام شاع قبل هجرته من مكة إلى المدينة وقبل مشروعية الجهاد فيها، وقبلته العقول السليمة، واستحسنته الطبائع الكريمة بلا خوف ولا رهبة .

وكذلك أنبأنا أن الناس دخلوا فى دينه أفواجا بعد مشروعية الجهاد وهم على خوف من أذى أعداء الدين .

وأنبأنا كذلك أنه لما لم تفلح الموعظة والبراهين فى المخالفين المعاندين الذين أرادوا صدّ الدعوة واستئصالها وزادتهم معاملة الرفق واللين طغيانا واجتراء على الدعوة وصاحبها شرع الله الجهاد، وحاطه بقيود تدرأ القسوة والتنكيل .

دين أحاط بكل حكمة باهرة، واحتوى كل خصلة حميدة فاخرة، وكفل انتظام حال البشر وصلاح أحوالهم وطهارة نفوسهم وعمار ديارهم وكف أشرارهم، وجاءهم بعقائد سليمة من كل خرافة ودنية .

دين يأمر باتقاء كل مضر للإنسان فى دينه ودنياه، وبالإخلاص فى العمل لله تعالى، وبالبر والإحسان فى العمل، والنصيحة لخلق الله تعالى، والصبر ومقاومة الأهوال والآلام، والرضا بما يرضى الله تعالى، وبكظم الغيظ عند الغضب، وترك المجازاة للمذنب مع القدرة عليها ما لم تكن حدّا من حدود الله تعالى، وبالاغتباط بعمل الخير، وبالسخاء والكرم والشجاعة والمحافظة على الحرم والدين، وبالثبات عند المخاوف، وبالرغبة الصادقة فى الأناة بقدر ما يمكن، وبالتؤدة فى التوجه نحو المطالب، وبالتأنى فى الخصومات والحروب، وبحسن الانقياد بما يؤدّى إلى الجميل، وبمحبة ما يكمل النفس، وبالحكمة والشكر والخوف من الله تعالى والرجاء فيه، وباتفاق الآراء فى المعاونة على تدبير المعاش، وبالوفاء والرحمة بخلق الله تعالى، وبالإصلاح بين عباده، وبالأمانة وإنجاز الوعد والوفاء بالعهد والحب فى الله والبغض فى الله،

وبحسن الظن، وبالمبادرة إلى عمل الخير، وبالصلابة فى أمر الدين، وبالأنس فى الله والشوق إليه، وبملازمة الأعمال الجميلة والحرص على ما يوجب الذكر الجميل، وبالتحرج عن أى أذى يلحق الغير مطلقا، وباكتساب المال من غير مهانة ولا ظلم وإنفاقه فى المصارف الحميدة، وتحرير النفس من ربقة الشهوات، ومحاسبتها ومعاتبتها.

دين ينهى عن الشرك بالله والفسق وعصيانه تعالى فى أوامره ونواهيه، وعن اتباع الهوى والرياء، وعن الكبر والحقد والعجب والحسد والشماتة والتهور، وعن الطيرة والتشاؤم الذى لا سند له من الشرع، وعن البخل والشح والإسراف، وعن الكسل والبطالة والعجلة فى الأمور، وعن الفظاظة وغلظة القلب والوقاحة وقلة الحياء، وعن الجزع وكفران النعم، وعن السخط والغضب، وعن الضعف فى أمور الدين، وعن الطيش والخفة، وعن العناد ومكابرة الحق، وعن الشره والطمع، وعن الحمية لغير دين الله تعالى، وعن القنوط من رحمة الله، وعن محبة الظلمة والفسقة، وعن النميمة وإفشاء السر والسخرية والاستهزاء بالناس واستصغارهم، وعن اللعن والسب والتنابز واللمز والتعيير والمراء، وعن الخوض فى الباطل والشحاذة لغير مضطر، وعن الشفاعة السيئة والأمر بالمنكر والنهى عن المعروف، وعن البحث فى عيوب الناس والدعاء للظالم بالبقاء، وعن كتمان الشهادة وشهادة الزور وقذف المحصنات الغافلات وتعمد الكذب على الله تعالى وعلى رسوله، وعن المنّ بالصدقة وكفران نعمة الخلق المؤدى إلى كفران نعمة الخالق والاستطالة فى الأعراض وذكر الناس بما يكرهون فى أنفسهم أو فيمن ينتسب إليهم، وعن نقض العهد وخلف الوعد والخيانة والمكر والخديعة والفتنة، وعن شرب المسكرات التى تذهب بالعقل، وعن إنفاق السلعة بالحلف الكاذب وبخس الكيل أو الوزن أو الذرع، وعن النجش وإنفاق المال فى المحرمات وإيذاء الجار ولو كان مخالفا فى الدين، وعن السرقة والغصب والربا، وعن التدابر والتشاحن، وعن أخذ الرشوة من محق أو مبطل، وعن خذلان المظلوم مع القدرة على نصرته، إلى غير ذلك مما يضر بالمجتمع، أو النفس، أو المال، أو العقل، أو الشرع .

دين سنّ أحكام الزوجية على أكمل نظام : فبين حقوق كل من الزوجين عند الاجتماع وعند إرادة الافتراق، وأباح لهما الافتراق لدفع ما عساه أن يحصل لواحد منهما أو لهما إن منعا منه، وجعل سلطة الفراق بيد الرجل : لأنه هو المكلف الإنفاق عليها . فلا يرضى بفرقتها وضياع ما أنفق إلا إذا اضطر غاية الاضطرار . وفرض على الرجل النفقة : لأنه أقدر بطبيعته على الكسب من المرأة وعلى احتمال المشاق وركوب متن الأهوال . واستحسن للمرأة القيام بمصالح البيت الداخلية وتربية الأولاد، ولذلك أمرها بالحجاب : صونا لها، ومحافظة عليها : كما يحافظ على الشيء النفيس الذى يضن به على الأنظار . ومتى ألفت المرأة الحجاب وجدته محبوبا لا حبس فيه ولا تضييق ولا يمنعها من زيارة أرحامها وحضور أماكن العلم : لتعلم ما تحتاجه من أمور دينها ودنياها .

دين جاء والرق منتشر بين الأمم والرقيق يعانى أنواع الظلم والقسوة، فنهى أشد النهى عن إيذائه، وتوعد من يؤذيه بالعقاب الأخروى، ورغب فى تحريره بحصول الثواب الجزيل، وشرع وسائل كثيرة تكفل تحريره وتقصير مدّة الاسترقاق، وكفل مساواة معيشته بمعيشة سيده .

وقصارى القول : أن الباحثين مهما طال استقصاؤهم محاسن هذا الدين وفضله على بنى الإنسان فى معاشهم لايجدون إلى ذلك سبيلا ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا : ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ .

*

الباب الثامن

محمد صلى الله عليه وسلم أشرف الخلق

خص الله سبحانه وتعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بخصائص وفيرة ومحامد كثيرة جعلته أفضل الخلق على الإطلاق، وأرفع الناس درجة، وأقربهم زلفى، وأكرمهم منزلة عند من يعلم السر وأخفى. وفضله على خاصته وأحبابه، وأعلى فى الدارين مقاله ومقامه.

وحسبك شاهدا على ذلك ما يلى :

(١) آتاه الكمال فى الخَلق والخُلُق والأقوال والأعمال : بجمله بالسكينة الباعثة على الهيبة والتعظيم، وكساه حسن القبول، فاستمال القلوب، وانقادت النفوس لموافقته، وثبتت على شدائده ومصابرته. وأمده برجاحة العقل وصدق الفراسة، ومنحه زهدا فى الدنيا وإعراضا عنها واكتفاء بالبلاغ منها وتواضعا للناس وهم له أتباع وخفض جناح لهم وهو عندهم مطاع، وكساه الحلم والوقار، فما هزه طيش، ولا استفزه خُرق. وأفاض عليه العلوم الجمة الباهرة والحكم البالغة، وجعله أفصح الناس لسانا، وأوضحهم بيانا، وأوجزهم كلاما، وأجزلهم ألفاظا.

(٢) أن الله جل شأنه خصه بخمس لم يعطهن أحدا من خلقه : تأمل ما رواه جابر عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال :

(أُعطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي : كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَجُعِلَتْ

لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا : فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ حَيْثُ كَانَ . وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ) رواه البخارى .

وفى رواية الإمام أحمد : (وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَة ، فَاخْتَرْتُهَا لِأُمَّتِي : فَهِيَ لِمَنْ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا) .

وفى حديث مسلم : « أُعْطِيتُ سِتًّا » بزيادة : « أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ » .

(٣) أن معجزة كل نبى تصرمت وانقضت ، ومعجزة سيد الأولين والآخرين — وهى القرآن الكريم — باقية إلى يوم الدين .

(٤) أن الله تعالى أخذ الميثاق على النبيين آدم فمن بعده أن يؤمنوا به وينصروه: قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ : ففى هذه الآية من التنويه بمحمد صلى الله عليه وسلم وتعظيم قدره ما ليس وراءه زيادة لمستزيد .

وإلى شىء من ذلك يشير الشيخ الأكبر محيي الدين : إذ يقول : إن محمدا صلى الله عليه وسلم هو الذى أعطى جميع الأنبياء والرسل مقاماتهم فى عالم الأرواح حتى ظهر بجسمه صلى الله عليه وسلم .

(٥) أن الله تعالى أثنى على خُلُقِهِ صلى الله عليه وسلم ، فقال : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ وهذا غاية الثناء .

(٦) أن الله جل شأنه أخبر أنه وملائكته يصلون على النبى ، وأمر المؤمنين بالصلاة والتسليم عليه . وليس هناك شرف ورفعة فوق هذا : العناية الأزلية القديمة أفاضت عليه الرحمة ، والملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم يلهجون بالاستغفار له ، والمؤمنون يضرعون به إلى العلى الكبير .

(٧) أن الكتب القديمة السالفة حوت من البشائر بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ما لا سبيل إلى إنكاره .

(٨) أن الكهنة انقطعوا عند مبعثه كما انقطع استراق السمع . وفى هذا قضاء على الدجل والشعوذة وإماتة الشرك الخفى .

(٩) أنه أوتى الكتاب العزيز وهو أمى لا يقرأ ولا يكتب ولا اشتغل بمدارسة ، وأن الله حفظ كتابه المنزل عليه من التبديل والتحريف : فقال جل شأنه : ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ فلم يستطع أحد تغيير حرف منه مع تضافر طوائف الملحدة ومن نحا نحوهم على إبطاله أو إفساده فلم يجدوا إلى ذلك سبيلا .

أضف إلى ذلك أن الله تعالى يسر حفظه لمتعلميه : قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ وما عرف ذلك لكتاب غيره ، وأنه مشتمل على جميع ما اشتملت عليه التوراة والإنجيل والزبور وفضل بالمفصل والمثانى والسبع الطوال : أما المفصل فآخره : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ وأوله — على ما رجح النواوى — سورة الحجرات ، والمثانى هى سورة الفاتحة كما جاء فى البخارى من حديث أبى هريرة ، وأما السبع الطوال فأولها البقرة وآخرها الأنفال .

(١٠) أن الله أقسم بحياته صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ ، والإقسام بحياته يدل على شرف حياته وعزته عند الله العزيز الحكيم .

(١١) أن شريعته أكمل من جميع شرائع الأمم المتقدمة :

فقد كانت شريعة موسى عليه السلام شريعة جلال وقهر : أمروا بقتل نفوسهم ، وحرمت عليهم الشحوم وذوات الظفر وغيرها من الطيبات ، وحرمت عليهم

الغنائم ، وعجل لهم من العقوبات ما عجل ، وحملوا من الآصار والأغلال مالم يحمله غيرهم ، وكان موسى عليه السلام من أعظم خلق الله تعالى هيبة ووقارا وأشدهم بأسا وغضبا لله تعالى وبطشا بأعداء الله ، وكان لا يستطاع النظر إليه .

أما عيسى عليه السلام فكان فى مظهر الجمال ، وكانت شريعته شريعة فضل وإحسان لا يقاتل ولا يحارب : تأمل قول الإنجيل : (من لطمك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر ومن نازعك ثوبك فأعطه رداءك) .

وأما محمد صلى الله عليه وسلم فكان مظهر الكمال الجامع للقوة والعدل والشدة فى الله واللين والرأفة والرحمة . فشريعته أكمل الشرائع ، وأمته أكمل الأمم ، وأحوالهم ومقاماتهم أكمل الأحوال والمقامات . ولذلك أتت شريعته بالعدل فرضا وبالفضل ندبا ، وبالشدة فى موضع الشدة ، وباللين فى موضع اللين : فتذكر الظلم وتحرمه ، والعدل وتأمر به ، والفضل وتندب إليه : تأمل قوله تعالى : ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ فهذا عدل ، وقوله تعالى : ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ فهذا فضل ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ وهذا تقبيح للظلم وأهله ، وقوله تعالى : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ وفى هذا إيجاب للعدل وتحريم للظلم ، وقوله تعالى : ﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ وهذا ندب إلى الفضل .

حرمت الشريعة السمحة كل خبيث وضار ، وأحلت كل طيب ونافع : فالتحريم على أمة محمد رحمة وعلى من كان قبلهم لم يخل من عقوبة : تمشيا مع كل حال بما يناسبها : سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا .

هذه أمة محمد جعلها الله خير أمة أخرجت للناس : فكمل لهم من المحاسن ما فرقه فى الأمم : كما كمل لنبيهم الكريم من المحاسن ما فرقه فى الأنبياء قبله ، وكما كمل فى كتابهم من المحاسن ما فرقه فى الكتب قبله . فأتباع محمد هم المجتبون : قال تعالى : ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ .

*

الباب التاسع

محمد صلى الله عليه وسلم أجدر النـاس بالإيمان به ومحبته واتبـاعه وطاعته

أبنا فى القول السابق أن محمدا صلى الله عليـه وسلم ترد إليه الفضائل جميعها، وأن الله جمع له المعارف الوافرة والعلوم التى لم تزل عن وجوه الهداية سافرة، وخصه بورود عين اليقين، وأطلعه على جميـع مصالح الدنيا والدين، ولقنه محاجة كل أمة من الكفرة ومعارضة أهل الكتاب بما فى كتبهم المسطرة، فأعلمهم بمخبآتها وأسرارها والمكتوم والمغير من أسفارها .

وجوب الإيمـان به

من أجل ذلك كان الإيمان به واجبا . والإيمان به : هو الشهادة له بالرسالة، وتصديقه فى جميع ما جاء به إيمانا يجمـع بين التصديق بالقلب والشهادة باللسان : لأن الإيمان محتاج إلى العقد بالجنان كما أن الإسلام يقتضى النطق باللسان .

وجوب طاعتـه

وكذلك تجب طاعته : لأنها لطاعة الله مصاحبة . فمن أطاعه هُدِى إلى سواء السبيل ، ومن امتثل أمره أوتى جزيل الثـواب ، ومن خالفه اسـتوجب شديد العقاب .

وطاعته التزام دينـه، والتسليم بما جاء به، ورفع كلمته، واتباع سنته السنية، واقتفاء سيرته الزكية، ومحاكاته فى الأخلاق والأفعال، والانقياد لأوامره فى جميـع

الأحوال، والتأسى به فى حربه وسلمه، والأخذ بقوله، والرضا بحكمه، والسعى فى نشر شريعته وبث روحها فى نفوس الخلق حتى يفقهوا أن من انتصر بها فهو منصور، ومن سار عليها وفق فى سائر الأمور، ومن اعتصم بها نجا من النار، ومن حافظ على برها حشر مع الأبرار، ومن تمسك بها فى زمن الفساد فله أجر مائة شهيد، ومن آثرها على نفسه نال غاية الأمل، ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى وأصلاه مثوى الكافرين :

تأمل قوله تعالى : ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾، وقوله تعالى : ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾، وقوله جل شأنه : ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، وقوله جلت حكمته : ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾، وقوله تعالت حكمته : ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وجوب محبته

أما محبته صلى الله عليه وسلم فلأنه قد جاء بالرأفة والرحمة، وعلم الكتاب والحكمة، وبشر وأنذر، ونهى عن التعسير ويسر، وبالغ فى النصيحة وسلك المحجة الصحيحة، وأتى بالهداية وأنقذ من العماية، ودعا إلى الفلاح، وبين سبيل النجاح.

فأى كرم أجزل من كرمه ؟ وأى نعم أكمل من نعمه ؟ وأى إفضال أعم من إفضاله ؟ وأى نوال أتم من نواله ؟

من أجل ذلك كانت محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم هى المنزلة التى يتنافس فيها المتنافسون، وإليها يشخص العاملون : فهى قوت القلوب وغذاء الأرواح وقرة العيون، وهى الحياة، فمن حرمها فهو فى عداد الأموات، وهى النور فمن فقدها ففى تيه الظلمات، وهى شفاء من عدمه حلت بقلبه ضروب الأسقام .

ولا عجب : فقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها : فإذا كان الإنسان يحب من منحه من دنياه مرة أو مرتين معروفا فانيا منقطعا أو أنقذه من هلكة أو مضرة لا تدوم فما بالك من منحه منحا لا تبيد ولا تزول، ووقاه العذاب الأليم، ودله على النعيم المقيم ؟

وإذا كان المرء يحب غيره لما فيه من صورة جميلة وسيرة حميدة فكيف بهذا النبي الكريم، والرسول العظيم الجامع لمحاسن الأخلاق والتكريم المانح للخلق جوامع المكارم والفضل العميم ، والذى أخرجهم من نار الجهل إلى جنات العرفان والإيقان، وهو الوسيلة إلى البقاء الأبدى فى النعيم السرمدى، وليس لأحد بعد الله منة على خلقه سواه ؟

من أجل ذلك استحق أن يكون حظه من محبتنا له أوفى وأزكى من محبتنا لأنفسنا وأولادنا وأهلنا وأموالنا والناس أجمعين، بل لو كان فى منبت كل شعرة منا محبة تامة له صلوات الله وسلامه عليه لكان ذلك بعض ما يستحقه علينا :

انظر قوله عليه الصلاة والسلام : « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ »، وفى رواية أخرى : (حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ) .

درجات الناس فى محبته

الناس متفاوتون فى محبته : فمنهم من أخذ منها بالحظ الأدنى ، ومنهم من إذا ذكر النبي صلى الله عليه وسلم اشتاق إلى رؤيته بحيث يؤثرها على أهله وماله وولده، ويبذل نفسه فى الأمور الخطيرة، ويجد رجحان ذلك من نفسه وجدانا لا تردد فيه :

وسبب تفاوت المحبين فى محبته صلى الله عليه وسلم هو استحضار ما وصل إليهم من جهته من النفع الشامل لخير الدارين والغفلة عن ذلك . ولا شك أن حظ الصحابة رضوان الله عليهم فى هذا المعنى أتم : لأن هذا ثمرة المعرفة ، وهى فيهم أتم : تأمل ما يلى :

(١) كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم مولى يسمى ثوبان ، وكان شديد الحب له قليل الصبر عنه ، فأتاه يوما وقد تغير وجهه ونحل جسمه وظهر الحزن فى وجهه ، فسأله الرسول صلى الله عليه وسلم عن حاله ، فقال : يا رسول الله : ما بى من وجع — غير أنى إذا لم أرك اشتقتك واستوحشت وحشة عظيمة ، فذكرت الآخرة حيث لا أراك هناك : لأنى إن دخلت الجنة فأنت تكون فى درجات النبيين فلا أراك . فنزل قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ : وليس المراد أن يكون الكل فى درجة واحدة : لأن الله لا يسوى بين الفاضل والمفضول ، وإنما المراد أنهم فى الجنة مع التمكن من الرؤية والمشاهدة : لأن الحجاب إذا زال شاهد بعضهم بعضا .

(٢) روى ابن اسحاق أن امرأة من الأنصار قتل أبوها وأخوها وزوجها يوم أحد ، فأخبروها بذلك ، فقالت : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالوا : بحمد الله هو كما تحبين . قالت : أرونيه حتى أنظره ، فلما رأته قالت : كل مصيبة بعدك صغيرة .

(٣) لما أخرج أهل مكة زيد بن الدثنة من الحرم ليقتلوه قال له أبو سفيان ابن حرب : أنشدك الله يا زيد : أتحب أن محمدا الان مكانك تضرب عنقه وأنك فى أهلك ؟ فقال زيد : والله ما أحب أن محمدا مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة وإنى لجالس فى أهلى ، فقال أبو سفيان : ما رأيت أحدا من الناس يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا .

(٤) أن بلالا رضى الله عنه لما حضرته الوفاة كان أهله يقولون : واكرباه ، وهو يقول : واطرباه : غدا ألقى الأحبة : محمدا وصحبه . فمزج مرارة الموت بحلاوة اللقاء : وهى حلاوة الإيمان التى جاءت الإشارة إليها فى قوله صلى الله عليه وسلم : (ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ : أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ،

وَأَنْ لَا يُحِبَّ الْمَرْءَ مَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ) .

من أجل ذلك كان عمرو بن العاص رضى الله عنه يقول : ما كان أحد أحب إلىّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان على كرم الله وجهه يقول : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وامهاتنا ومن الماء البارد على الظمأ .

تأمل قول ابن عطاء الله : إن القلوب السليمة من أمراض الغفلة والهوى تتنعم بملذوذات المعانى كما تتنعم النفوس بملذوذات الأطعمة .

أولئك هم الذين قرت أعينهم بمحبة محمد صلى الله عليه وسلم ، وسكنت نفوسهم إليه ، واطمأنت به قلوبهم ، فجعلوه إمامهم ومعلمهم ، وتأدبوا بآدابه ، وتخلقوا بأخلاقه .

أمارات محبته صلى الله عليه وسلم

لمحبة الرسول صلى الله عليه وسلم دلائل جمة أهمها ما يلى :

(١) نصر دينه بالقول والفعل ، والدفاع عن شريعته ، والتخلق بأخلاقه فى الجود والإيثار والحلم والصبر والتواضع وغيرها . فمن جاهد نفسه على ذلك وجد حلاوة الإيمان ، ومن وجدها استلذ الطاعات ، وتحمل المشاق فى الدين ، وآثر ذلك على أعراض الدنيا الزائلة .

(٢) العطف على أمته ، والبر بصالحهم ، والنصح لهم ، والسعى فى مصالحهم ، وبذل الجهد فى نشر دينه ونصرته ، والتأدب بآدابه وأحكامه ، وإيثار شرعه على الهوى ، وعدم مبالاة بسخط الناس فى رضا الله ورضاه ، والتخلق بخلقه ، والتطبع بطبعه ، واجتناب كل أمر يخالف شرعه ، والوقوف عند حدوده ، ورفض أقوال شانئه وحسوده ، وبذل النفس والمال دونه ، والميل إلى من أحبه .

(٣) تعظيمه صلى الله عليه وسلم وتوقيره : فقد كان أصحابه الأبرار لفرط محبتهم له يعظمونه كثيرا ، ولا يملئون عيونهم منه إجلالا وتوقيرا، يستمعون لما يخرج من فيه، ولا يتعجلون بقضاء أمر قبل قضائه فيه، ولا يرفعون صوتهم فوق صوته، وينادونه بأشرف ما يحب من أسمائه، وقد سمحوا في الدفاع عنه وعن دينه بأموالهم وأنفسهم ، وجاء السلف الصالح من بعدهم ، فعظموا حديثه الحسن الصحيح، وتلقوا ما وصل إليهم من سنته الشريفة بكل صدر فسيح ، وأنصتوا إلى سماع أقواله ، وتأدبوا بأوصافه وأفعاله : فمنهم من ارتدى بالخضوع والخشوع، ومنهم من جرت من عينيه شآبيب الدموع ، ومنهم من لم يكتب الحديث إلا وهو طاهر، ومنهم من امتنع أن يقرأ حديثه وهو مضطجع أو سادر . وكان حالهم في توقيره والاستجابة إليه كما لو كانوا وهو حي بين يديه : لأنهم عرفوا حق قدره ، فاستوت لديهم حياته ومماته .

(٤) محبة آله الأطهار وعترته الأبرار وذريته الأخيار وسائر المهاجرين والأنصار ، وإكرام أمهات المؤمنين أزواجه، وإجلال من سلف من أصحابه ومن لازمه منهم في ذهابه وإيابه ، والاقتداء بأفعالهم الصالحة، والاقتباس من أنوار معارفهم الواضحة .

(٥) الاستغفار لأصحابه صلى الله عليه وسلم في كل الأحوال ، والإمساك عما شجر بينهم من الأقوال والأفعال، وإظهار سيرتهم الحميدة، وتبيان فضائلهم الوفيرة ، والاهتداء بأعلام علومه الرفيعة، ونبذ من عاداهم من ضلال المبتدعة :

تأمل قوله تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ ، وقوله جل شأنه : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ ، وقوله وهو أصدق القائلين : ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ ﴾ ، وقول المصطفى عليه الصلاة والسلام مما يتشنف به السمع وتتشرف به الصحيفة : «لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ» .

من أجل ذلك كان من أحسن الثناء عليهم بريئا من النفاق، ومن أحبهم نال في ميدان الإيمان جائزة السباق، ومن حفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم حفظه الله في الدنيا والآخرة : لأن الله فضلهم بصحبة سيد المحسنين، واختارهم على العالمين — سوى الأنبياء والمرسلين .

(٦) الإكثار من ذكره صلى الله عليه وسلم : لأن علامة المحبين كثرة الذكر للمحبوب على طريق الدوام لا ينقطعون ولا يملون ولا يفترون .

(٧) إظهار الخشوع والخضوع عند ذكره : كما كان كثير من الصحابة رضى الله عنهم إذا ذكروه خشعوا واقشعرت جلودهم، وكما فعل كثير من التابعين ومن بعدهم :

تأمل ما روى من أن جعفر بن محمد رضى الله عنه كان كثير المزاح والدعابة فإذا ذكر عنده النبي صلى الله عليه وسلم اصفر لونه ، وأن عبد الرحمن بن القاسم ابن محمد بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه كان إذا ذكر النبي صلى الله عليه وسلم جف لسانه فى فمه هيبة للرسول وتغير لونه كأنه نزف منه الدم، وأن عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما كان إذا ذكر عنده النبي صلى الله عليه وسلم بكى حتى لا يبقى فى عينه دموع .

وغير هؤلاء كثير ممن كانوا إذا ذكر عندهم المصطفى صلى الله عليه وسلم خضعوا، وخشعوا ، وسكنت حركتهم، وتمشت فى قلوبهم الهيبة والإجلال : كما لو كانوا بين يديه .

(٨) حب القرآن الكريم الذى أتى به وتخلق به : فإذا أردت ان تعرف ما عندك وعند غيرك من محبة الله ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم فانظر محبة القرآن من قلبك : إذ من المعلوم أن من أحب محبوبا كان ما يجيء به من الحديث أحب شيء إليه .

انظر قول عثمان بن عفان رضى الله عنه : لو طهرت قلوبنا ما شبعت من كلام الله تعالى . وكيف يشبع المحب من كلام محبوبه وهو غاية مطلوبه !

تأمل قول النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن مسعود رضى الله عنه : « اقرأ علىّ » . قال : أقرأ عليك وعليك أنزل . قال : «فإنى أحب أن أسمعه من غيرى» . فاستفتح ، وقرأ سورة النساء حتى بلغ : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ قال : حسبك ، فرفع رأسه فإذا عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم تذرفان من البكاء .

وتأمل قول الله تعالى فى حق القسيسين والرهبان : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴾ :

وسر ذلك أن السماع تارة يثير حزنا والحزن حار ، وتارة يثير شوقا والشوق حار ، وتارة يثير ندما والندم حار : فإذا أثار السماع هذه الصفات من صاحب قلب مملوء ببرد اليقين بكى وأدمع .

---

*

الباب العاشر

موجز السيرة النبوية

ليس الغرض من هذا الباب بسط القول فى السيرة النبوية فذلك له كتبه ، وإنما القصد الإلمام بطرف من سيرته عليه الصلاة والسلام : ليرجع إليه من يريد الحقائق التاريخية .

نسب النبي صلى الله عليه وسلم

(ا) نسبه من جهة أبيه

هو سيدنا أبو القاسم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ابن قصى بن حكيم بن مرّة بن كعب بن لؤىّ بن غالب بن فهر بن مالك ابن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد ابن عدنان . وينتهى نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .

(ب) نسبه من جهة أمه

هو سيدنا محمد بن آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن حكيم ، فتجتمع معه عليه السلام فى جدّه حكيم .

أدوار حياة الرسول

لحياته عليه السلام ثلاثة أدوار :

(١) من ولادته إلى النبوّة .

(٢) من النبوّة إلى الهجرة .

(٣) من الهجرة إلى وفاته .

(١) الدور الأول : من حمله إلى النبوة

تزوج أبو الرسول « عبد الله بن عبد المطلب » فى الثامنة عشرة من عمره آمنة بنت وهب ، فحملت منه برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتوفى وهى حامل به ، أو بعد وضعه بشهرين . وكانت ولادته ليلة الاثنين التاسع من ربيع الأول عام الفيل حين طلوع الفجر « وقت البركة » فى زمن الملك العادل كسرى أنوشروان ملك فارس ، ولم يرث عن أبيه إلا خمسة جمال وبعض نعاج وجارية ، وأرضعته حليمة السعدية ، فدرت البركات عليها وعلى أهل بيتها مدة وجوده بينهم .

وفى السنة السادسة أخرجته أمه إلى أخواله بالمدينة ، فتوفيت بالأبواء «قرية قريبة من المدينة» ، فحضنته أم أيمن ، وكفله جده عبد المطلب مدة سنتين ، ثم توفى فكفله عمه أبو طالب .

وفى السنة التاسعة من عمره سافر إلى الشام أول مرة مع عمه هذا .

وفى سنة عشرين حضر حرب الفجار « حرب كانت بين قريش وحلفائها ، وقيس وحلفائها فى موضع يسمى «نخلة» بين مكة والطائف» .

وفى السنة الخامسة والعشرين من عمره سافر إلى الشام بتجارة لخديجة بنت خويلد لأمانته وصدقه مع غلامها ميسرة ، فباعا واشتريا وربحا أعظم ربح ، وبعد شهرين من رجوعه من الشام خطبته خديجة لنفسها ، فتزوج بها ولها من العمر حينئذ أربعون سنة .

وفى السنة الخامسة والثلاثين من عمره صدع سيل جارف جدران الكعبة بعد توهين من حريق كان قد أصابها فشارك الرسول قريشا فى بنائها ، ولما اختلفوا فيمن يضع الحجر الأسود حتى كادوا يقتتلون أدركهم الله بالرسول الفطن ، فبسط رداءه ، وقال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم وضع الحجر فيه ، وأمرهم برفعه حتى انتهوا إلى موضعه ، فأخذه الرسول ، ووضعه فيه .

ولما بلغ الأربعين أكرمه الله بالرسالة .

معيشته قبل النبوة

نشأ عليه الصلاة والسلام مفطورا على محاسن الأفعال وجيد الأعمال ، ورعى الغنم مع إخوته من الرضاع فى البادية، ولما رجع إلى مكة كان يرعاها لأهلها بأجر . ولو أراد ثراء المال كان له وفر لا سيما بعد أن استأجرته خديجة، واختارته زوجا لها ، لكنه لم تغره زخارف الدنيا ، بل كلما تقدمت به السن زادت فيه الرغبة عما كان عليه الناس ، ونما فيه حب الانفراد والانقطاع إلى الفكر والمراقبة . ولم يزل يناجى الله ويتوسل إليه حتى أكرمه بالنبوة .

(٢) الدور الثانى : من النبوة إلى الهجرة

ولما أحب الرسول الانقطاع عن الناس كان يتعبد فى غار حراء «جبل بمكة» عشر ليال أو أكثر . وأول ما فتح له من الدلالات الرؤيا الصالحة الصادقة ، ولما بلغ عليه السلام أربعين سنة اختاره الله لرسالته ، وأنزل عليه الروح الأمين وهو فى غار حراء ليعلمه كيف يهدى قومه والناس أجمعين ، فصدع بالأمر ، وبلّغ ما أنزل إليه من ربه ، وكانت الدعوة سرا ، فأجابها كثير من الأشراف والموالى .

فترة الوحى

انقطع الوحى مدة أربعين يوما ليشتد شوقه عليه السلام إليه فيكون استعداده لتلقيه أكثر ، ثم تتابع نزول الوحى عليه صلى الله عليه وسلم . وأول ما علمه جبريل ملك الوحى من الآيات قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

الدعوة سرا ثم جهرا

ابتدأت الدعوة سرا خوفا من مفاجأة الناس بأمر غريب ، ثم أمره الله بالجهر بقوله : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ، فلبى داعى الله ، وخاض غمرات الدعوة ، ودعا الناس إلى عبادة الله تعالى وحده ، وأن يتركوا

ما كان عليه آباؤهم من الشرك والكفر وعبادة الأوثان ودعاء الأصنام : فنهم من هُدِى، ومنهم من حقت عليه الضلالة .

وقد لاقى من أجل ذلك أذى عظيما من قومه، وكان يشتد أذاهم له إذا ذهب إلى الصلاة عند البيت، ولم يزل صابرا على أذاهم حتى صرع الحق الباطل .

السنة الخامسة من النبوة وما بعدها

فى هــذه السنة أمر الرسول أصحابه بالهجرة إلى الحبشة ، فهاجر أناس منهم لم يكن لهم عشيرة تحميهم أو قبيــلة ترد عنهم كيد أعدائهم فرارا بدينهم . وهى أول هجرة من مكة، وعدة أصحابها عشرة رجال وخمس نسوة . ثم رجعوا بعد ثلاثة أشهر . وفى ذلك الوقت أسـلم حمزة عم الرسول وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما، وكان المسلمون إذ ذاك بضعة وأربعين رجلا وإحدى عشرة امرأة .

وفى السنة السابعة أمر الرسول أصحابه بالهجرة إلى الحبشة للمرة الثانية . وعدة أصحابها نحو ثلاثة وثمانين رجــلا وثمانى عشرة امرأة . فلما رأت قريش اســتقرار المهاجرين فى الحبشة أرسلوا إلى ملكها النجاشى رسولين بهدايا وتحف رجاء أن يرد من هاجر إلى بلاده من المسلمين، فأبى وردهما خائبين . ثم أسلم النجاشى ومن معه من القسيسين والرهبان ســنة سبع من الهجرة لمــا سمعوا سورة مريم . ثم مات النجاشى مسلما، وصلى عليه رسول الله لمــا أعلمه جبريل بوفاته . وهذه هى أصل صلاة الجنائز على الغائب .

وفى السنة العاشرة وفد على النبى وفد من نصارى نجران فأسلموا .

وفيهــا توفيت خديجــة زوج الرسول ، وبعد وفاتهــا بنحو شهرين توفى عمه أبو طالب، وكان يدرأ عنــه الأعداء ويمنعه ممن يريد أذاه . ولذلك نالت قريش من الرسول ما لم تقدر على نيله فى حياة أبى طالب، واشتد أذاهم له وتعصبهم عليه، فلمــا رأى ذلك هاجر إلى الطائف ومعــه زيد بن حارثة ، فأقام به شهرا يدعو

بنى ثقيف إلى الله تعالى ليعينوه على قومه ويساعدوه حتى يتم أمر ربه، فلم يجيبوا، وآذوه إيذاء شديدا، فرجع إلى مكة، ودخلها فى جوار المُطْعِم بن عدىّ .

وفى السنة الحادية عشرة أكرمه الله بالإسراء والمعراج ، وفى المعراج فرضت الصلوات الخمس .

بدء انتشار الدين الإسلامى

لما حالت قريش بين الرسول وتأدية الرسالة خرج فى مواسم العرب، وعرض نفسه على القبائل . وممن كلمهم النبي نفر من عرب يثرب « المدينة المنورة » من الأوس عرفوا وصفه الذى كانت تصفه به اليهود فآمن منهم ستة كانوا سبب انتشار الإسلام فى المدينة .

فلما كان العام القابل لقيه اثنا عشر رجلا : عشرة من الأوس واثنان من الخزرج وفيهم خمسة ممن قابلوه فى السنة الأولى، فآمنوا عند العقبة — وهى العقبة الأولى — وبايعوه على ما أحب، ثم انصرفوا إلى المدينة، فأظهر الله فيها الإسلام .

وفى العام التالى « الثالث عشر للنبوة » وفد على الرسول منهم سبعون رجلا وامرأتان، فأسلموا وبايعوه عند العقبة — وهى العقبة الثانية — ثم نقب عليهم الرسول اثنى عشر نقيبا منهم : لكل عشرة نقيب . ثم انصرفوا إلى المدينة، فانتشر الإسلام فيها بين أهلها رضى الله عنهم .

(٣) الدور الثالث : من الهجرة إلى وفاته

الهجرة إلى المدينة

لما ازداد الأذى على المسلمين أمرهم الرسول بالهجرة إلى المدينة، فصاروا يتسللون خوفا من أن تمنعهم قريش، ولم يبق فى مكة إلا القليل ، وإذ ذاك أجمع قريش على قتل الرسول، وجمعوا من كل قبيلة شابا حتى يتفرق دمه فى القبائل، فأعلم الله نبيه بما دبره الأعداء من الكيد ، وأمره باللحاق بدار هجرته التى ينتشر

فيها الإسلام، فصدع بالأمر وسنه ثلاث وخمسون سنة، وخرج من مكة فى الليلة التى فيها التف الشبان حول داره لاغتياله ، فألقى الله عليهم النوم ، فلم يره أحد ، وخلف مكانه على بن أبى طالب ليؤدّى ودائع للناس كانت عنده .

وقد صحبه فى هذه الهجرة أبو بكر، فأسرعا فى السير حتى وصلا إلى غار ثور . ولما علم المشركون بفساد مكرهم هاجوا لذلك ، وأرسلوا الطلاب إلى كل جهة ، وجعلوا لمن يأتى به أو يدل عليه مائة ناقة، وقد وصلوا فى طلبهم إلى الغار ، فأعمى الله أبصارهم عنهما .

وبعد ثلاث ليال جاءهما الدليل براحلتين، فساروا قاصدين إلى المدينة ، فوصلوا إلى قُبَاء يوم الاثنين لاثنتى عشرة خلت من ربيع الأول . وكان التاريخ من ذلك، ثم ردّ إلى المحرم، وهو أوّل تاريخ جديد لظهور الإسلام بعد أن مضى عليه ثلاث عشرة سنة . وقد بنى رسول الله وهو فى قباء مسجدها الذى وصفه الله بأنه مسجد أسس على التقوى من أوّل يوم، وقد صلى فيه الرسول بمن معه من المهاجرين والأنصار، ثم برح الرسول قباء ، فأدركته الجمعة فى الطريق، فصلاها بمن معه من المسلمين، وكانوا مائة — وهذه أوّل جمعة صلاها — ثم توجه بعد الجمعة إلى المدينة والأنصار محيطون به وهم متقلدون سيوفهم، فسر أهل المدينة أيما سرور، وقد خرج لملاقاته فيمن خرج النساء والصبيان والولائد ينشدن :

أشرق البدر علينا * من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا * ما دعا لله داع

أيها المبعوث فينا * جئت بالأمر المطاع

السنة الأولى من الهجرة

فيها بنى مسجده الشريف وقد عمل فيه الرسول بنفسه ترغيبا للمسلمين فى العمل . وفيها شرع الأذان : ليجتمع الناس متى حان وقت الصلاة .

ولما رأت اليهود أن قدم الإسلام قد رسخت فى المدينة هاجتهم العداوة والحسد ، فتحزبوا على المسلمين، فعقد الرسول معهم عقدا على أن يتركوا أذاه ويترك محاربتهم

مشروعية القتال

لم يقم الدين بالسيف، وإنما قام بالدعوة والتبشير، فعارض الرسول من عارضه، وآذاه من آذاه بغيا وحسدا، وكان هو ومن آمنوا معه صابرين على الأذى حتى فرج الله عنهم بالهجرة، وشد أزرهم، وأباح لهم أن يأخذوا بثأرهم من أعدائهم قريش وغيرهم من العرب واليهود ، ثم صار الأمر بالجهاد عاما الكل من أراد المسلمين بسوء .

بدء القتال

لما أذن للرسول أن يقاتل أعداءه أرسل سرية «وهى كل غزاة لم يكن فيها رسول الله» برآسة عمه حمزة لاعتراض عير لهم «جمال تحمل الطعام وغيره» قادمة من الشام، ولم يحصل حرب ، ثم أرسل سرية أخرى لاعتراض غيرهم، وكان الرمى بالنبال إلى أن هرب المشركون .

السنة الثانية

فيها غزوة بدر الأولى وتسمى غزوة سَفَوَان (١) : خرج إليها الرسول فى طلب كُرْز ابن جابر الفِهْرِىّ : لأنه أغار على سرح (٢) المدينة وهرب، ولم يكن قتال : لفرار كرز .

وفى هذه السنة أيضا أرسل الرسول عليه السلام سرية برآسة عبد الله بن جحش لاعتراض عير قريش القادمة من الشام ، فأصابوها ورجعوا . وهى أول غنيمة فى الإسلام .

---

(١) اسم بئر بين مكة والمدينة كانت الواقعة قريبة منها .

(٢) السرح : المال الراعى كالغنم ونحوها .

وفى هذه السنة أيضا تحولت القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة بعد أن مكث المسلمون يتوجهون إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا .

صوم رمضان وزكاة الفطر

فى شهر شعبان من هذه السنة فرض صوم رمضان، وكان عليه السلام قبل ذلك يصوم ثلاثة أيام من كل شهر . وقد أوجب الشارع الحكيم عقب الصوم زكاة الفطر، وجعل قبول الصوم معلقا على بذلها لمستحقها .

زكاة المال وحكمتها

وفى السنة الثانية أيضا فرض الله على الأغنياء من الأمة الزكاة التى هى النظام الوحيد والسبب الأقوى لدفع غائلة الفقر عن الأمة إن هى صرفت على مستحقيها : فيأكل الفقراء والمساكين والعجزة واليتامى الذين ليس لهم من يقوم بحاجاتهم ولا ما يقوم بأودهم من مال إخوانهم الأغنياء بلا ضرر ولا ضرار .

غزوة بدر الكبرى — وهى الثانية

وفى هذه السنة خرج الرسول ومعه ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا وتعرضوا لإحدى قوافل قريش المارة بالمدينة وهى راجعة من الشام ، فعلمت قريش بذلك، وخرجت إليه فى تسعمائة وخمسين رجلا ، وتقابل الفريقان على ماء بدر ، وانتصر المسلمون انتصارا عظيما .

صلاة العيدين وزواج على بفاطمة وتزوج النبي عائشة

فى هذه السنة أيضا سن الله صلاة العيدين : عيد الفطر وعيد الأضحى .

وفيها تزوج على بفاطمة رضى الله عنهما ،وكان منها عقب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفيها تزوج النبي عائشة بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما

السنة الثالثة من الهجرة — غزوة أحد [1]

فى هـذه السنة سارت قريش فى ثلاثة آلاف محارب لحرب المسلمين أخذا بثأر من قتـل من أشرافهم يوم بدر، فجمع النبي تسعمائة رجل ، وتقابل الفريقان بجبـل أحد ، وكاد ينتصر المسلمون لولا أن شغل الرماة بالغنائم وتركوا أماكنهم، فقتل كثير من المسلمين، وجرح النبي عليه السلام .

وفى هذه السنة تزوج عليه السـلام حفصة بنت عمر بن الخطاب ، وزينب بنت خزيمة .

تحـريم الخمـر

وفى هذه السنة أيضا حرم الله الخمر قطعا : لمـا فيها من الأضرار الجسيمة فى العقل والمـال والجسم .

السنة الرابعة من الهجرة — غزوة ذات الرقاع [2]

فيها خرج الرسول ومعه سبعمائة مقاتل لمحاربة بنى محارب وبنى ثعلبة المتهيئين لقتال المسلمين، فهربوا وتركوا نساءهم . وفى هذه الغزوة نزل جبريل عليه السلام بصلاة الخوف، ثم برخصة التيمم .

السنة الخامسة من الهجرة — غزوة الخندق وهى الأحزاب

فيها حرضت قريش القبائل ضدّ النبي، فاجتمع عدد منها، وحاصروا المدينة، ولكن المسلمين كانوا قد حفروا حولها خندقا ، فلم يستطع الكفار دخولها، ولما طال مكثهم بدون فائدة اختلفوا فيما بينهم ، وهبت عليهـم ريح عاصفة ، فتشتت شملهم وعادوا من حيث أتوا .

---

(١) جبل بالمدينة .

(٢) سميت بذلك : لأن المسلمين رقعوا راياتهم ، أولفوا على أرجلهم فيها الخرق .

فى هذه السنة أيضا نزلت آية الحجاب ، وفيها أيضا فرض الحج على من استطاع إليه سبيلا : ليجتمع المسلمون فى مكان واحد ، فيجددوا عهود الإخاء والولاء، و يدعوا الله عز وجل أن يؤيدهم بنصره، و يمكن قواعد الألفة بينهم . وفى ذلك من الفوائد السياسية والدينية ما لا يخفى على ذى بصيرة كما تقدّم .

السنة السادسة من الهجرة — غزوة الحديبية

فيها خرج الرسول معتمرا فى ألف وأربعمائة رجل سيوفهم فى أغمادها ، فجمعت قريش الجموع : لتصدهم عن البيت الحرام . ولم تقع الحرب ، بل حصل صلح الحديبية بين الفريقين كما سبق بيانه .

السنة السابعة من الهجرة — غزوة خيبر (١)

أراد النبي أن يؤدب اليهود : لاشتراكهم مع أعدائه فى حصار المدينة، وكانوا قد تعهدوا بالتزام الحيدة ، فغزاهم فى بلادهم «خيبر» وفتحها ، وغنم المسلمون منها غنائم عظيمة .

السنة الثامنة من الهجرة — غزوة الفتح (٢)

غزا النبي المشركين فى معقلهم «مكة» ، وفتحها ، وهدم الأصنام فى الكعبة، فخضعت له قريش واستسلمت ، فقابلها بالصفح، وعفا عمن آذوه مع قدرته على الانتقام منهم ، فضرب لهم مثلا جديدا على كريم خصاله ، وأسلمت قريش جميعها يوم الفتح، و بذلك علت كلمة الإسلام .

نشر الإسلام خارج بلاد العرب

لما علت كلمة الإسلام وأسلمت قريش جميعها يوم الفتح أنفذ النبي رسله إلى مختلف الأقطار، وأرسل البعوث إلى ملوك الفرس والروم ومصر والحبشة،

---

(١) بلدة شمالى المدينة ذات حصون ومزارع .

(٢) فتح مكة .

فأسلم بعضهم، ورد البعض ردا حسنا كالمقوقس عظيم القبط : فإنه أرسل إلى النبي جملة هدايا . ومنهم من أبى، واستكبر، وأهان الرسل، فكانت عاقبته الخسران المبين .

السنة التاسعة من الهجرة — غزوة تبوك[1]

تعرف بغزوة العسرة : لأنها كانت فى زمن عسرة الناس وجدب الأراضى وشدّة الحرّ :

وسببها أن الروم جمعت الجموع بالشام مع هرقل تريد غزو المسلمين فى بلادهم، فعلم الرسول بذلك، فسار بجيش عدده ثلاثون ألفا من مكة والمدينة وقبائل العرب، وقد استقبل المسلمون فيها سفرا بعيدا ومفاوز مهلكة وعدوا كثيرا حتى إنهم كانوا ينحرون البعير فيشربون ما فى كرشه من الماء ، ولما وصلوا إلى تبوك لم يروا فيها جيشا كما سمعوا، فأقاموا بها عشرين ليلة من غير حرب ثم رجعوا .

السنة العاشرة — بعثات إلى اليمن

فى هذه السنة أرسل الرسول علىّ بن أبى طالب فى ثلثمائة فارس إلى قبيلة بنى مذحج من أهل اليمن، وعقد لواءه بيمينه ، وعممه بيده ، وقال له : «سر حتى تنزل بساحتهم، فادعهم إلى قول : لا إله إلا الله : فإن قالوا : نعم فمرهم بالصلاة ولا تبغ منهم غير ذلك . ولأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك مما طلعت عليه الشمس . ولا تقاتلهم حتى يقاتلوك » وقال أيضا : « إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر» . فسار علىّ حتى انتهى إليهم ولقى جموعهم فدعاهم إلى الإسلام ، فأبوا ، ثم أجابوا بعد قتالهم وهزيمتهم، و بايعه رؤساؤهم ، وطلبوا منه أن يأخذ زكاة أموالهم، وأن يكونوا على من وراءهم من قومهم .

ثم رجع على رضى الله عنه بأصحابه فوافى الرسول بمكة وقدمها للحج فى السنة العاشرة، وقد كان الرسول أرسل إلى أهل اليمن من يعلمهم شرائع الإسلام، وكانت

(١) مكان معروف فى منتصف الطريق بين المدينة ودمشق .

كورتين «إقليمين» : فبعث معاذ بن جبل إلى الكورة العليا من جهة عدن، وبعث أبا موسى الأشعرى إلى الكورة السفلى، وقال لهما : « يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا» ثم انطلق كل منهما إلى عمله ، فمكث معاذ باليمن حتى توفى رسول الله . أما أبو موسى فقدم على النبي فى حجة الوداع .

حجة الوداع

فى السنة العاشرة من الهجرة حج رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع وخطب فى عرفة « فى اليوم التاسع من ذى الحجة» خطبة الوداع بين فيها أهم أصول الدين وفروعه وقد تقدم ذكرها، وفى هذا اليوم نزل قوله تعالى : « ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِينًا » .

وبذلك أكمل الرسول شعائر الإسلام وأتم رسالته على أكمل وجه، ثم عاد إلى المدينة .

مرض الرسول عليه السلام

بعد أن عاد الرسول من الحج إلى المدينة مرض ثلاثة أيام، ولما اشتد عليه المرض استأذن نساءه أن يُمَرَّض فى بيت إحداهن، فأذن له ببيت عائشة، ولما تعذر عليه الخروج إلى الصلاة قال : مروا أبا بكر فليصل بالناس ثم خرج متوكئا على علىّ والفضل، وتقدم العباس أمامهم، والنبى معصوب يخط برجليه حتى جلس فى أسفل مرقاة المنبر، فثار إليه الناس فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أيها الناس بلغنى أنكم تخافون من موت نبيكم . هل خلد نبى قبلى فيمن بعث فأخلد فيكم ؟ ألا وإنى لاحق بربى . ألا وإنكم لاحقون بى . فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيرا ، وأوصى المهاجرين فيما بينهم : فإن الله تعالى يقول : ﴿ وَٱلْعَصْرِ إِنَّ ٱلْإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِٱلصَّبْرِ ﴾ . وإن الأمور تجرى بإذن الله . فلا يحملنكم استبطاء

أمر على استعجاله : فإن الله عز وجل لا يعجل بعجلة أحد، ومن غالب الله غلبه، ومن خادع الله خدعه : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ . وأوصيكم بالأنصار خيرا : فإنهم الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلكم : أن تحسنوا إليهم : ألم يشاطروكم فى الثمار ؟ ألم يوسعوا لكم فى الديار ؟ ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة ؟ ألا فمن ولى أن يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم، وليتجاوز عن مسيئهم . ألا ولا تستأثروا عليهم . ألا وإنى فرط لكم، وأنتم لا حقون بى . ألا وإن موعدكم الحوض . ألا فمن أحب أن يرده على غدا فليكفف يده ولسانه إلا فيما ينبغى . يأيها الناس إن الذنوب تغير النعم وتبدل القسم : فإذا بر الناس برهم أئمتهم، وإذا فجروا عقوهم » .

وفاة الرسول عليه السلام

اشتدّ وجع الرسول صلى الله عليه وسلم يوم الأحد، ولما كان يوم الاثنين الثانى عشر من شهر ربيع الأول الذى هو تتمة عشر سنين للهجرة فارق الرسول دنياه، ولحق بمولاه، واختار الرفيق الأعلى على زهرة الحياة الدنيا بعد أن أدّى الأمانة حق أدائها، وهدى الناس الصراط المستقيم، ودعاهم إلى عبادة الله العظيم، فلقى من أجل ذلك مشقات جمة ، وأهوالا عظيمة ، ثبت أمامها غير هياب ولا وجل حتى صرع الحق الباطل، وانتشرت أشعة الدين الحنيف ، فأنارت البصائر والأبصار، فنطقت الألسنة بالشكر له والثناء عليه .

وبوفاته حزنت النفوس حزنا شديدا على فراقه . فاللهم آت سيدنا محمدا الوسيلة والفضيلة، وابعثه الله المقام المحمود الذى وعدته : إنك لا تخلف الميعاد .

دفنه عليه السلام

بقى عليه السلام فى بيته حتى انتهى المسلمون من إقامة خليفة لهم ، ثم غسل وكفن فى ثلاثة أثواب ليس فيها قميص ولا عمامة، ووضع على سرير فى بيت عائشة،

وصلى عليــه المسلمون جميعا بلا إمام : الرجال ثم النساء ثم الصبيان، وحفر له لحد في بيت عائشة حيث توفى،ودفن ليلة الأربعاء فى جوف الليل تاركا للمسلمين شيئين لا يضرهم أحد ما تمسكوا بهما : وهما :

كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

والأحاديث التى حفظها عنه الثقات،وكانت تشريعا وتبيينا للأحكام ومقاصد القرآن الكريم .

وعاش عليه السلام ثلاثا وستين سنة : أربعين قبل النبوة، وثلاث عشرة سنة فى مكة بعدها، وعشر سنين فى المدينة بعد الهجرة .

نسأل الله القدير أن يتوفانا على ملته ، ويقدرنا على العمل بشريعته ، ويثبتنا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

انتهى

وكان تمــام طبع هــذا الكتاب بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم السبت ٧ من ذى الحجة سنة ١٣٤٩ هجرية الموافق ٢٥ من أبريل سنة ١٩٣١ ميلادية م

محمد نديم

ملاحظ المطبعة بدار الكتب المصرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ٩٥٥/١٩٣١/٣٠٥٠)